

مِنَاحَةِ آيَةِ اللَّهِ الْعُظْمَى
السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ مُحَسِّنِ فَضْلِ اللَّهِ
(دَامَ نَهْلُهُ)

حِكْمَةُ النُّبُوَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَنْحُرِ

مُحَاضِرَاتُ تَفْسِيرِيَّةٍ فِي سُورَةِ الثَّلَاثِ الْبَارِكَةِ
يُوسُفَ - هُودَ - يُوسُفَ

إِسْلَامُ رَسْمِيَّةٌ
شَيْفِيَّةٌ مُحَمَّدٌ الْمُوسَوِيُّ

دار السلام

وقد وفقني الله لكتابة تفسير حركي مفصل صدر قبل أكثر من عشر سنوات في خمسة وعشرين جزءاً، حاولت فيه أن أستوحي القرآن استيحاءً حركياً يجد فيه الإنسان المسلم الحركي الكثير من الإحياءات الحركية، وقد نفذت طبعته الأولى وأنا الآن مشغول بتجديده وإصدار طبعته الثانية.

* * *

وقد تابعت تفسير القرآن في مسجد الإمام الرضا (ع) في كل مساء ثلاثاء بأسلوب شعبي مبسط كمحاولة لتوعية الناس بالمفاهيم القرآنية بحيث يتفهمونه بشكل منفتح قريب إلى أفهامهم.

وقد قام عزيزنا الأستاذ السيد شفيق الموسوي سلمه الله بتنسيق هذه الأحاديث التفسيرية المسجدية الإرتجالية بطريقة فنية جيدة، حفظت للتفسير عناصره وللأسلوب بساطته وسهولته، بحيث لم يختلف المکتوب فيه عن المحكي الذي كنت ألقيه على الناس في المسجد.

وإنني إذ أقدمه للقراء كتفسير شعبي أسأل الله أن ينفعني به من خلال ما ينتفع به الناس، وأن يمنح الأستاذ السيد شفيق الموسوي المزيد من توفيقه ويعطيه الأجر على عمله. والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

١٧ شوال ١٤١٧هـ

المقدمة

منذ ما يقارب العقدين من الزمن، ومساءً كل يوم ثلاثاء، ومن على منبر مسجد الإمام الرضا (ع) في بئر العبد، كان وما زال سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله (دام ظلّه) يولي لتفسير القرآن اهتمامه الكبير، حيث يردّد سماحته على الدوام: «كلّما تأملتّه - أي القرآن - وتدبرته أكثر، ووقفت عند كلماته، كلّما أعطاك فكراً جديداً وأفقاً جديداً، وهذا ما يقوله الإمام الباقر (ع): (إِنَّ الْقُرْآنَ يَجْرِي مَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وهذا هو الذي يجعلني أوكد على كلّ شبابنا وفتياتنا أن يتوفروا على وعي القرآن، لأنّ الواحد منا لن يكون مسلماً كما هو الإسلام في عمقه وامتداده، إذا لم يفهم القرآن ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة، ١٥) نحن نحتاج إلى هذا النور ليشرق في عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا المظلمة، لهذا، نقولها لكم وإخوانكم: نحن أمة وشعب وجمهور القرآن، فصلاتنا وصومنا وكافة عبادتنا لن نفهمها إذا لم نفهم القرآن».

هكذا يحثنا سماحته لأنّ نُسقط جدارَ الغربة بيننا وبين القرآن، لنعيشه تفاعلاً وتدبراً واستلهاماً لكلّ المعاني الإلهية التي تصوّب مسار خطواتنا على الدرب، ولتكون حركة النبوة القرآنية في تجربتها ومعاناتها وانتصاراتها، عنواناً كبيراً نتطلّع إليه، لنستمد من نورانية أفقه الواسع والمفتوح على المدى، ثبات المواقف تعاند كلّ الإهتزازات، ونستلهم من عظمة واقعه انطلاق الروح تتحرّر من كلّ أسارها رافضةً حالات الفراغ والخواء والإنكماش، ومتطلّعة بأمل كبير لإيجاد واقعٍ حركيٍّ، نعيش فيه الإسلام حركة حيّة ننفّث معها على قضايا الإنسان في دنياه وآخرته..

وهذا ما حرص عليه سماحة السيّد في أبحاثه ومحاضراته ودراساته وتقاريراته، بأن يكون القرآن الكريم مصدرَ المعرفة الأول الذي يحدّد للمسلم الحركي منهج

الحياة القائم على الإيمان والإستقامة والإنفتاح والحرص على تنفيذ الأمر الإلهي الذي يفتح للإنسان أبواب الدخول إلى عالم السموّ الروحي والأخلاقي والإجتماعي والسياسي، ويعطي للحياة تجددها، ويبقيها في دائرة القوة إبعاداً لها عن كلّ وهنٍ وضعف.

ومن النعم الإلهية العظيمة أنه تسنى لي أن أجلس تحت منبر سماحته استمع لمنهجه في تفسير القرآن، وقد اخترتُ من جملة ما فسّره ثلاث سور مباركة وهي (يونس وهود ويوسف) تلقي الضوء ساطعاً على سيرة النبوة التي تستمد قيمتها من أنها - وكما يقول سماحته - «حركة تنفتح بالناس على رضوان الله سبحانه في كلّ قضاياهم وأمورهم». وقد أبقيت في تحريري لهذا الكتاب على أسلوب سماحة السيد المحكيّ المشبع بالحيوية والقدرة على توضيح الفكرة القرآنية، بما يسهّل على القارئ فهم المسائل القرآنية التي تتضمن أرقى المفاهيم وأسمائها.

وكنّت وأثناء إعداده أحظى بتشجيع سماحته الأبوي وإرشاده ومواكبته في كلّ خطوات التنفيذ، وقبل الإنتهاء من العمل دعا لي بأن ينالني الثواب والأجر من الله على هذا العمل، وصادف أن تُوفيت والدتي (رحمها الله) قبل الإنتهاء من طباعته، فوهبت ما تمنيت على الله من أجر وثواب إلى روحها، سائلاً المولى أن يحشرها مع النبي (ص) وآله..

وختاماً أسأل المولى تعالى أن يبقي سماحة آية الله العظمى السيّد محمد حسين فضل الله، ظلاً وارفاً تنقياً به الأمة لتهتدي إلى سواء السبيل، إنّه سميعٌ مجيب.

شفيق محمد الموسوي

٢٩ شوال ١٤١٧هـ

٨ آذار ١٩٩٧م

سورة يونس

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ * إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١ - ٣).

تميّزت سورة يونس بعدة مواضيع وعناوين يجمعها العنوان الكبير، وهو التقاء كل الأنبياء والرسل في كل مراحل الحياة على توحيد الله تعالى في العقيدة والعبادة.

وتبدأ هذه السورة المباركة بالحروف المقطعة ﴿الر﴾، وهذه الحروف تكتب في القرآن مرتبطة بعضها ببعض، ولكن تلفظاً منفصلة (أ - ل - ر). وقد اختلف الرأي بين المفسرين في مدلول هذه الحروف، فبعضهم قال: بأنها أسماء للسور، أو رموزاً لأمر خفية لا يعلمها إلا الله، وبعضهم قال: إن الله سبحانه أراد من خلال عرض هذه الحروف في أكثر من سورة أن يثبت عجز الذين يعيشون روح التحدي للقرآن بأن يأتوا بمثله وهو المؤلف من هذه الحروف المتفرقة.

الكتاب والحكمة

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ في هذا إشارة إلى ما تشتمل عليه هذه السورة، وبقية السور من آيات الله تعالى ليتدبرها الإنسان، كونها تمثل كتاب الله الذي هو الحقيقة الخالدة التي لا يأتياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وهذا الكتاب الحكيم المشتمل على الحكمة يرفع من مستوى الناس في الحياة وينظم أوضاعهم ويحل مشاكلهم، ويؤدي التمسك به إلى النجاة في الدنيا والآخرة.

وقد حدثنا الله في أكثر من آية أنه تعالى جمع لرسله الكتاب والحكمة، فالكتاب يعطينا الخط النظري للعقيدة والشرعية، والحكمة تعطينا الأسلوب العملي الذي يؤدي بنا إلى أن نضع الشيء في موضعه، ونتحرك وفقاً للنتائج التي يريد الله لنا أن نبلغ فيها أهدافنا بكل قوة وسلامة.

تساؤلات الإنكار

﴿إِن كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنُ أُوحِيَإِنَّا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنُ نُنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ واجهت الأنبياء على مدى العصور ذهنية سيطرت على عقول المنكرين في كل الأزمنة والمراحل، وهذه الذهنية كانت ترى أن عالم الله، عالم خفي عجيب لا يرتبط بعالم الناس، ولذا فإن على الذين يتحدثون باسم الله، أو الذين يبلغون رسالة الله إلى الخلق، أن يكونوا من عوالم خفية، ومن جنس الملائكة أو الجن. وهذه الفكرة رفضت أن يكون النبي بشراً، باعتبار أن لا فرق بينه وبين بقية البشر، من حيث القدرات الخارقة المطلوبة في الشخص الغيبي، وإذا لم يكن هناك من فرق، فكيف يمكن أن يكون له علاقة مع الله؟ وما الوسيلة التي يتحدث بها مع الله؟ كانوا يطرحون تساؤلاتهم هذه مختزنين في ذهنياتهم أن الله في السماء، وأن هذا البشر في الأرض، وأن عليه لتلقي الرسالة أن يكون قريباً من الناحية الجسدية إلى صاحب الرسالة حتى يؤديها بشكل مباشر.. والفرق شاسع بين السماء والأرض، وليست هناك أية وسيلة يصعد بها إلى السماء، فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يرتبط بالله؟ ولذلك فإن الذي يدعي النبوة لا يمكن تصديق دعواه، لأنه يدعي أمراً عجيباً لا أساس له عندهم فيما يألفونه من هذه الأمور في الحياة الدنيا.

القرآن يتساءل: من أين العجب؟ فإذا كان يمكن لله تعالى أن يرسل ملكاً أو جنياً برسالته، يمكن أيضاً أن يرسل بشراً، لأنه لا قرابة بين الله وبين أحدٍ من خلقه، فليس الملائكة أو الجن أقرب إلى الله من ناحية ذاتية من البشر، فكلهم خلق الله وعبادته.

وأما تساؤلهم عن كيفية اتصال النبي بالله، فإن الجواب عن ذلك، أن الله ليس جسداً جالساً في السماء ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ (الزخرف: ٨٤) ثم إذا كان البشر لا يستطيع أن يرتفع إلى مقام الله في عرشه، فإن الله سبحانه يستطيع بوسائله الإلهية أن يرسل إلى هذا البشر رسولاً ملائكياً، أو أن

يلهمه في عقله ما يريد أن يؤديه ويبلغه. فإذا، إذا كان البشر لا يملك القدرة الذاتية لأن يرتفع إلى مقام الله، فإنه سبحانه الذي خلق البشر والكون قادر أن يرسل رسالته إلى هذا البشر بالوسائل المتنوعة التي تتمثل فيها قدرته في الدنيا والآخرة. لذلك فإن الله سبحانه بعد أن أشار إلى القرآن ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أراد أن يبين أن هذا الكتاب الحكيم هو الكتاب الذي أنزله على رسوله (ص) وأمره أن يبلغه للناس، باعتبار أنه يمثل رسالته ووحيه، وإذا كانوا يتعجبون من أن يكون النبي بشراً، فإن هذا العجب ليس له أساس يجعلهم يظنون أنه شيء مستحيل، لأنهم إذا كانوا يوافقون على أن يوحى الله إلى ملك ليجعله رسولاً، فإن الله قادر أن يوحى إلى بشر ليكون رسولاً، إذ لا فرق بين البشر وبين الملك، لأن الوحي والرسالة حالة صادرة من الغيب، والله سبحانه قادر على أن يحرك غيبه في البشر والملائكة، وإذا كان الأمر غير مألوف لا يعني أنه غير ممكن، لأن قدرة الله تتسع لكل شيء.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ وهل هذا يدعو إلى الاستغراب والدهشة والعجب؟ ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ يجعلهم يستمعون إلى إنذارك لهم في أنهم إذا ساروا على غير نهج الله، فلم يوحدوا الله في ألوهيته وعبادته وشريعته وطاعته، فإنهم سيلاقون عذابه يوم القيامة. انذرهم من جهة، إذا انحرفوا، وبشرهم من جهة أخرى إذا استقاموا ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين عاشوا الإيمان فكراً وعملاً ومنهجاً ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم موقع متقدم من مواقع الصديق باعتبار أنهم آمنوا بالصدق وتحركوا في خطه وعملوا على أساسه، ولذلك جعل الله لهم - وعلى سبيل الكناية - قدماً - أي موقعاً عنده.

محاولات التشويه

وقد واجه الكافرون ذلك ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ فهم عندما

واجهوا النبي (ص) وهو يبلغهم ويقدم لهم البيّنات على أنّه رسولٌ من قِبَلِ الله، لم يستطيعوا أن يردّوا عليه الحجّة بالحجّة أو يناقشوه فيما يطرحه عليهم، فواجهوه بالموقف الذي اعتاد الفاشلون أن يواجهوا به المصلحين، فبادروا إلى الكلمات غير المسؤولة، وبأنّه ساحر، ويضعنا في جوّ غيبيّ كما يفعل السحرة تماماً. وهم في قرارة أنفسهم لا يعتقدون بأنّه ساحر، ولكن يُطلقون هذه الكلمات ليبعدوا الناس عنه حتى لا يؤمنوا به، وتكون نظرتهم إليه كنظرتهم للساحر من دون احترام وتقديس وعظمة. وهذه الطريقة التي استعملها القدامى كانت أسلوباً من أساليب تشويه صورة النبي (ص) حتى يفقد موقعه الرساليّ والغيبيّ عندهم، وهذه طريقة ما زالت موجودة إلى الآن، فالبعض إذا أراد تشويه صورة مصلح أو عالم أو مؤمن أو تقيّ، فإنّهم يحاولون أن يُلصقوا به الكلمات والألقاب التي تعزله عن الناس وعن تقديسهم واحترامهم له.

قدرة الله في وعي المؤمن

ثم تدخل السورة المباركة في الحديث عن الله سبحانه، وكيف ينبغي للمؤمن أن يتصوّر ربّه وينفتح عليه، وما هي أسرار عظّمته تعالى في نفس المؤمن ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عندما تريدون أن تتصوروا ربّكم في وعيكم وعقلكم تطلّعوا إلى السموات فوقكم، وإلى الأرض تحتكم وحولكم، وادرسوا ما في السموات والأرض من عجائب ومخلوقات، ثم فكروا مَنْ خلق السموات والأرض وما فيهنّ وَمَنْ فيهنّ، وعندها لا تستطيعون أن تتصوروا خارج حسّكم خالقاً غير الله، لأنّه ما من موجودٍ في الأرض ولا في السماء إلّا وهو مخلوق لله سبحانه.

ثم يحدثنا القرآن بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام. وهنا يأتي السؤال، ما حاجته في خلق الكون إلى ستة أيام، وهو تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢) ربما أراد الله بحكمته أن يعرفنا أن الأمر الذي يستغرق إيجاده عنده بلحظة واحدة، ربما أيضاً يستغرق وقتاً من خلال الجانب التنظيمي للمسألة، باعتبار ارتباط بعض الأشياء ببعضها، مما لا يمكن إيجاده إلا بعدها. فليست المسألة مسألة عجز في القدرة بل في المقدور، ومع ذلك فهذا أمر استأثر الله بعلمه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهذه الآية بمعناها المادي تعطينا صورة عرشٍ مشابهٍ لعرش الملوك يجلس عليه سبحانه، ولكن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وعلى هذا لا يمكن أن نصف الله بأي شيء، فلا أحد من الخلق يماثله. وأما كلمة (استوى) فليس بمعنى جلس، بل هي تعبر عن سلطة الله، وكلمة (العرش) تعبير عن الموقع الأعلى الذي يمثل موقع السلطة من الناحية المعنوية، وعندما نقول ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فنحن لا نتصور بأن لله كرسيّاً بحجم السموات والأرض، إنّما وسعت سلطته ووسع علمه السموات والأرض.

﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ فمن موقع سلطته وسيطرته وهيمته وإشرافه على الكون وقوانينه التي أودعها فيه، وعلى جميع المخلوقات والكائنات المتحركة والثابتة، فهو يرعاها ويدبرها ويعطي لكل شيء هداه، ولكل حركة قانونها الذي تسير عليه.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يتصور بعض من الناس أن حال الله سبحانه كحال الملوك، حيث للملك أولاد وأصحاب وأنصار وأقرباء، فيأتي الناس إلى صهر الملك مثلاً أو إلى صاحبه أو ابنه طالبين أن يتشفعوا بإنسان عند الملك لينال البراءة.. ليس الله تعالى على هذه الحال، فالخلق كلهم سواسية عنده، وخلق الجميع

وليس أحد أقرب إليه من أحد من ناحية الخلق، إنما القرب إليه خاضع للعمل والإيمان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) فمن حيث الوجود لا فرق بين أحدٍ وأحد، وليس هناك في الكون من يملك عناصر الشفاعة الذاتية، لأنه سبحانه يملك الأمر كله والشفاعة كلها، وهو الذي يأذن لفريق من الناس أن يشفعوا أو يطلبوا منه أن يغفر لهذا أو ذاك. فالشفاعة ليست عنصراً ذاتياً في الشفيع، بل الشفاعة إذن وترخيصٌ صادرٌ منه تعالى لمن يريد له أن يشفعه في الناس. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فخالق هذا الكون والمسيطر عليه والمنظم له هو مالك الشفاعة وحده يعطيها لمن يشاء من عباده، وهو ربكم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ألا تدفعكم عناصر العظمة فيه سبحانه لتعيشوا مسؤولياتكم ولتعبدوه؟ وعبادته هي طاعته والخضوع والخشوع له.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً
وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي السَّمُومَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ
مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *
دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤ - ١٠).

وتأخذنا السورة المباركة إلى أجواء جديدة حيث تذكر الناس بالعودة إلى الله للحساب مهما امتد العمر بهم ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً﴾ إنكم قد تختلفون في مسالككم في الحياة بين مشرق ومغرب، بين إنسان يتحرك في المتاهات فيضيع طريقه وهدفه، وبين إنسان يتحرك في الهدى فيعرف هدفه وطريقه، ولكنكم في نهاية الأمر ستتركون الدنيا من خلال الموت الذي يمثل الجسر الرابط بين الدنيا والآخرة، وسترجعون إلى الله جميعاً، وهو وعد الله الذي لا شك ولا ريب فيه لتقدموا حساباتكم بين يديه ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فكروا كيف خلق الله الإنسان من تراب، فالذي خلقه قادرٌ على أن يعيده بعد الموت، وعملية الخلق أصعب من عملية الإعادة، لأنَّ الخلق يكون بلا مثال يحتذيه الخالق، فهو يُبدع المثال ويُبدع الحياة، بينما الإعادة لا تقتضي إلا تحريك عناصر الوجود بعد أن كان المثال موجوداً، هذا ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨ - ٧٩).

ولماذا إليه مرجعكم جميعاً؟ لأنه سبحانه أراد لكم العيش في الدنيا في نطاق المسؤولية، فحملكم هذه المسؤولية ودعاكم إلى العمل والكد وبذل الجهد في طاعته، وجعل موعدكم في نتائج هذه المسؤولية في يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ سيجزيهم الله العذاب، بأن يسقيهم من الماء الحار ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يَكْفُرُونَ﴾ لأنه سبحانه كان قد أقام عليهم الحجة في الدنيا في ذلك كله.

العظمة والتوازن

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

القرآن الكريم في كُلِّ آياته يعمل على أن يؤكد للإنسان مسألة توحيد الله، وذلك من خلال إثارة التفكير في كُلِّ الظواهر الكونية والإنسانية التي أوجدها في السموات والأرض، حتى ينطلق الإنسان لاستجلاء عظمته سبحانه، ولتتربى عظمته في نفسه، وليدخل في مقارنة بين مَنْ عبدوا الله، وبين مَنْ عبدهم الناسُ من دون الله، ليعرف أن هؤلاء لا يملكون شيئاً وهم يملكون، ولا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم أراد القرآن أن يربط الإنسان بالظواهر الكونية، ليشعر بأن الله سبحانه عندما خلق السموات والأرض وأودع فيها كُلَّ هذه الظواهر، فإنه خلق ذلك ليستفيد الإنسان منها، فهو ليس مفصلاً في حياته عن خلق الله، وأراد سبحانه أن يكون هذا الخلق مظهراً لعظمته من جهة، ولنعمته من جهة أخرى.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ دعوة للتفكير في هذه الطاقة العظيمة التي تظلُّ مُشعة، ولا يمكن أن تنطفأ لحظة واحدة، فليس لها حالة تفقد فيها نورها على الإطلاق، وهذا النور المتجدد المتحرك الدائم يبعث على التفكير بعظمة الله وبنعمه سبحانه، فلو درسنا طبيعة نظام هذه الشمس لوجدنا التوازن واضحاً في حركتها، فلو حدث أيُّ خللٍ واقتربت مقداراً بسيطاً من الأرض لأحرقتها، وهي نعمةٌ من الله علينا بها، لأنَّ ضيائها يتميز بالحرارة والدفء والإشراق، ولو فُقدت هذه النعمة لتعطلت الحياة، ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ والفرق بين ضياء الشمس ونور القمر، أن نور الشمس ذاتي، فهي تُنتج النور، أما نور القمر فإنه مُستمد من الشمس وهو نور باردٌ على عكس نور الشمس، وتتجلى نعمة الله علينا من خلال نور القمر الذي يُضيء

ليالينا من جهة، ويضبط لنا حساباتنا من جهةٍ أخرى ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ﴾ من خلال منازل القمر ومراقبة هذه المنازل ﴿وَالْحِسَابَ﴾ لتحسبوا عدد الأيام عبر هذه المنازل ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فهذا الخلق ليس حالة طارئة أو نتيجة صدفة، وإنما هو مركزٌ على قاعدةٍ تتحرك فيها القوانين الكونية المضبوطة المتوازنة في حركة الشمس والقمر ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠) لكل مداره وموقعه، لا يطغى موقعٌ ومدارٌ على موقعٍ ومدارٍ آخر ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ خلق الكون على أساسٍ وقاعدةٍ وقانونٍ يحكم النظام كله بالحق، ولهذا أراد سبحانه من الإنسان أن يتحرك مع الحق حتى ينسجم مع الكون، وهو تعالى عندما رتب الحياة على قاعدة، فإنه يطلب من الإنسان أن يرتب حياته وينظمها على قاعدة، كي لا يتحرك في الفوضى والباطل، ولأنه يملك الحركة والإرادة فلا بد أن يعرف أن الكون خلق على أساس الحق، وهذا ما يُغريه لأن يبحث عن أساس كل ظاهرة كونية ليعرف أن لها أساساً من الحق.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يفصل الله آياته في الكون ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ينطلقون باتجاه العلم ويبحثون عن مواقعه ومعارفه، أما الجاهلون الذين لا يرغبون أن يخرجوا من حالة الجهل إلى العلم، فإنهم لا يستفيدون شيئاً لأنهم لا يعنيه أن يكونوا في خطِّ النمو الثقافي والفكري.

﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هناك فرقٌ بين إنسان يعيش في داخل الليل والنهار وهو غافلٌ لا يفكر في طبيعة الليل والنهار، وبين إنسان يعيش داخلهما فيجعل ذلك مثار تفكير وموقع تأمل ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ترون النهار طويلاً في وقت ثم يقصر، وترون الليل قصيراً في وقت ثم يطول، ثم تجدون أن

مسألة طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما مضبوط بطريقة تمرُّ عليها ملايين السنين ولا يطرأ أيُّ تغيير على هذا النظام ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أطلق نظرك وفكرك أيُّها الإنسان في كُلِّ ما خلق الله في السموات والأرض، في الأنهار والبحار والجبال، في الإنسان والحيوان والنبات، في الكواكب والنجوم والهواء والرياح، فإنَّك ترى هذا النظام الخاضع لقوانين أساسية في داخله، يحكم حركة الحياة ويعطي لكلِّ نفس وموجود عناصر حياته وحركة نموه ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ كُلُّ ذلك آيات لمن يخاف من المصير، فيحسب حساب المستقبل ويفكر بالمسؤولية. والذين لا يفكرون بالمسؤولية هم الذين لا يعيشونها، هم الغافلون الذين لا يُبصرون بعيونهم، ولا يسمعون بأذانهم، ولا يفكرون بعقولهم.

بين هصيرين

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هؤلاء الذين عاشوا في دنياهم يظنون أن الحياة الدنيا هي كُلُّ شيء، ولا لقاء لهم بالله ولا بحسابه بعد الموت ﴿وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اعتبروا هذه الحياة كُلُّ شيء ولم يفكروا خارج نطاقها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ شعروا بالاستقرار فيها، كما لو كانت خالدة، ولم يحركوا عقولهم ليناقدوها ما جاءت به الرسالات من أن هناك حياة أخرى يُحشر النَّاس فيها يوم القيامة بين يدي الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ اطمئنوا للدنيا واستغرقوا فيها، فشغلهم ذلك عن التفكير بالله وآياته، وجعلهم يعيشون في غفلةٍ خانقة، وبذلك فقدوا وعيهم لعظمة الله ووعيهم للقاءه في الآخرة، فانحرفوا عن الخط المستقيم.. وماذا وراء ذلك؟ ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من خلال ما يكسبونه من أعمالٍ تنحرف بهم عن خطِّ الله.

وبهذا يريد الله تعالى أن يوحى إلينا أن مصير الإنسان يخضع لطريقة فهمه للحياة، فكما يكون فهمه لها، يكون مصيره، فإذا فهم الحياة على أنها نهاية المطاف وأنها الفرصة الأولى والأخيرة وأنها كل شيء، عندها لن يعرف الانضباط والشرعية والحلال والحرام، وبذلك فالنار هي مثواه.

وفي مقابل هؤلاء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالذين انفتحوا على الحياة كونها مرحلة، واعتبروا أن الآخرة هي نهاية المطاف، وأن الدنيا مزرعة الآخرة وموسم القطف، والحياة مسئولية، والآخرة نتاج المسئولية، فآمنوا وعملوا صالحاً في خط الإيمان، هؤلاء يفتح الله قلوبهم على كل خير، و﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ فالإيمان عندما يعيش في عقل الإنسان ثم يزحف إلى قلبه ويتحرك ليشمل كل كيانه، فإنه يكون النور الذي يضيء له الطريق، ويبدله على الخير الذي يجب أن يعمل، وعلى الشر الذي يجب أن يجتنبه. ولذا، فإن بعض الذين يتحدثون عن أن الإيمان بالقلب، كحجة لعدم العمل، هؤلاء لا يدركون الحقائق، ولو كانوا مؤمنين لتحركوا من موقع إيمانهم إلى كل ما يضيء لهم طريق الهداية إلى الله سبحانه، هؤلاء عندهم شبح إيمان. وقد قال الإمام جعفر الصادق (ع): «كذبوا ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه» (*).

فإذا، إن الذين يعملون الصالحات ويؤمنون بالله ويستقيمون على الخط، يحصلون على الجنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وما حالهم في الجنة؟ ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا﴾ عندما تنطلق دعواتهم وشعاراتهم في الجنة، ماذا يقولون؟ ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يعيشون حقيقة عظمة الله في الجنة، فما رأوه من عظمة في الدنيا وأحسوه منها، فإنه قليل أمام ما يحسونه في الجنة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا

(*) الكافي المجلد الثاني ص ٦٨ رواية ٥.

أَخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) ولذا، فإنهم عندما يدركون حقيقة «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(*) ويتطلعون في آفاقها وجنابتها ونعيمها تنطلق من كُلِّ أعماقهم ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾. وكلمة (سبحان الله) هي التي تنطلق من عمق إحساس الإنسان بعظمة الله، فينحني أمام شعوره بعظمته تعالى، فيعفر جبهته بالتراب إحساساً منه بهذه العظمة التي تُشعره بالتضاؤل والانسحاق أمامه.

وأهل الجنة هؤلاء كيف يُحيون بعضهم؟ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ لأنهم يعيشون سلام القلب والروح والعقل والحياة، سلام النفس مع نفسها، سلام الإنسان مع الله، سلام الإنسان مع كلِّ الذين من حوله، والله تعالى حدثنا عن أهل الجنة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ (الاعراف: ٤٣) يدخلون الجنة، ولا مكان للحقد في قلوبهم.

ويريد الله سبحانه أن يعطينا إحياء روحية أهل الجنة، فجعل السلام تحية الإسلام، فعندما نقول لأحدنا (السلام عليك) يعني أن علاقتنا بك علاقة سلام وليست علاقة حرب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤) وأوصانا رسول الله (ص) بأن نفشي السلام فيما بيننا لنحافظ على صورتنا كمسلمين. فعندما يعيش المسلم روحية السلام، فإنه يُوحى لنفسه بأنه من أهل الجنة، وبأنه يتدرَّب على لغتهم.

﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيحسون بكلِّ عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم بالحمد لله من خلال معرفتهم بكلِّ ما يتصف به سبحانه من صفات لا حدَّ ولا منتهى لها.

(*) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه الْمَجْلَد الْأَوَّل ص ٢٩٢ رواية ٩٠٥.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ
فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ* وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ
يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ
لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١١ - ١٤).

التحدّي السّاخِر

كان من أساليب الكافرين المتمرّدين على الرسالات أنّهم إذا جاءهم النّبيّ - أي نبيّ - بالحجة ليقنعوا بها، فإنّهم لا يستجيبون له، ولا يدخلون معه في مناقشة حول ما يجدون فيها من نقاط ضعف - إذا وُجدت - أو نقاط قوّة، فيرفضون أن يبادلوا الحجّة بالحجة ويتحرّكون في مواجهة الرسل من خلال ما ينتمون إليه في غرائزهم وعواطفهم وتقاليدهم وعاداتهم، ويتّبعون كلّ ذلك بالسخرية والإستهزاء، وعندما يتوعّدهم النّبيّ إذا لم يؤمنوا بعذاب الله، فإنّهم كانوا يتحدّونه بأنّ يأتيهم بعذاب الله إذا كان ما يدعو إليه هو الحقّ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (الأنفال: ٣٢) كانوا يستعجلون العذاب، لأنّهم يريدونه، ولكنهم كانوا يحاولون استعمال أساليب السخرية في ذلك، وكأنّهم يقولون للنّبيّ، مَنْ أنت لتهددنا بعذاب الله؟ وما قدرتك حتى تحدّثنا عن ما يُمكن أن ينزله علينا من عذابه وعقابه؟ فهم يستعجلون العذاب لا استعجال الراغب فيه ولا المقتنع بأنّ العذاب آت، ولكنه استعجال المتحدّي الذي يحاول أن يخرج من حيرته في عجزه عن مواجهة الحجّة بإطلاق التحدّي السّاخِر.

القرآن الكريم يعالج المسألة، فهؤلاء الذين يستعجلون العذاب ماذا يتصورون؟ هل يتصورون أنّ أسلوبهم الإنفعالي الإستعراضي الذي يطلقون فيه التحدّي يمكن أن يسنّثر الله سبحانه ليبادلهم التحدّي بتحدٍّ مثله؟ وهل يتصورون الله في وعيهم كأيّ قويٍّ من الأقوياء ممن يحكمون الناس ويسيطرون عليهم، وإذا واجههم أحدٌ بالقوّة، فإنّهم يواجهونه بقوّة أكبر؟ وهل يتصورون أيضاً أنّ الله يُنزل العذاب لأنّ هناك جماعة تستعجل ذلك، أو أنّه يُنزل الرحمة لأنّ هناك مَنْ يستعجلها؟

هذا التّصوّر خاطيء، لأنّ عذاب الله في الدنيا كما هي رحمته خاضعان لحكمته، فقد يحكم بحكمته أن يُنزل العذاب على قوم، وقد يمدُّ لهم بالفرصة، فيجحدون

ويعطيهم، يتردّون عليه ويُنعَم عليهم، يكفرون بنعمته ويزيدهم. وهذا ما جرت به سنة الله أنه يمدُّ لعباده، يمدُّ للكافرين، يُملي لهم، يهيئُ الفرصة بعد الفرصة ليتراجعوا عن ضلالهم وغييهم، وليحاسبوا أنفسهم وليفكروا بعقولهم. وليس إمهالهم ناشئاً عن أنهم يُعجزونه سبحانه، فهم يرون رأي العين أن الله يرسل العواصف فتقتلع الأشجار من جذورها، ويغمرُ اليابسة بالفيضانات فتدمرُ ما عليها، ويهزُّ الأرض بالزلازل والبراكين فتحدث ما تحدث، وهو تعالى قادرٌ أن ينزل صاعقة على هؤلاء الكفرة أو على غيرهم من دون أية حال عقاب، فيحدثُ في الكون مما يتلاءم مع مزاج الناس ومما لا يتلاءم، فكما هو قادرٌ على إرسال النعمة، قادرٌ على إرسال النقمة، ولكنه سبحانه لا يَعَجَل لاستعجالهم، ولا يخرب نظام الكون ليردَّ تحدي كافر، ولا يُبطل سننهُ الكونية لأنَّ هناك جاحداً أطلق استعجالاً بحجم التحدي.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ اقتضت حكمته أن يبسط الخير لكلِّ النَّاس ويفتح لهم مواقع هذا الخير، فلو يعجلُ سبحانه بالشرِّ كما يعجلُ بالخير، لا من أجل استعجالهم له ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لجاءهم الشرُّ وقُضي عليهم فماتوا وانتهوا ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ نترك هؤلاء الذين لم ينفثوا على الآخرة، ولم يعيشوا قلق المصير في مسألة يوم القيامة، ولم يعيشوا همَّ ذلك اليوم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويتردّدون ويعيشون التجربة الصعبة على طريقتهم، فيفقدون كُلَّ حجةٍ لهم على الله سبحانه.

التوسّل الخادع

ثم يعطينا القرآن الكريم صورة للضعف الإنساني التي يعيشها هذا الإنسان الطاغى، والذي يتحدّى الأنبياء ويستعجل الشرَّ وعذاب الله، فهو إذا أُصيبَ بمرض أو خوف أو شرٍّ، أو إذا أصابته أيّة حالةٍ من الحالات التي يتحرّك فيها ضعفه، كيف

يكون موقفه؟ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ ينام ويطلب من الله أن ينقذه، يقف ويتوسل إلى الله ليفرّج همّه.. صراخه يعلو للسماء، الخوف يأكله، يندمج في أجواء الشدة، يرجع إلى الله، يُوحى بأنه المخلص لله المنقطع والساير إليه، وتنطلق وعوده لله، كما تنطلق وعوده لشخص يضغط عليه، فيتوسل إليه ليخلصه من ورطته، وأنه مستعد أن يفعل ما يريد.. ويخرج سالماً معافى من مشكلته، ولكن ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّةٍ﴾ نسي وعوده، وكأنه لم يدعُ وَيَسْتَغِثْ، فتستولي عليه الغفلة ويمتدُّ في شهواته ولذاته وخصوصياته ومصالحه فيُسرف في ذلك، ويتجاوز كُلَّ الحدود، إنطلاقاً من غياب وعيه الإيماني في حركة الحياة. والإنسان الذي ينسى ربّه ينسى نفسه، ويُسرف في كُلِّ ما يتعلق بشؤون حياته وتفصيلها، ويُخيل إليه وهو غارق في الغفلة، سائر في أجواء النسيان، بأن عمله هو العمل الحسن، وما يقوم به هو ما ينبغي أن يقوم به ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم بعصيانهم وطغيانهم وكفرهم، لم ينتبهوا إلى حقائق أوضاعهم التي يتحركون فيها بعيداً عما أعطوه الله من عهد، على أنهم يُخلصون لله إذا كشف عنهم الضرّ.

عظة التاريخ

ثم إن القرآن يريد أن يربطنا بالواقع التاريخي، ويقصّه علينا لا لنلهو به، بل ليذكّرنا بأننا لسنا أول الناس في هذا الكون، لقد سبقتنا قرونٌ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ قرون سبقتكم قد لا تعدّونها لأنكم لا تعرفون بداية الخليقة، إقرأوا التاريخ، لقد كان هؤلاء الناس مثلكم، كانت لهم آفاقهم وساحاتهم وأوضاعهم المنفتحة على أحلامهم وآمالهم ولذائذهم وشهواتهم، وكانت الدنيا مقبلةً عليهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر، فابتعدوا عن الإيمان بالله، وظلموا أنفسهم

بالمعصية فابتعدوا عن خطِّ الإستقامة في طريق الله، وبذلك عاشوا الظلم لأنفسهم وللناس والحياة.

والظلم عندما يتحرك في أيِّ مجتمع فإنَّه يُضعف قواعده وتوازنه وتماسكه وأمنه واقتصاده وسياسته، ويفصله عن بعضه البعض، يفصل القاعدة عن الارتباط الروحي بالقمة، ويفصل القمة عن الشعور بالمسؤولية تجاه القاعدة، ويفصل القاعدة عن اللقاء بعضها ببعض، عندما يمنعها الظلم من اللقاء. ولذلك فإنَّ الظلم عندما يستمرُّ في واقع أية أمة، سواء كان ظلم النفس أو ظلم الآخرين، فإنَّ الله يدمر هذه الأمة، وإذا، كان السقوط مصير الحضارات والأمم السابقة التي انفتحت على الظلم وقبل أن يسقطهم الله ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لم يهلكهم بغتة، إنما بعد أن أرسل لهم الرسل وقدموا لهم البيِّنات التي تؤكد لهم الحقائق التي ينبغي أن يفتحوا عليها في عقولهم فيما يعتقدون ويفكِّرون، أو الحقائق التي ينبغي أن يفتحوا عليها في حياتهم فيما يعيشون ويتحركون، ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لا لأنَّ هناك ضعفاً في البيِّنات التي قدمها الرسل، ولكن لأنَّهم أغلقوا قلوبهم عن الإيمان فرفضوه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أهلكناهم، لأنَّ الهلاك جزاء المجرمين. والجريمة على أنواع، فهناك الجريمة الفكرية، وذلك عندما يجعل الظالمُ الناس يعيشون الفكر المنحرف في حياتهم، وهناك الجريمة العمليَّة التي تدفع الناس إلى كُلِّ ما يسيء إلى حياتهم العامة والخاصة.

ولذلك، فإنَّ القرآن، يقول لنا: إقرأوا التاريخ وافهموه جيِّداً، انظروا نقاط ضعف الماضين التي قوّضت بنيانهم، ادرسوا السلبيات التي كانت تتحكَّم في مجتمعاتهم، والعناصر التي استطاعت أن تزلزل قواعدهم حتى هلكوا، تماماً كما يهلك الإنسان بشكلٍ طبيعيٍّ من خلال عناصر الهلاك التي تتجمَّع في شخصيته. ادرسوا ذلك، ثم

لا تتوقفوا عند التاريخ، لأنه كان تجربة فاشلة للكافرين، وتجربة ناجحة للمؤمنين، تلك تجاربهم نجحوا أو فشلوا، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الدور دوركم أنتم، أنتم خلفاء الماضين، جئتم بعدهم، ورثتم أرضهم، أخذتم دورهم، سيطرتم على الأجواء التي كانوا يسيطرون عليها، سرتهم في الدروب التي ساروا فيها، نزلت عليكم الرسالات كما نزلتم عليهم.. لا تجلسوا لتتجمدوا أمام تجاربهم، خذوا الدرس منهم، واستغرقوا في دوركم أنتم، هل تخلصون لدوركم ومسؤولياتكم أم لا؟ انظروا إلى تجربتكم فيما حملكم الله من مسؤولية ودور، هل تنجحون في التجربة أم لا؟ قاله جعلكم وجهاً لوجه أمام التجربة ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أيها الجيل الذي يعيش في هذه المرحلة، في أي بلد سكنت، وأي درب سلكت، أنت موضع رقابة عين الله، تفحص فكرك كيف يتحرك، وتفحص دوافعك كيف تنطلق، وتفحص حركتك في الواقع وممارستك لمسؤوليتك، وانطلق على أساس وعي داخلي تشعر فيه بأن الله يلاحق كل خطواتك، خطوات فكرك وعاطفتك، وأقم قواعد العمل على أسس ثابتة، وانظر كيف يمكن لك أن تنجح في التجربة. فالساحة جاهزة ومفتوحة، والسباق جاهز ومفتوح.. والسؤال: من الذي يفوز في السباق؟.

﴿وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥)

-(١٦)-

الدعوة في مواجهة الاستكبار الفكري

على الرغم من تحديات المشركين وإزعاجهم لمسيرة النبي (ص)، فإنه كان يواجههم بالرسالة في فكرها المرتكز على قواعد فكرية أساسية ثابتة في عمق الحقيقة، ويقدم لهم الإسلام في شريعته المنطلقة في الحياة مما يصلحهم، ويتعد بهم عما يفسد حياتهم، وينطلق في ذلك أيضاً من مفاهيم الإسلام المفتحة على قضايا الحياة في تنوعاتها في كل صغيرة وكبيرة، بالمستوى الذي لا يشعر فيه الإنسان وهو يفتح على هذه المفاهيم بأنه غريب عن حركة التطور والحضارة، أو بعيد عن الآفاق الواسعة، بحيث يجد جواباً عن كل سؤال، وحلاً لكل مشكلة وقضية معقدة.

ولذا، فقد أراد الله للإسلام من خلال القرآن أن يكون نوراً وهدى ورحمة للناس كافة ليضيء لهم الطريق في ظلمات الجهل، وليهديهم سواء السبيل عندما تضيع الطرق ويضيع الناس، وليعطيهم من خلال تشريعاته ما يتحسسون فيه برّ رحمة الله في نفوسهم. ولكن المشكلة التي واجهت النبي (ص) كمشكلة الأنبياء الذين سبقوه، وهي أن الناس الذين يعيشون في ساحته، أناس يعيشون الاستكبار الفكري والإقتصادي والاجتماعي بحيث يخافون على مواقع استكبارهم من أية دعوة جديدة. فكان الشرك عنوان نظامهم السياسي والاجتماعي، وكان التوحيد في وعيهم مسألة لا يفهمونها على أنها قضية في العقيدة تواجه قضية أخرى في العقيدة، لقد فهموها حركة تسقط النظام المبني على الشرك، وللشرك أوثانه وأصنامة، وللأوثان والأصنام سدنتها وخدمتها وذبائحها التي ينتفع منها الذين يشرفون عليها، ولها أيضاً قيمها الاجتماعية التي تحمي وتحفظ مصالح المستكبرين.

فالمسألة لديهم ليست مسألة فكرٍ يواجهونه بفكر، إنما هي طريقة حياةٍ لا يريدون أن يخرجوا منها، ككثير من الناس الذين يظنون أنهم مؤمنون بالله والذين يملكون موقعاً متقدماً يحقق لهم انتفاخهم الذاتي ومصالحهم الذاتية، ويجمعون المال من حلٍّ وحلال، ويعيشون مستغرقين في أجواء الشهوات، هؤلاء وعندما تحدثهم عن الله، وعن يوم القيامة الذي يقفون فيه بين يديه سبحانه، فإنهم يتنكرون لذلك، ويعملون على تطويق الداعية ومحاصرتها، ليجعلوا لله صورة في أنفسهم تبرر لهم استكبارهم وانحرافهم وظلمهم، باعتبار أنهم يريدون من الله أن يكون موظفاً في بلاطات الملوك والرؤساء والوزراء والزملاء ليحامي كل مواقعهم. ولذلك، فإنهم يرفضون أن يواجهوا الداعية إلى الله مواقع اللهو والفجور، أو أن يقف ضد الظالم ليشير إلى عناصر الفساد والانحراف، مبررين ذلك أن الإسلام ضد العنف، وعلى الداعية استعمال اللطف واللين، هكذا يبررون لأنفسهم أن يقهروا المؤمنين ويذلّوهم ويحتقروهم، ولا يسمحوا لهم أن يرفعوا صوتاً واحداً في وجوههم، وقد جعلوا من حولهم جماعاتٍ تسبّح بضلالهم وكبريائهم وانحرافهم.

التمسك بنهج الضلال

والسؤال: لماذا يتمسكون بهذا النهج؟ لأنهم إذا قالوا ربنا الله، شعروا بأن عليهم أن يبتعدوا عن مراكزهم التي يعصون فيها الله، وبأن عليهم أن يقللوا من أرباحهم التي تنطلق من حرام الله، وأن يتباعدوا عن شهواتهم المحرمة.

لذلك، فإنهم يحاولون أن يفسروا الإسلام تفسيراً يستريح فيه الطغاة، وأن يصوّروا الله للناس أنه يتقبل شهواتهم وانحرافهم ولهوهم وعيبهم، كما يتقبل صلاتهم وصيامهم. ويعيش في هذه الدائرة أشخاص قد يملكون صفة دينية رسمية في العالم الإسلامي، ممن هم وعاظ للسلطين، وفي الدائرة نفسها هناك بعض

الأغنياء ممن يحملون الذهنية ذاتها. والقرآن الكريم عندما يحدثنا عن هذه الجماعات، لا يحدثنا عن جماعة بعينها، بل يحدثنا عن منطق معين يفكرون فيه ويعيشون داخله، لتتعرف من خلال منطقهم على منطق الواقع الذي نعيش فيه، وبهذا يكون القرآن حركةً حيَّةً في حياتنا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وما إلى ذلك.

التمرد

ونعود إلى آيات سورة يونس ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يأتي النبي (ص)، كما يأتي بعض العلماء والمرشدين في أيامنا هذه، فيحدثون الناس بالقرآن ويتلونه عليهم بما يحمله من مفاهيم عن الله وثوابه وعقابه واليوم الآخر، فماذا يكون ردُّ فعلهم؟ لأنهم على مستوى كبير من التمرد، ولأنهم ليسوا بمستوى الحوار، فإنهم يرفضون مناقشة النبي (ص) فيما جاء به، أو العالم والمرشد والناصح فيما يدعو إليه، ولأنهم متمرّدون ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الذين لا يفكرون أن هناك آخرة، ولا يعيشون في أنفسهم هاجس لقاء الله في دار قدسه ليخضعوا لحسابه، فأطبقت الغفلة على عقولهم واستغرقوا في الأرض، ولم ينفثوا على مواقع السمو عند الله ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكأن القرآن قصيدة يطلبون استبدالها بقصيدة أخرى، وللمفسرين في هذه الآية آيان: هناك تفسير يقول: إن طلب الكافرين بقرآن آخر، يتناول أساس الفكرة القرآنية، لا القرآن نفسه، فالقرآن يُثير أمامهم توحيد الله، والجنة والنار، ورفض الأصنام، والالتزام بأوامر الله ونواهيه، وهذه الطروحات تختلف عن طروحاتهم، ولذلك يطلبون تغيير هذه المفاهيم أو تبديلها لأنها لا تتناسب مع واقعهم وذهنياتهم، والإتيان بمفاهيم تقبلها عقولهم. هذا رأي. والرأي الآخر ينطلق من حالة أخرى، وهي أنهم يريدون تعجيز النبي (ص)، وهم عندما يطلبون تغيير أو تبديل القرآن بقرآن غيره، فإنهم لا يخضعون لعملية فكرية، ولكن

يريدون إثارة التشويش والضوضاء وتقديم الإقتراحات التي لا معنى لها لينتهي الأمر إلى تمييع ما يدعوهم (ص) إليه في محاولة لإرباكه وإشغال الناس عن التفكير بآيات القرآن والإلتزام بها.

هذا الرأي ما نختاره نحن، وقد أكدنا على ذلك في تفسيرنا «من وحي القرآن»، لأن الرأي الأول القائل بأنهم يطلبون تبديل المضمون لا يتناسب مع جواب النبي (ص): من خلال القرآن ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أُتِّعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ فلو كان طلبهم تغيير المضمون، لردَّ عليهم - فيما يريد الله أن يقوله - بأن نظرتكم غير صحيحة، ولكنه (ص) لا يطرح كل ذلك، فربط المسألة بالله تعالى، وهي خارجة عن يده، والقرآن ليس كلامه حتى يبدله، هو وحي الله وقد تلقاه منه، فكيف يمكن له أن يُغَيِّرَ فيه، والله تعالى قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٦)، فإرادة الله مقتصرة على هذا الوحي وليس له أن يتجاوزه ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فليست المسألة أن تقبلوا أو لا تقبلوا، المسألة المستحيلة أن ألغي ما يريده الله سبحانه.

كأساليب القديمة

ولأننا نحرص أن نستوحي القرآن دائماً في حركتنا العملية، فإننا نقول: قد يأتيك من يقول لك: إنك تطرح طرحاً إسلامياً، لا تقل إسلام، قل ديموقراطية حتى يقبل الناس كلامك، بدل أو غير هذه الكلمة، لأن الناس لا تحب أن تسمع كلمة إسلام، قل، إن الإسلام هو نتاج القومية العربية، وإن محمداً انطلق من خلال عروبه ودراسة آلام العروبة، وفي حديثك عن الجنة والنار، قل إن الجنة هي سعادة الضمير وراحته، والنار شقاء الضمير وعذابه، ولا من سعي ولا لهب ولا جزاء ولا عقاب.

هكذا يأتي البعض إلينا مستغلاً بعض نقاط الضعف في الساحة الإسلامية ليطلب إلينا تغيير العناوين التي طرحها القرآن، أو نبدلها بكلمات أخرى تنسجم مع ما يريدونه.

وعندما نستوحي القرآن فإننا نلتمس خطوات رسول الله (ص) في الدعوة إلى الله، وكان الأمر إليه واضحاً بأن لا يهتم بمن يرضى عليه أو لا يرضى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، وفي مواجهة كل المشاريع التي تحاول إسقاطك ليس لك إلا أن تقول: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠)، وعلى هذا، فالذين يواجهون الحقائق ويرفضون الإيمان بها مستندين في الرفض على أساليبهم الملتوية، يريدون أن يتلاعبوا عندما يطلبون من الرسول (ص) أن يغير لهم هذا القرآن ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هم يعرفون أن هذا القرآن ليس من صنع محمد (ص)، فقد عاش فيهم قبل البعثة أربعين عاماً ولم يسمعوا منه كلاماً يقترب أو يشابه هذا الكلام.. كل ما في الأمر أنهم كانوا يعملون على أن يُشغلوا ساحة الدعوة، ويعدوا الناس عن أن يعيشوا التفكير الحقيقي، ويؤمنوا بما فيه نجاتهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
 هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ اتَّبِعُونِ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
 الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً
 فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيهِمْ يَخْتَلِفُونَ *
 وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (١٧ - ٢٠).

من بين الأمور التي يتحدّث القرآن عنها كما لو أنّها من أفظع الجرائم، وأكثر الأمور ظلماً، مسألتان، الأولى: أن يكذب الإنسان بآيات الله، بحيث يسمع هذه الآيات تُتلى عليه ومعها الحجّة القاطعة التي تُثبت أنّها من قبل الله سبحانه، ولكنه مع ذلك يتمردّ عليها وينكرها ويكذب بها ظلماً وعدواناً، لأنّه لا يريد أن ينطلق بحياته في خطّ الله. والمسألة الثانية، هي جريمة من يفترى على الله كذباً. هذا الذي ينسب إلى الله ما لم يقله، سواء كان من الذين يحرفون الكلام عن مواضعه، أو ممن يفسرون آيات الله بطريقة تبتعد بها عن الخطّ المستقيم، أو من الذين ينسبون إلى الله أحكاماً شرعية لم ينزل الله بها من سلطان. هؤلاء يعتبرهم الله أظلم الناس، لأنّ من حقّ الله على عباده في ألوهيته أن يخلصوا له ويؤمنوا به ويلتزموا بما أنزله من الوحي بعد أن تقوم الحجّة عليهم في ذلك، وأن يجعلوا حياتهم كلّها صورة لما يريده سبحانه للحياة، سواء كان ذلك في أنفسهم، أو فيما يتعلّق ويحيط بهم.

ومن هنا، فإنّ الذين يكذبون بآيات الله يمنعون الحياة من الخضوع لخطّ الله، لأنّ التكذيب بآياته يعزل هذه الآيات عن حركة العقيدة والانتماء للحياة، وبذلك يسيئون إلى أنفسهم وإلى الحياة من حولهم، لأنّ طريق الخلاص في الحياة هو طريق الارتباط بالله من خلال آياته.

ولذا نجد أنّ الذي يفترى على الله كذباً، سينسب إلى الله تعالى ما لم يقله، وهو بالتالي يزور الحياة عندما يقدّم للناس الأمور الكاذبة كما لو كانت مقدّسة، وهذا ما يُبعد الحياة عن سلامة الإتجاه والحركة، ويبعد الإنسان عن مصلحته. وفي كلا الحالين تتحوّل المسألة إلى أن تكون تحدّياً لله في التكذيب لآياته والإفتراء عليه. وأيُّ ظلم أعظم من أن يظلم الإنسانُ ربّه ونفسه والناسَ من حوله وكلّ الحياة؟

فالذين يكذبون بآياته سبحانه ويجحدونها ويحولون بين الناس وبينها على قاعدة الإفتراء والكذب، فإن جريمتهم تُعتبر من أفظع الجرائم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ف جريمة التجرؤ على الله وتزييف الحقيقة واسقاطها في الحياة لا تعادلها جريمة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إنهم يتنكرون لله ويعبدون تلك الأصنام الجامدة الصامته التي لا تملك ما لا يضرها ولا ينفعها، ولا تملك أي حس وحركة، لأنها لا تملك حيوية الحياة وقوتها. فإذا كانت هذه الأصنام لا تملك النفع والضرر، فما معنى عبادتهم لها؟ إن الإنسان العاقل يعبد مَنْ ينفعه ويُبعد عنه الضرر، إذا، فإنهم يعيشون التخلف في ذهنيتهم العبادية، عندما يُقبلون على عبادة هذه الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ هم لا يعتقدون بالوهية هذه الأصنام، ولكنهم يعتقدون بأنها تقربهم من الله وتشفع لهم عنده. القرآن يقول لهم: مَنْ قال لكم ذلك؟ ما هي الأسرار المقدسة الكامنة في هذه الأحجار والأخشاب التي صنعتوها، وما هي الأسرار الخفية فيها حتى تعتبروا أن لها علاقة بالله وقرباً به؟ إن كل الأسرار التي تعتقدون بها لن تكون مبرراً لأن تشفع لكم عند الله، وأن تخلصكم من عقابه ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هل تنبئون الله بشيء غير موجود؟ فهؤلاء الشفعاء والشركاء لا يعلمهم الله، ومعنى (لا يعلمهم) كناية عن أنهم غير موجودين، لأنه سبحانه محيط بكل شيء ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عظم الله وعلا مجده وقدره وموقعه ومنزلته عن أن يكون له شريك لأنه سبحانه «ليس له شبيه يشاكله ولا ظهير يُعاضده» (*).

عندما تتحرك الحياة في مواقع الاختلاف

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ عندما خلق الله الناس لم تكن أية خلافات قائمة بينهم، وولدوا على الفطرة، وكانت لهم حاجاتهم وظروفهم، خلقهم

(*) من دعاء الافتتاح.

وقد ألهم كل نفس فجورها وتقواها ولم يكن هناك أي أصل للخلافات فيما بينهم، كانوا جميعاً متساوين في أساس تكوينهم، فخلقوا أمةً واحدةً في خط واحد، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك، بعد أن اختلفت حاجاتهم، عاشوا الصراع فيما بينهم، فيما يريد أن يتغلب أحدهم على الآخر، وعاشوا المشاكل عندما تغلب الشر في بعضهم على الخير، وذلك عندما دخل الشيطان بينهم فأصلهم، فاستيقظت غرائزهم في نفوسهم فباعدت فيما بينهم، وكبرت أطماعهم في حياتهم ففرقت فيما بينهم.

وكما أن الله قادرٌ على توحيدهم في البداية، قادرٌ على أن يوحدهم في النهاية، ولكنه سبحانه أراد للحياة أن تتحرك في مواقع الاختلاف، لأنه لم يرد للناس أن يجبرهم على الخير كما لم يجبرهم على الشر، إنما أراد للناس أن يتحركوا في هذه الحياة، لينطلق كل واحدٍ مع فكره وإرادته، وذلك بعد أن أقام الحجة عليهم من عقولهم، وأنزل عليهم الرسائل من أجل مساعدة عقولهم على تلمس ما لا تستطيع أن تدركه من بعض الحقائق، وأراد لهم سبحانه أن يعيشوا الحياة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، فأعطاهم المهلة والمجال والفرصة لينطلق كل إنسان حسب تفكيره وإرادته ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وحُسم الموضوع، لأنه سبحانه أراد للحياة من خلال حكمته أن تمتد في هذا الإتجاه بعيداً عن أي ظلم لعباده، باعتبار أنه أطلق الحرية للإنسان، وأعطاه العقل الذي يستطيع أن يتحمل مسؤولية حريته من خلاله، وأعطاه الإرادة التي يستطيع بها أن يؤكد حركة حريته، وأنزل عليه الرسائل التي حملها الرسل التي ترغبه في الخير وتبعده عن الشر. ولكن الإنسان ولسوء اختياره ظلم نفسه ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ١١٨). ولأن العناد يسيطر على عقولهم ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لولا أنزل

عليه معجزة كالمعجزات التي نزلت على غيره من الأنبياء، فيجيب الله تعالى ﴿فَقُلْ

إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ المعاجز ليست بيد الأنبياء، إنما هي بيد الله، فعندما يُنزل آية من عذاب، كما الصواعق والزلازل وغيرها فذلك من أمر الله وحده، وهو تعالى عندما يُنزل ما يُنزل على أساس الحاجة والحكمة، ليس من الضروري أن يُرسل النبي ومعه المعجزة التي تخرق العادة، لأنه سبحانه يُرسله إلى الناس ومعه الدلائل والبيّنات الواضحات أنه رسولٌ من قِبَلِ الله، وذلك أمرٌ يعود إليه تعالى فيما يختاره لأنبيائه من هذا الأسلوب ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ورداً على ما يطلبون، يُجيبهم النبيّ (ص) ما مفاده: بأنّي وأنتم واحدٌ في انتظار أمر الله، وما يُنزله علينا من أمره وحكمته.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا
قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا
جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَنَنْصُرَنَّ أُنْجِيَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ *
فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَذُنِّبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ
وِظْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا
كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١ - ٢٤).

النكران والمكر

في الآية التالية يحدثنا الله تعالى عن حالة تتكرر في واقع الإنسان في علاقته مع ربه، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَدْفُنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إِنَّ الله تعالى قد يبتلي الإنسان بشتى أنواع البلاء من فقر وخوف ومرض، ويلجأ الإنسان عادةً في حالات البلاء إلى الله عندما تضيق به المشاكل، فيبتهل إليه ويخضع له ويتضرع بين يديه، ويُشاهده على قلبه بأنه إذا رَفَعَ البلاء عنه، فإنه سوف يتوب ويتراجع عما كان فيه من المعصية والانحراف.. فيرفع الله عنه البلاء، ويُنزل عليه رحمته، فينقله من السقم إلى العافية، ومن الشدة إلى الفرج.. ولكن هذا الإنسان يتنكر لما عاهد الله عليه، ويحاول أن يَلْف ويدور ليتنكر مما أخذه على نفسه من عهودٍ أمام الله بطريقة الحيل والمكر، ثم يعمل على مواجهة الخطأ الذي يحبه الله ليسقطه وليريكه محاولاً إزالته من حياة الناس.

القرآن الكريم وفي مواجهة هذه الحالة يتحدّى الماكريين: إنكم تملكون بعض الوسائل التي تتحركون فيها بطريقة الحيلة والمكر والخداع والتدبير الخفي، ولكن ما حجم قدرتكم أمام قدرة الله سبحانه؟ وما تدبيركم أمام تدبيره؟ وما قوة مكركم أمام مكره سبحانه؟ إنَّ عليكم أن تعرفوا أنكم تدبرون، ولكنَّ تدبير الله أقوى، وتمكرون ولكنَّ مكر الله أسرع، وسيكتب رسلُ الله الذين جعلهم رقباء عليكم كُلُّ ما تمكرونه من خدعكم وحيلكم، وستقفون عند الله يوم القيامة ليحاسبكم على ذلك كُلِّه.

وهذه الآية الكريمة تلخص للإنسان حقيقةً يغفل عنها الكثيرون من الناس، وهي أنَّ الإنسان في كثيرٍ من الحالات يثق بنفسه وبذكائه و«بشطارته» وقدرته على اللَّف والدوران، بحيث يغفل عن قدرة الله وتدبيره وسيطرته على الكون كُلِّه. ويخطئ

الإنسان عندما يستغرق في الحيلة ويوحي لنفسه وللآخرين أنه سوف ينجح في حيلته، لأنه يلتفت إلى الناس من حوله فيرى أنه أقدر منهم، وبذلك ترتفع ثقته بنفسه في أنه سوف يتمكن من التغلب على الآخرين.

إن الذين على هذه الشاكلة، يمتدّون في طغيانهم وينسون أنه سبحانه هو المهيمن على الأمر كلّ، وأنهم مهما امتلكوا من القدرة على التفوّق، فهل يملكون التفوّق على الله سبحانه؟ ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وهنا يفصل القرآن للناس بعض الحالات التي قد تواجههم، ويشعرون معها بالحاجة إلى الله فيما كانوا يعيشونه وما زالوا في سيرهم في البحر، أمام الأمواج المتلاطمة التي قد تطغى وتشكّل خطراً أكيداً، فيستغيثون بالله ليخلصهم من الخطر الداهم الذي يشعرون به في كلّ أوضاعهم وهم في السفن التي تلو وتنخفض وتهتز وتكاد تنقلب، وعندها يرون أن ليس هناك إلا الله يُمكن أن ينقذهم. ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فهو تعالى يحميكم في البر والبحر ويهيئ لكم سبيل السير ليقبلكم الأخطار ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ والمقصود بكلمة الفلك، السفن التي يركب الناس على متنها في البحر ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ تبدّل الجو، وابتدأت العاصفة تزمجر، وعلت الأمواج نحو عنان السماء، وصارت السفينة تهتز بركابها ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ عندما تأتي العواصف من كلّ مكان والموج من كلّ اتجاه، يُحسّ الإنسان كما لو أن الأعداء يحيطون به ليقتلوه، فالأمواج أحاطت بالسفينة، كما الجيش يحيط بجماعة معينة يحاصرها ويطبق عليها من كلّ مكان. هنا ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ليس هناك وفي هذه اللحظات الصعبة والحرّة أية وسيلة يمكن أن تنقذهم، فلا أرض يلجأون إليها، ولا حبال يمدّونها، ولا زوارق نجاة، حتى وإن كانت هذه الزوارق موجودة فإنهم إذا صعدوا إليها، فإن الأمواج ستطبق عليها

وتفرقهم. في هذه الحالة يتجه الإنسان بقلبه حتى وإن كان ملحداً إلى القوة الخفية التي تتمثل بالله سبحانه ويدافع من فطرته ﴿لَئِنْ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ خلّصنا يا رب من هذه الورطة، وأنقذنا من هذا الخطر، وسنشكرك كما لم يشكرك أحد، سنشكرك بألسنتنا وقلوبنا وبكل جوارحننا، وذلك عندما ننطلق في عمل الشاكرين من خلال طاعتنا لك.. وماذا كانت النتيجة؟ إستجاب الله دعاءهم ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهنا يريد القرآن أن يقول لكل هؤلاء الذين يعتدون ويظلمون ويفسدون ويتحركون بالباطل في كل أوضاعهم: هل تضرّون الله بذلك؟ إنكم لن تضرّوه بشيء، فهو سبحانه أعلى من ذلك ﴿لَا تضرُّهُ معصية مَنْ عصاه وَلَا تنفعهُ طاعة مَنْ أطاعهُ﴾ فالدنيا خلقه وأنتم خلقه فلا تستطيعون أن تضرّوه في ملكه وقدرته، لقد بغيتم بغير حق، اعتديتم، سرقتم، بغيتم على أنفسكم، ركنتم إلى الظالمين، وقد يمهلكم الله ويُملي لكم في الحياة، ولكن كم من السنين ستعيشون؟ سنة، عشرأ، مئات؟ ولكن بعد ذلك إلى أين؟

ويرتد الظلم على أهله

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ إنَّ ما تفعلونه وتعيشونه سيرتد عليكم، وما تتلذذون به ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إفهموا المسألة فهماً حقيقياً، إنكم قد تمتدّون بالباطل والعدوان والبغي، ويُخيل إليكم أنَّ الحياة ستمتدّ بكم وتخلدون ولا تُحاسَبُونَ ولستم مسؤولين عما تعملون، لكن هل فكّرتم بالذين كانوا قبلكم، ممَّنْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ (الروم: ٩) أين هم وأين أنتم؟ فحياتكم وحياتهم مجرد ﴿مَتَاعٍ﴾ فرصة طارئة تأتي وتذهب، وستعودون إلينا لتقدّموا حساباتكم بين أيدينا، ولتتالوا جزاء ما فعلته أيديكم.

ويريد القرآن أن يفهم الناس طبيعة الدنيا وذلك من خلال ضرب الأمثال، ليعطينا الفكرة عن الصورة المعنوية من خلال الصورة الحسية، ليدفعنا إلى المقارنة بين الصورة وبين الفكرة. فهذا الشتاء يأتي، يتساقط المطر ويسقي الأرض، ويختلط الماء بالبذور، ثم يأتي الربيع، فتنمو البذور، وتزهو، ثم تنضج يانعة، وتتزين الأرض زاهية بين الخضرة والحمرة والبياض والإصفرار، ثم يأتي الخريف فتذبل الأوراق وتصفّر وتتساقط وتتحوّل إلى حصيد، أو إلى هشيم تذروه الرياح. وهكذا الإنسان يتكوّن من نطفة تنمو في الرحم كما تنمو البذرة في الأرض لتصبح برعماً من زهرة وثمر، وكذلك الإنسان يُولد فيصبح صبياً تضحك الحياة من حوله، يبدأ بالنمو ليصبح شاباً، والشباب هو ربيع العمر، وبعد ذلك تبدأ مرحلة الكهولة والشيخوخة، ثم يُردّ إلى أرذل العمر ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ (الحج: ٥) ويموت كما تموت الأزهار والأشجار، وبعد ذلك يُدفن في الأرض، ويفتت الجسد والعظام وتتحوّل إلى رميم، تماماً كما تبيس الأشجار.

إنّها صورةٌ للبداية وصورةٌ للنهاية تتشابه فيما بينها. ولذا فإنّ القرآن يقول للإنسان: إذا كانت حياتك على هذه الصورة، فأين الخلود في الحياة؟ لذلك ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاَمْتَدَّ فِي الْأَرْضِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فتختلط به البذور التي تتحوّل إلى نبات ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الخضروات والفواكه ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ وكذلك مما تأكله الحيوانات من الأعشاب ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أخذت بهاءها ورونقها ﴿وَارْزَيْتَ وَظَنُ أَهْلِهَا﴾ ربيعها ظاهر، وألوانها متنوّعة ساحرة زاهية متلوّنة، وحسب أهلها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ وقبل أن ينالوا ما يريدون منها، جاءت عاصفة

في ليل أو نهار ودمرت ما عليها ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾
كأنها لم تكن موجودة كلياً ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نعرضها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
ودائماً يطلب الله تعالى من الإنسان أن يحرك فكره في كل شيء، والأل يستغرق في
خياله وأوهامه، فإذا حرك فكره قاده إلى حقائق الأشياء، وإذا عرف حقائق الأشياء
فإنه سيعرف حتماً الطريق إلى الهدى.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ
بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧ - ٢٥).

بعد أن يدعو الله سبحانه الناس ليفكروا بعقولهم في آياته الواضحات، وليحققوا لأنفسهم وللحياة من حولهم ما يضمن لهم الثبات على خط الله، يذكرهم بدعوته إلى الدار التي يحصدون فيها نتاج أعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوجه دعوته إلى الناس كافة لينطلقوا إلى دار السلام التي هي الجنة، باعتبار أنها الموقع الذي لا مجال فيه لأية حالة عنف تؤدي إلى النزاع والخلاف والحرب، وإلى ما يثور في حياة الناس بين وقت وآخر.

وقد جعل سبحانه من صفات أهل الجنة أنهم لا يحملون في قلوبهم حقداً في أية حالة من الحالات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ (الحجر: ٤٧) من حقدٍ وعداوةٍ وبغضاءٍ ﴿إِخْوَاناً﴾ يعيشون الأخوة بأسمى معانيها ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ يعيشون مع بعضهم من دون أن يشعروا بأية حساسية تجعل أحدهم يتعقد من الآخر أو يواجهه بمشاعر وأجواء مضادة.

لذا، فالإنسان في دار الجنة يعيش حالة السلام مع نفسه بعيداً عما هي العقدة النفسية التي تعبت بسلام الإنسان وتجعله يعيش في حالة الطوارئ. الإنسان هناك مفتوح القلب على الله، وعلى السعادة والنعيم، لا مشكلة لديه ولا عقدة عنده، ويعيش أيضاً حالة السلام مع الناس، لأن الجنة ليست ساحة صراع ولا تنافس ولا تسابق، وكذلك يعيش هذا الإنسان سلاماً مع ربه على أساس ما عاشه من طاعة لله في حياته.

إذاً، هي دعوة الله إلى السلام للناس الذين لم يذوقوه في الدنيا ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من الناس الذين يشاء الله لهم الهداية ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى الطريق الذي يؤدي بهم إلى دار السلام.

وبيّن القرآن الكريم حالة الإنسان وهو يُحسُّ بالسلام، وهي تنعكس راحةً وبشرى على وجهه، حيث الإشراق والصفاء والهدوء وراحة الضمير، وبيّن أيضاً حالة الذي لم تؤدِّ به أعماله إلى دار السلام، وهو المذنب المنحرف المتكدر الوجه المتجهّم الذي عاش في حياته الحقد والبغضاء والجريمة.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنة هي تعبيرٌ عن طاعة الله في أن يفعل العبد ما أمره الله أن يفعله، وأن يترك ما نهاه عن فعله، وعلى هذا، فالمحسن يُجزى بالحسنة وزيادة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا﴾ (الأنعام: ٦) فالمحسنون في دار السلام امنون ﴿وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ القتر هو الدخان الذي يجعل الوجه مُغبراً مسوداً، والمحسنون ليس على وجوههم قترٌ، فوجوههم صورةٌ لقلوبهم ولكل حياتهم ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُ﴾ (آل عمران: ١٠٦) وليس عليها قتر باعتبار أنها بيضاء ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وهذا المؤمن يشعر بموقف العزة لأنه لم يجعل حياته خاضعةً للشيطان، بل جعلها خاضعة لله، والخضوع لله سبحانه هو العزُّ كُلُّهُ «ما نقل الله عز وجل عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه من غير مال وأعزه من غير عشيرة، وأنسه من غير بشر» (*). ولذلك فإن هؤلاء الحسينين يقفون يوم القيامة مرفوعي الرؤوس، فليس عندهم ما يخلجون منه وما يخافونه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣) وهؤلاء يحدثنا القرآن عن الواحد منهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ١٩-٢٤) فعندما يقف هذا الإنسان المؤمن يوم القيامة فإنه يقف وقفة العز، وينعكس هذا العزُّ على وجهه، بحيث لا يرى عليه أي أثر للذل والخوف، لأنه لم يفعل ما يستوجب إستشعاره للذل في ذلك اليوم. إذاً ﴿وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ﴾ لا يثقلها

(*) الكافي مجلد ٢ صفحة ٧٦ رواية ٨.

ولا يُتعبها ولا يُجهدُها ﴿قَتَرٌ﴾ ما يكون مُعكراً للون والصورة ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ وما يكون موجباً للإمتهان والذلُّ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عاقبة الأذلاء

وفي مقابل المحسنين المؤمنين يقف أولئك الأذلاء ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ خطُّ العدالة أن يفعل الإنسان السيئة فيُجازى بسيئةٍ بمثلها، وجزاء السيئة بحجمها، فإن كان الحجم مادياً ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥) وإن كان حجم السيئة له انعكاساتٌ معنويةٌ على الحياة والإنسان، فيما لو أفسد الإنسان في الأرض، أو حارب الله ورسوله، فقد يكون جزاؤه الإعدام، باعتبار أن النتائج السلبية المعنوية التي تحركت من خلال أفعاله كبيرة، وإن لم يكن لها حجمٌ ماديٌّ ﴿وَتَرَهُمْ ذُلًّا﴾ يزحفون إلى القيامة وهم لا يملكون أيُّ زاد أو رصيد، تماماً كما هو الجائع العطشان العاري المشرّد الذي لا يملك ما يستطيع من خلاله أن يُلبّي حاجاته، ويضطرّ لأن يقف موقف الخاضع المستكين الذي يتذلّل للناس طلباً لما عندهم فيما يحتاجه منهم، تماماً كما يعبر الدعاء عن حال المذنب: «أنظر مرةً عن يميني وأخرى عن شمالي إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني، لكلٍّ أمرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه»(*) يشعر بالوحدة والوحشة والضياع ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ليس لهم أحدٌ يعصمهم أو ينصرهم من الله ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أخذنا قطعاً من الليل مظلمة سوداء، وركبناها على وجوههم، فأصبحت وجوههم ليلاً في سوادها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وذلك بما كسبت أيديهم وتمردوا فيه على الله تعالى في الحياة الدنيا.

(*) من دعاء أبي حمزة الثمالي.

لذا، فالقرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾
(الإنشقاق: ٦) أنت كادحٌ وكاسب، ماذا تريد أن تكسب؟ هل تريد كسب السيئات أم
الحسنات؟ خط السيئات يؤدي بك إلى النار، وخطُ الحسنات يؤدي بك إلى الجنة،
وأنت بالخيار.. فاختر ما يؤدي بك إلى سلامة المصير.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ
فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ
وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *
فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٨ - ٣٣).

رهبة المحشر

للمحشر رهبته في التصور فكيف في الواقع، والمحشر فيما يصوره لنا القرآن في أكثر من آية، هو بأن الله تعالى يجمع فيه الخلائق منذ آدم (ع) إلى آخر إنسان خلقه في الكون.. وفي يوم المحشر، يُوجَّه السؤال الأول للبشر، وهو السؤال الذي يتصل بالتوحيد، لأن توحيد الله هو رسالة كُلِّ الأنبياء. فتوحيد الإنسان لله سبحانه يقتضي ألا يُشرك به شيئاً في العقيدة، وفي العبادة والخضوع والطاعة. إذًا، السؤال الذي يوجَّه للناس يوم المحشر: هل أشركتم بالله أم وحدتموه؟ فإذا كانوا موحدين فإنهم ينطلقون إلى الجنة يُرزقون فيها بغير حساب، وإن كانوا ممن أشركوا بالله شركاً بدائياً كعبادة الحجر والخشب مما كانوا يصنعونه بأيديهم ويتخذونه آلهة، أو كعبادة الذين ادَّعوا لأنفسهم الربوبية وكانوا يرون بأن لهم حق الطاعة، كما في الطغاة والمستكبرين والمنحرفين الذين أخضعوا الناس لقوتهم، وبالتالي لأوامرهم ونواهيهم، وعبادة هؤلاء تُسمَّى شرك عبادة، وعلى هذا الأساس فإنهم يدخلون النار.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يُحْشَرُ الشركاء وأتباعهم، ويوجَّه الأمر إليهم أن توقفوا ولا تتحركوا لأن هناك سؤالاً يوجَّه إليكم ﴿فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ﴾ فَصَلْنَا فيما بينهم، وقطعنا الروابط التي كانت تجمعهم من خلال الاندماج مع بعضهم، ومن خلال وحدة المصلحة والتوجه والتحزب.. تلك الحياة التي عاشوها ذهبت. ووقفوا الآن في موقع نتائج المسؤولية، فالشركاء يتحملون مسؤولية إضلالهم للمُضِلِّين، وهؤلاء المضللون يتحملون مسؤولية عبادتهم وطاعتهم للشركاء، وعدم اتباعهم لرسل الله.

وعندما وصلوا جميعاً إلى ساحة المسؤولية، بدأ الشركاء يتبرأون ممن كانوا

يعبدونهم، ويُنكرون أنَّهم كانوا يُغرونهم بعبادتهم، ويتذرعون بأن لا دخل لهم بذلك، فهم طرحوا أوامرهم ونواهيهم وخططهم ومناهجهم وشعاراتهم وأفكارهم، والذين اتبعوهم كانوا ضعاف العقول ولم يجبروهم على ذلك ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ نحن نُنكر أن تكونوا قد عبدتمونا، كان لكم مصالح معنا ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لم نتدخل في الموضوع، كنا غافلين عن عبادتكم ونشهد الله على ما نقول.

﴿هَٰذَاكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ في يوم المحشر يختبر الإنسان ما مضى من الأعمال التي قام بها في حياته الدنيا، ويتساءل، هل كانت أعماله مما تجلب له السعادة، أم تجلب له الشقاء؟ وعندما يواجه الإنسان المصير هناك، حيث الجنة عن يمينه والنار عن شماله، وهو واقف بين يدي الله للحساب، يبدأ بتركيز تفكيره ليدرس طبيعة أعماله في الدنيا وخلفياتها ونتائجها بشكل دقيق، وهل يستطيع أن ينجو بهذه الأعمال؟

﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ وحُشِرَ النَّاسُ جَمِيعاً وَتَجَمَّعُوا مِنْ شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا، وكان لكل منهم مولاة في الدنيا الذي يواليه ويخلص له ويطيعه ويسلمه مصيره، ويتبعه في كل شيء.. وعندما وصلوا جميعاً إلى الآخرة، ضاع كل مولى اتخذهُ النَّاسُ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، المولى الحقيقي، الذي له الولاية على النَّاسِ مِنْ مَوْقِعِ خَلْقِهِ لَهُمُ وَالْمُهِمِّنَ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَمَمَاتِهِمْ، وبكل ما يتصل بهم. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ضاع وتبرأ منهم ﴿مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ من الذين جعلوهم شركاء لله، وجعلوا لهم الولاية عليهم في حياتهم.

إقامة الحجة

﴿قُلْ﴾ وتبدأ عملية استنطاق يُراد منها إقامة الحجة على هؤلاء الذين كانوا يعصون الله ويشركون به غيره، وذلك من خلال غفلتهم وابتعادهم عنه سبحانه

ونسيانهم له. فالقرآن الكريم يذكر الناس بأنهم لو رجعوا إلى أعماقهم وأعماق
القطرة الكامنة فيهم، رأوا أن هذه الأعماق تصرخ أن كل شيء لله تعالى ﴿مَنْ
مِرَزُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مَنْ الرازق؟ من الذي يُنزل المطر ويُنبِت النبات؟ مَنْ
الذي يحقق للطبيعة توازنها، والتي تعطي قوانينها الغذاء والنور؟ مَنْ الذي سخر
الشمس والقمر والحيوان لهذا الإنسان؟ ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ وَمَنْ
الذي خلق للإنسان السمع والبصر؟ مَنْ الذي أودع في الأذن سر السمع، وأودع في
العين سر البصر، مَنْ؟ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ﴾؟ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ مَنْ ينظم حركة نظام الشمس والقمر والكواكب،
ونظام خلق الإنسان والحيوان والنبات، ونظام البحار والجماد والجال والأنهار، مَنْ؟
هل يستطيع الإنسان أن يشير في ذلك إلى بشر؟ إنه لا يستطيع أبداً، لأن كل ما
ذكرنا، خلقه الله من قلب النظام، نظام الكون، وتحرك في دائرته. ويأتي السؤال
القرآني للناس مُكرراً (بمن)، وإذا بهم وبشكل لا شعوري ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ هو
الخالق والرازق والمالك ومدير الأمر ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فإذا كان لا يستطيع أحد
أن يقترب إليه في عظمتة، فكيف لا تتقونه ولا تراقبونه ولا تحسبون حسابَه؟ ﴿فَذَلِكُمْ
اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ لأنه سبحانه أعطى للكون وجوده وحركته وحيويته، وليس هناك
رب سواه ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ما دام هو سبحانه الحق، فكل ما عداه
ضلال، وكل طريق غير طريقه ضلال ﴿فَأَنَّى تُصِرُّونَ﴾ كيف تتحولون وتذهبون
إلى غيره؟

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وثبتت الكلمة التي جعلت الحجة
قائمة على الذين فسقوا فسق الكفر والمعصية ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع أن الإيمان
يفرض نفسه عليهم من خلال العناصر المودعة في كل وقائع الحياة.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ السُّطْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤ - ٣٦).

من أساليب القرآن في مواجهة قضايا الشرك والكفر والانحراف أنه يُثير الأسئلة أمام هؤلاء الكافرين والمشركين والمنحرفين من أجل أن يُظهر جهلهم، في الوقت الذي لا ينتظر منهم عندما يُثير السؤال أمامهم أن يُجيبوا، وهم إن أجابوا فإنه مستعد لأن يناقش إجاباتهم. والقرآن عندما يطرح الجواب بعد السؤال مباشرة، فلكي يربط المسألة بالحقيقة، وليُوحى إلى الناس بأن هذا الجواب هو ما تفرضه طبيعة الحقيقة في عمقها، وما تفرضه الفطرة في عمقها.. وهذا ما درج عليه الأسلوب القرآني فيما يريد أن يثيره من اهتمامات الإنسان في القضايا التي تتصل بالعقيدة وبالحياة، ومما يريده لهذا الإنسان أن يفكر به، ويعتقده ويسير عليه.

وكانت المشكلة في عهد النبوة هي مشكلة الشرك الذي كان يتنوع بين شرك جامد وآخر متحرك. فالشرك الجامد، هو وثنية الحجر والخشب، وما اعتاد المشركون أن يصنعوا منه أصنامهم التي اعطوها إسم الآلهة، فيما خُيِّل إليهم من أنها تحمل بعض الأسرار التي تجعلها قريبة من الله، والشرك المتحرك هو الشرك بالأشخاص الذين هم من لحم ودم، كما في حديث فرعون عن نفسه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤) وكان الناس يستجيبون له في ذلك، فالشرك المتحرك إذاً، هو ما يتصل بالطاغية الذي يؤلهه الناس أو يدفعهم لأن يعبدوه ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفَّكُونَ﴾.

إشارات بانحياز التفكير

هنا يثير القرآن قضية بداية الخلق وإعادته بعد الموت، فالبشر لم يكونوا ثم كانوا، فمن أوجدهم؟ الكون لم يكن، فكان، مَنْ خلقه؟ ثم يطرح مسألة إعادة الأموات إلى

الحياة، وَمَنْ هو القادر على ذلك؟ ويطلب من هؤلاء المشركين أن يقوموا بجولة استقرائية ليفحصوا فيها قدرة كُلِّ الذين يعتبرونهم شركاء يعبدونهم من دون الله، إن كانوا من صنف الآلهة الحجرية أو البشرية ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ من الطبيعي أن هذا السؤال لا يمكن أن يُجاب عنه، بأن هذه الأصنام، وهؤلاء الآلهة المخلوقين جميعاً، يمكن أن يكونوا الخالقين.

وهنا قد يُقال بأن المشركين لا يؤمنون بالبعث، وبأن الإنسان بعد أن يموت يعود إلى الحياة من جديد، فكيف يُطرح عليهم هذا السؤال؟ نقول: إن القرآن أراد إثارة هذه المسألة لتكون أساساً للتفكير على طريقته التي تعتبر أن القادر على الإيجاد، قادرٌ على الإعادة ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨ - ٧٩) فالقدرة على الإيجاد هي قدرة على الإعادة، ولذلك اعتبرهما شيئين متلازمين من خلال طبيعة الممارسة بحسب طبيعة الأشياء ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لا تنتظر يا محمد أن يُجيبوا، لأنهم لا يستطيعون أن ينسبوا لشركائهم هذه القدرة، وقرّر أمامهم هذه الحقيقة، على اعتبار أن فطرتهم تُجيب عن ذلك، وإن لم تنطق ألسنتهم بالاعتراف بذلك. وعلى هذا، فالله وحده يبدأ الخلق ثم يعيده، وهؤلاء الآلهة وهذه الأصنام لا يستطيعون من ذلك شيئاً، فكيف يمكن أن يكونوا شركاء لله ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ لماذا تعدلون عن الحق إلى غيره؟

وحده الواهب للحياة سرّها وهداها

ثم يطرح القرآن المسألة من ناحية ثانية، وهي أن من صفات الإله أنه يهدي إلى الحق، ويُعطي لكلٍّ موجودٍ هداية ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى: ٢ - ٣) فالإله الخالق الذي يعطي للأشياء سرّ الحياة، لا بد أن يعطيها هدى

الحياة، ويحركها نحو الخطّ الذي يتجه بها إلى الهدى الذي ترتبط فيه بغاياتها وحاجاتها، وبكلّ القضايا التي تتصل بمصيرها، فالخالق عندما يُوجد الخلق فإنه يخلقه مفتوح العقل والمعرفة.. لذا، يسألهم القرآن ليحثّهم على التفكير في تفاصيل الخطّ الذي ينهجونه ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ كُلُّ هَذِهِ الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، هل تهدي إلى الحق؟ من الطبيعي أنها إذا كانت لا تعيش شيئاً من هذا كونها لا تملك إحساس الحياة، فكيف تملك إحساس الهداية؟ وإذا كان هؤلاء الشركاء بشراً، فإن هؤلاء البشر يحتاجون إلى مَنْ يهديهم ويوجههم ويدلّهم على الطريق، وإلى مَنْ يحرك أجهزتهم وطاقاتهم في المدى الذي تستطيع من خلاله أن تكمل طريق الحياة.

إذاً، هم لا يستطيعون أن يهدوا إلى الحق، فكيف يمكن أن يكونوا الهة؟ ما هو دور الإله، هل دوره مجرد شيء جامد يُطلّ على الحياة بجموده؟ أم أنه يعطي الحياة سرّها وهدايتها ويوجهها نحو أهدافها الكبيرة ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يتلفتون إلى شركائهم ويتحيرون في الجواب، ويعرفون أنهم لا يستطيعون أن يردّوا بالإيجاب، ولذلك يأتي الرد ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ الله تعالى هو الذي ألهم كلّ نفس هداها، وخلق العقل وجعله يُطلّ على الحقيقة، ووهبها القدرة على وعيها ومعرفتها. فهو سبحانه مَنْ خلق الإنسان وأودع فيه الوعي ليكتشف الحق بعدة طرق ووسائل ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ ثم يستنتج ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي﴾ أي لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إذا دخلنا في مقارنة بين مَنْ يهدي إلى الحق بخلقه وإلهامه ورسالته، وبين مَنْ لا يهتدي، وهو يحتاج للهداية، أيعقل أن يكون هذا الأخير إلهاً؟

من خلال هذه الآية نستوحي حقيقة إجتماعية سياسية فيما هي مسألة القيادة، صحيح أن القرآن يتحدث عن مسألة الإله والشريك المزعوم للإله، ولكننا نستطيع ومن خلال استيحاء الجوَّ القرآني أن نُبرز مسألة مهمّة، وهي أنه إذا دار الأمر بين مَنْ يملك العلم والمعرفة والروحانية والاستقامة، بحيث يستطيع بفكره وعمله ومنهجه وخطّه أن يهدي الناس إلى الحق، وبين مَنْ لا يملك المعرفة الرسالية التي تربط فكره بالحق، ولا يملك الروحانية الإلهية التي تجعله يفتح على آفاق الحق، ولا يملك الاستقامة في النهج والسلوك، فإذا دار الأمر بين قيادة تملك أن تقود الناس إلى الحق وتهديهم سواء السبيل، وبين قيادة ضالّة منحرفة وهي نفسها تحتاج إلى هداية، فمن يكون القائد؟ هل يمكن أن نجعل هذا مثل ذاك؟ أبداً، لا بدّ أن نوالي القيادة التي تنطلق من موقع المعرفة والقدرة الروحية والاستقامة العملية في النهج والسلوك. وهذا ما يجب أن نلتفت إليه في حركتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية عندما نريد اختيار القيادة، لا بدّ لنا من أن نفكر بخصائص هذه القيادة، لأنّ القائد الذي نريده هو مَنْ يقود الناس إلى الحق الذي يؤمنون به، وإلى الهدف الذي يأمنون فيه على حياتهم، ويحركهم في الخطّ الذي لا يُحسُن فيه بالخطر على وجودهم، لذلك لا بدّ للناس أن يحركوا عقولهم عندما يختارون القيادة، لا أن يحركوا غرائزهم وعواطفهم، والأهم ينظروا إلى الأشياء في أشكالها، ولكن ينظرون إلى عمقها ومدلولها وحركتها نحو الخط المستقيم.

وعلى هذا، فإنّ القرآن الكريم يدخل في بيان المنهج الذي ينبغي للناس أن يتبعوه في مسألة العقيدة والمعرفة، كيف يعتقدون ويكونون قناعاتهم وانطباعاتهم وانتماءاتهم؟

هناك نوعان من الناس في هذا الاتجاه: نوعٌ يتحرك بسرعة في الارتباط بالأشياء وبالأشخاص، تخطر الفكرة في ذهنه فلا يناقشها بل يتبناها فوراً ويلتزم بها، يحدث الظنُّ في ذهنه، يفكر في مسألةٍ من المسائل بنسبة ستين بالمئة ولا يستطيع تركيز الأربعين بالمئة، بحيث تبقى هذه النسبة في مجال الاحتمال دون مناقشة أو دراسة، فيلتزم المسألة التي تحمل الستين بالمئة، وينطلق من انتماؤه على أساس عاطفي، ليتبع الآباء والأجداد، على اعتبار أنه يجب أن يقلدَهم فيما كانوا عليه.. فبعض الناس يركّزون قناعاتهم وانطباعاتهم وحركتهم في الحياة على أساس الوهم والخيال والإحساس الغريزي والشعور العاطفي، فالعائلة تريدنا أن نتبنى هذا الموقف، والحزب يريدنا أن ننحاز إلى هذه القضية، أمّا نحن فلا إرادة لنا في الاختيار! هذه الأسس لو وقف عليها الإنسان لم يستطع أن يثبت عليها، بل يبقى مهتزاً في مواقفه.

وهناك نوعٌ آخرٌ من الناس يتبنى قناعاته ويكونها من خلال الوعي والحجة والبرهان، فلا يعتقد بشيء إلا إذا ثبت له بالبرهان القطعي أن هذا الشيء هو الحقيقة، ولا ينتمي إلى محور إلا إذا ثبت له أن هذا الانتماء يحقق له السلامة من الهلاك، ولا يحمل انطباعاً في نفسه عن شخص أو موقف، إلا إذا كان هذا الانطباع منطلقاً من تفكير عميق مُترن ودراسة واسعة للأمر.

وهكذا فإنَّ هذا النوع من الناس لا يسير في طريق إلا إذا عرف معرفةً يقينيةً أنَّ هذا الطريق يؤدي إلى الله والسلامة.. ولكنَّ المشكلة في الناس ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ مشكلتهم أنهم يتبعون الظن والوهم اللذين لا يرتكزان على حجة، وإنما هي تخيلاتهم وأوهامهم وظنونهم التي يتبعونها، ولا يتركون لأنفسهم المجال ليدرسوا الحجة على الأمور والقضايا، أو ليدرسوا البرهان والأسس التي تقوم عليها هذه القضايا، ليناقدشوا الفكرة الأخرى، إذا كان هناك من فكرةٍ أخرى، ليقارنوها

بأنكارهم ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ نلاحظ هنا أن القرآن لا يعطي الأكثرية القيمة المطلقة، لأنها ليست هي الميزان، فلو كان أكثر الناس على خطأ، فليس معنى ذلك أن هذا الخط هو الحق، وكانت الأقلية على خطأ آخر، فليس هذا دليلاً على أن هذا الخط هو الباطل.

فدراسة الحق والباطل تكون من خلال عناصرهما الطبيعية، لا من خلال كثرة المنتسبين إلى هذا أو ذاك، ولذا، فإن القرآن يكرر دائماً ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف: ٧٨) ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٩) هذا يعني أن الأكثرية غالباً ما تتحرك على السطح ولا تنزل إلى العمق، وهي تلامس الأشياء في ظواهرها، ولا تلامسها في بواطنها.. وإذا أردنا رصد ذلك، فإننا نرصدها في الأجواء الشعبية العامة، حيث يخضع الناس فيها لانفعالاتهم وعواطفهم، فإذا أردت مناقشتهم في مسألة ما، فإنهم لا يدخلون معك في نقاش جدي، وإنما يهدّدونك أو يسخرون منك، أو يتحدثون معك بطريقة غير مسؤولة، كما كان الناس يفعلون مع الأنبياء عندما يدعونهم إلى الله، إذاً ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ﴾ في هذا الخط الشرقي ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ويرد عليهم القرآن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ فالظن لا يكشف عن الحقيقة أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإذا كان الإنسان يعرف بأن الله يعلم بما يفعل سراً أو علانية، عليه أن يعرف أيضاً أن الله تعالى لا يخطئ حسابه، وإذا كان لا يخطئ حسابه، فكيف يمكن أن يتحمل الإنسان غداً مسؤولية حسابه، عندما يأتي النداء من الله: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢٧ - ٤٤).

أسلوب القرآن في إبراز الفكر المضاد

من بين المواجهات التي واجه بها المشركون رسول الله (ص) في دعوته للرسالة، وفي تقديمه القرآن لهم بأنه كتابُ الله، أنه - وحسب زعمهم - قد افترى هذا الكتاب ونسبه إلى الله تعالى، أي أنه هو الذي صنعه، وتعلّمه من شخصٍ آخر، ليحصل على موقع النبوة الذي يجعله شخصيةً مميزةً في المجتمع، فينال بذلك القداسة التي لا يقترب منها أحد.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دائماً يُبرز القرآن الكريم الفكرة المضادة ليبين زيفها وكذبها، لأن الله سبحانه يريد للناس أن يؤمنوا من موقع القناعة، لا من موقع العاطفة والضغط والتهاويل، لذلك كان القرآن يطرح القضايا والأفكار على بساط البحث ليناقشها.

وهذه الآية الكريمة تمثل أحد الأساليب القرآنية في هذا المجال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إن مثل هذا القرآن فيما يشتمل عليه من حقائق الكون والحياة، ومن دقائق الأسرار وتفاصيل الأحكام وسعة المفاهيم وإعجاز الأسلوب، لم يكن لرسول الله (ص) بحسب تاريخه الثقافي ما قبل البعثة، وبحسب إمكاناته العلمية، هذه القدرة على أن يأتي بهذا المشروع الإلهي وما تضمنه هذا الكتاب الكريم من تعدّد في المواقع والاتجاهات والثقافات والمعلومات والأفكار.

إن دراسة شخصية الرسول (ص) الذي لم يكن يتلو كتاباً قبله، ولم يتعلّم عند أحد القراءة أو الكتابة، تُظهر لنا أنه لم يفتّر كتاباً بهذا الحجم، كما أنه لا يمكن أن يكون أحدٌ من معاصريه (ص) من الذين عايشهم وعاشوه مستطيعاً ومتمكناً من الافتراء على الله بهذا، وإننا عندما ندرس هذا القرآن ستجد صدقته فيما يتوافق فيه

مع الكتب السماوية الأخرى التي بين يديه، وهي التوراة والإنجيل، مما يدل على صدقه كونه ينحرك مع هذه الكتب في خطاً واحد ومفاهيم واحدة التزمها الناس في فترة زمنية سبقت زمن رسول الله (ص)، مما يجعل من صدقه دليلاً على صدقه وتأكيداً لرساليته، ولذا قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أن يكذب ويقدم كأنه شيء منسوب لله سبحانه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فلو درستموه لرأيتم علامات صدقه من خلال تصديقه لما بين يديه من الكتب التي ثبت انتسابها إلى الله ونزولها منه ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وقد فصل كل ما جاء في الكتاب الذي أنزله الله بطريقة متدرجة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلو درس القرآن دراسة عميقة في جميع أبعاده التشريعية والروحية واللغوية والأدبية، فإن الإنسان الباحث لا يجد مجالاً للشك فيه، لأنه صادر من رب العالمين، وليس صادراً من النبي محمد (ص) بصفته البشرية، أو صادراً من غيره بهذه الصفة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ وهنا يطرح القرآن المسألة من زاوية أخرى، فلا يريد المناقشة على أساس الجانب الفكري، كما ناقشها في الآية السابقة، وإنما أراد مناقشتها من خلال الصدمة التي يريد أن يصدم بها الأشخاص الذين يتحدثون بهذا الأسلوب ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ﴾ إذا كان النبي (ص) قد افتراه من خلال صفته البشرية، أو أن أحداً علّمه صنعه، فهذا معناه أن القرآن هو في مستوى قدرة البشر، فإذا كان كذلك، فإننا نطلق التحدي أمامكم ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ نطلب منكم أن تأتوا بسورة واحدة من مثله، فإذا كان - كما تزعمون - هذا القرآن بشرياً في طبيعته، فمعنى ذلك أن البشر قادرون على صنع ما يماثله، وأنتم من البشر، ونحن لا نتحدى واحداً منكم، لكننا نتحدى كل المجتمع الذي تمثلونه أو تتمثلون فيه، إذا ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإذا كنتم عاجزين فاستعينوا بكل شركائكم ليقدموا سورة واحدة مثله.

ولقد ثبت تاريخياً بأن هذا التحدي الذي أعلنه القرآن الكريم لم يُجابه بأي رد فعل بمستوى ذلك التحدي، ولم يقم أحد منذ بعث الله رسوله (ص) بالقرآن وحتى يومنا هذا بكتابة سورة أو عشر سور من مثله على نحو تتفق في عناصرها الفكرية والروحية والبلاغية مع مستوى السور القرآنية، مما يدل على أن هذا القرآن هو من الله تعالى، وأنه لو كان من محمد (ص) بصفته البشرية لكان من الممكن أن يأتي إنسان بما طرحه القرآن من تحدٍّ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم هذه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ مشكلة هؤلاء النَّاس أَنَّهُمْ لم ينطلقوا في تكذيبهم وفي دعواهم من دراسة القرآن في آياته ودقائقه وأحكامه، وفيما أخبر به عن أحداث المستقبل التي ستظهر بعد وقت في طبيعتها الإعجازية، ولهذا فإنهم لو أحاطوا بعلم القرآن لدخلوا مع رسول الله (ص) في مناقشة فكرية قد تدفعهم للإيمان به. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ لم يعرفوا حقائقه، أو لم يعرفوا المعاني المستقبلية التي يتحدث عنها القرآن فيما يمكن أن يكشفه الزمن من حقائق.

على خطى آبائهم

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذه الطريقة في التكذيب والتي هي على غير أساس ومن دون برهان، ليست طريقة جديدة حادثة جاء بها هؤلاء الذين عاصروا النبي (ص)، بل إنها طريقة تاريخية قديمة مارسها كثير من الشعوب المتخلفة التي واجهت أنبياءها بالتكذيب لمجرد أن ما طرحه الأنبياء لم ينسجم مع تقاليدهم وعاداتهم ومألوفاتهم، بل إنهم تمسكوا بها بعيداً عن دعوات الحق ليتمرّدوا وليرفضوا من دون دليل. إنّه مظهر التخلف الفكري والروحي لهؤلاء ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب للأنبياء (ع) والتمرد على خط الله، والجحود بآياته، فانظر يا محمد كيف كانت عاقبتهم، بأن دمرهم الله بظلمهم، وسيجري على هؤلاء ما جرى على أولئك.

وفي قبال هؤلاء الظالمين والمشركين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ هؤلاء الذين يؤمنون بالقرآن يملكون في داخلهم هدوءاً فكرياً يستطيعون من خلاله أن يناقشوا القضايا ويفهموها ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْأَفْسِدِينَ﴾ الذي يفسدون الحياة من خلال التصور المنحرف والعقيدة المنحرفة. والفساد على قسمين، هناك فسادٌ عمليٌّ من خلال ما يقوم به الإنسان في حياته من الانحرافات في الخطِّ الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهناك فسادٌ وإفسادٌ ينطلقان من خلال الأفكار المنحرفة والعقائد الضالة، فالتصور المنحرف يفسد تماماً، كما هو السلوك المنحرف.

الخطاب الواثق

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فبعد أن دخلت معهم في حوار ومناقشة هادئة، ولكنهم أصروا على مواقفهم وكذبوك، فماذا يكون ردُّ فعلك؟ وهذا الخطاب الموجَّه للنبي (ص) ليس موجَّهاً إليه بصفته الخاصة، ولكنه خطابٌ له (ص) بصفته داعية إلى الله ومبلِّغاً للنَّاس. وعلى هذا، فإنَّ هذا الخطاب يشمل كلَّ النَّاس الذين يقفون في خط الدعوة لله والإبلاغ لرسالته، بحيث إذا انطلق الإنسان ليبلِّغ النَّاس دعوة الله ورسالة الخير والإصلاح في جميع القضايا التي يرضاها الله، وكُذِّبَ ورُقِضَ.. يُوجَّه إليه الخطاب نفسه: ماذا يكون ردُّ فعله؟ هل يواجه المسألة بالعنف، أم أنَّه يبقى على هدوئه الفكري والروحي ليوواجههم بكلِّ ثبات وقوة ومرونة وواقعية؟ القرآن في هذه المسألة يدلُّ على المنهج ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ مسؤوليتي أن أبلغكم ما أقنتع به والتزمه، ورفضني لما تقتنعون به مما لا أراه صلاحاً، وإذا قرَّرتُم ألا تقبلوني وتبقوا في خطِّ التعصب لما تلتزمونه، فليس لي إلا أن أقول لقد تحمَّلت مسؤولية عملي، وأنتم تتحمَّلون مسؤولية عملكم، وقد تحدَّدت طبيعة القضية بيني وبينكم ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ

مِمَّا أَعْمَلُ ﴿ وهذا هو ما تمارسونه عندما تتمرّدون عليّ، وترفضون رسالتي ﴿ وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ لأنني أرى أنكم سائرون على خطّ الكفر والضلال، ولذا،
 فإنني أعلن براءتي منكم، وليتحمل كلّ منا مسؤوليته، وليمارس موقفه على أساس
 النتائج السلبية أو الإيجابية وبعد ذلك ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
 خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿ (الأعراف: ٨٧) هذا الأسلوب السلمي الهادئ الواثق بنفسه، هو
 الأسلوب الذي يُمكن للإنسان أن يتفادى من خلاله الدخول في كثيرٍ من المشاحنات
 والمجادلات والخلافات التي تترك الواقع الاجتماعي وتؤدي إلى نتائج سلبية.

العمل والصَم العَقْلِيَّانِ

وهناك فريقٌ من الناس يعيش اللاوعي في حياته ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ
 أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿ بعض الناس يستمعون القول، ولكن
 السمع عندهم يحتاج إلى أمرين، يحتاج إلى أن تدخل الكلمة في الأذن بشكلٍ
 واضح، وإلى العقل بشكلٍ واضح. ولو فرضنا أن إنساناً لا يملك وعياً، فلو دخل كلّ
 ضجيج الدنيا أذنه فإنه لا يفقه شيئاً، فلا يفهم الكلمات التي يسمعها بمجرد ضجيج
 الأصوات في أذنيه، لأنّه لم يسمع الكلمة من خلال انفتاح عقله على هذه الكلمة.
 فالأذن تسمع، تأخذ الصدى، والعقل يأخذ الفكرة.. ومن خلال الصدى الذي يدخل
 السمع، والوعي الذي ينطلق فيه العقل لاستيعاب الفكرة التي يتضمّنها الكلام، فإنَّ
 الإنسان عندها يفهم ما يسمع. ولكن بعض الناس قد يسمعون الكلام ولكنهم لا
 يعقلون شيئاً، لأنَّ صَمّاً عقلياً تحكّم بهم، وإن كانوا يملكون سمعاً حسياً شكلياً.
 وعلى هذا، فإنَّ بعض الناس - وحسب تعبير الآية - من الذين يستمعون إليك يا محمّد
 كأنهم لا يسمعون، وحالهم حال الإنسان الأصم الذي لا يسمع، فإذا كانت قيمة
 السماع بالوعي، وباعتباره طريقاً إلى العقل، فالذي يسمع ولا يعقل أو يفكر، هو كمن

لا يسمع، لأنَّ قيمة الكلمة عندما تدخل إلى الآن أن تتحوَّل إلى فكرة يعيها العقل، ولذا يقول سبحانه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ هؤلاء بمنزلة الصُّم الذين لا يسمعون، لأنَّهم لم يستمعوا إليك سماع وعي، إنما استمعوا إليك سماع لهو ولا مبالاة، فلذلك لا قيمة لاستماعهم إليك.

وكما السمع كذلك النظر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ قيمة النظر أنَّه يعطينا الفكرة من خلال الصورة وما توحى تلك الصورة من أفكار وأسرار وظواهر. فالذي ينظر ولا يرى إلاَّ الصورة تنطبع في عينيه وحسب، ولا تدخل إلى عقله، فأیُ فَرْقٍ بينه وبين الأعمى؟ فهو يعيش غيبوبةً عقلية، وإن كانت عيناه تُبصران الأشياء والصور، فالنظر إنما يكون طريقاً للمعرفة بواسطة العقل، فتُنقل الصورة بواسطة النظر إلى العقل الذي يُحلُّها ويستنتج منها الجوانب الفكرية ﴿أَفَأَنْتَ تُهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يُطلب من أعمى البصر أن ينظر للأشياء، كذلك كيف يُطلب من أعمى القلب أن يعي حقيقة الأشياء؟ فإذا كان الإنسان أعمى القلب فإنَّه لا يستفيد شيئاً من عينه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) الله تعالى فتح للإنسان أبواب المعرفة والحركة، وأعطاه العقل والتجربة والحسُّ والإرادة، والوسائل التي يستطيع أن يتحرَّك بها في الحياة، ورسم له الخطط، حتى إذا ما أخذ بما خطَّط الله له، مما يهديه سواء السبيل، فقد أخذ بما يحصل عليه من نتائج إيجابية، وإذا رفض ذلك، فإنَّه يرفض ما فيه صلاحه.

فالله سبحانه يترك الإنسان لاختياره، فهو يحمل في شخصيته جنته، أو يحمل ناره، لذلك عليه أن يتحمَّل مسؤولية نفسه، فهو مَنْ يتحرَّك لنفع نفسه أو لضررها. وعلى هذا فالنَّاس هم الذين يظلمون أنفسهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّهم يتورطون بالسير في الطرق التي تؤدي بهم إلى عذاب الله وسخطه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَأْنِبْتُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَإِمَّا تُرِيكُ بِغُضِّ الَّذِي
نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيَمِينُ مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَإِكْلُ
أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٥) -
(٤٧).

الإحساس بالزمن

عندما يجتمع الناس يوم القيامة بعد فراق طويل قد يكون بحجم القرون أو عشرات السنين، يلتقون ويجتمعون وكأن فراقهم عن بعضهم إستمر لعدة ساعات وحسب ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

إنَّ الإنسان عندما يفترق عن إنسانٍ آخر، ويشعر بثقل الزمن وطول المدّة التي غاب فيها عنه، فإنّه وبعد اللقاء به، يحدثه عن طول الزمن وضغطه عليه، من خلال ما عاناه من فراق طيلة تلك المدّة، وما ذلك إلّا لأنّه عاش الزمن وأحسّ به.

أمّا في يوم القيامة، وعندما يلتقي الأجداد والآباء والأبناء، وبعد مضيّ مئات وآلاف السنين، فإنّهم لا يشعرون بالفراق عن بعضهم إلّا لعدة ساعات، فهم لا يحسّون بالفراق، لأنّهم لم يحسّوا بالزمن.

وإذا أردنا تقريب الصورة، نقول: لو أنّ إنساناً دخل في غيبوبة، شهراً أو شهرين، ولكن بعد علاجٍ معيّن استفاق من غيبوبته، ولم يخبره أحدٌ بالزمن الذي استغرقه في هذه الغيبوبة، فإنّه عندما ينظر إلى الناس من حوله يظنُّ أنّه افترق عنهم أربعاً أو خمس ساعات، لأنّه لم يشعر بالزمن على الإطلاق يمرُّ عليه.

وقد يمرُّ الزمن على إنسان فلا يُحس به، لا لأنّه ميت، أو لأنّه في غيبوبة، بل لأنّه غافلٌ عن هذا الزمن وذاهلٌ عنه لذا، قال الله سبحانه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٢ - ١١٣). كانوا لا يُحسّون بالزمن الذي مضى عليهم، ولكنّهم يحسّون بالزمن الذي يعيشونه الآن، يوماً أو بعض يوم.

ومن هنا ركّز الإسلام على ضرورة إحساس الإنسان بالزمن، على أنه مسألة العمر الذي يتحدّد مصيره من خلاله، فلكل ساعة حسابها في مصيره، فبعض الساعات قد ترفعه إلى السماء أو تنزله إلى الأرض، وبعض الأيام قد تقلب كل أوضاعه، إما إلى خير وإما إلى شر. وعندما تبدأ مساحة زمنية في حياته، وتنتهي مساحة زمنية أخرى، عليه أن يشعر أنه ماتت مساحة من حياته، وولدت مساحة جديدة.

وهكذا، إذا أحسنا الزمن، فمرّ علينا الصباح وجاءنا المساء، نشعر أن جزءاً من عمرنا مات ووُلد جزء آخر، والموت هو زوال الشيء، والأبقى له حياة أو حركة، فعندما يطلع الفجر علينا إلى أن يجيء المساء، نتساءل: أين هي تلك الساعات؟ لقد ماتت، ومات جزء من العمر، ووُلد جزء جديد، وهذا ما عبّر عنه الإمام زين العابدين (ع) في دعاء يوم الأربعاء: «لَكَ الْحَمْدُ أَنْ بَعَثْتَنِي مِنْ مَرْقَدِي وَلَوْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ سَرْمَداً» فعندما ينام الإنسان يكون بحكم الميت، ميّت يتنفس، كما في حالة أهل الكهف. ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ (الكهف: ١٨). فالنائم ميّت مع وقف التنفيذ، ميت يتحرك ويتنفس، هو لا يحس، والميت لا يحس، والفرق بينه وبين الميت، أنه جسد يتنفس ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠) في الليل نحن ميّتون ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر: ٤٢). فإذا جاء الأجل تذهب الروح إلى ربّها، وإذا لم يأت يَطْلُق سراحها. لهذا، فالإحساس بالزمن يعطي الإحساس بالمسؤولية، والإحساس بالعمر والشعور بحجم المصير في الدنيا وفي الآخرة. وأما الغفلة عن العمر والزمن والحياة فإنّها تجعلنا لا نحسّ إلا بالساعة

التي نحن فيها. والإسلام يحثنا على تذكّر الزمن الماضي لنعتبر به، وعلى الإحساس بالحاضر لنعرف مسؤوليتنا فيه.

المهروب من التبعات

ونعود إلى الآية المباركة، فالله تعالى يحشر الناس يوم القيامة، ولفقدانهم الإحساس بالزمن الطويل الذي قضوه وهم ميّتون فيشعرون ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يحاول كل واحد أن يتعارف مع الآخر، كل جيل مع جيله، هذا جار فلان، وذاك قريبه وصديقه، هؤلاء الآباء وأولئك الأبناء، وتدور حوارات ومعه عتاب ﴿إِذْ قَبِرُوا الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ (البقرة: ١٦٦). هذا يقول الحق على ذاك، وذاك يقول على هذا، ولأهل الجنة حوار فيما بينهم، ولأهل النار حوار فيما بينهم، وحوار بين أهل الجنة والنار كذلك ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الحديد: ١٤) كنا أصدقاء وأحباء ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ فَتَنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (الحديد: ١٤). استسلمتم للفتنة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (الحديد: ١٤). لقد كنا مع بعضنا، ولكن كل منا أخذ طريقاً مغايراً لطريق الآخر، وهنا تكون النتائج عندما ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فريق آمن بالله والرسول واليوم الآخر فصدق واستقام، وفريق استهزأ وتكبر لكلمة الحق ﴿إِذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الصافات: ١٦ - ١٧). كذبوا وأنكروا الآخرة واستغرقوا في الدنيا، ولم يستعدوا للوقوف بين يدي الله، وعندما جاؤوا، جاؤوا صفر اليدين ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ لأنهم لم يستعدوا لهذا اليوم، ولذلك كانت الخسارة ﴿قُلْ إِنِ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥). فلقد خسروا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لأنهم لم

يسيروا في الطريق المستقيم الذي يبدأ من الله، ويتحرك في خطه وينتهي إليه، وإنما ساروا في الطريق المعوج الذي لا ينتهي إلى شيء، ﴿كَسْرَابٍ يَقْبَعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور: ٣٩).

نَحَقُّ الوعد

ثم يتوجه الله لنبيه (ص) ﴿وَأَمَّا نُرْيِكَ﴾ هؤلاء الذين تمردوا وكذبوا بلقاء الله تعالى سنريك يا محمد كيف أن العذاب والبلاء سينالهم في الدنيا والآخرة، وقد تموت قبل أن ترى ذلك، وقد تعيش لترى ما ينزل عليهم الله من عذاب، ولا فرق في المسألة، لأنك ستجتمع معهم يوم القيامة، وسترى ما أعدّه الله لهم من العذاب، إذا لم ترَ ما أعدّه الله لهم من البلاء في الدنيا ﴿وَأَمَّا نُرْيِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من البلاء والعذاب ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ فلا ترى ذلك قبل وفاتك ﴿فَالْيَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وعندما يرجعون إلينا سيحالون إلى المحاكمة، وسيحكم عليهم من دون حاجة إلى شهيد، وإن كان الشهداء موجودين ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢١) وهناك شهيد حاكم ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يحتاج الله في إنزاله العذاب عليهم إلى شهادة أحد. وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليّ (ع): «إتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم» (*). إن الإنسان يعصي الله، وخصوصاً في الأمور التي تترتب عليها مسؤولية كبرى في الحياة، أو في الأمور التي تحمل قبحاً أو عيباً أو انتقاداً، عندما يكون في خلوة، حيث الأبواب والنوافذ مغلقة، فلا أحد يرى أو يسمع، ويمارس في السر كل ما يستحي من ممارسته في العلن، لأنه لا يوجد شهود، فيسرق، ويظلم، ويزني ويتجسس، ويعاون الظالمين، كل

(*) نهج البلاغة: قصار الحكم ٣٢٤.

ذلك لأنه مطمئن إلى أن الشهود غير موجودين، ولكن الله هو الشاهد الأكبر «والله
يُبَصِّرُ مَنْ تَحْتَ عَرْشِهِ مَا تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ». فكيف يخفى عليه شيء؟
﴿وَعِذَّةُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا
تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩). وفي كلمة أمير المؤمنين (ع) إشارة إلى الإنسان
بالأحرس بالأمان، لأن الذي يشهد عليه، يحكم عليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ كل أمة لا بد أن يبعث الله فيها رسولا حتى يقيم الحجة
عليها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥). فالله لا يعذب أمة
أمة من الأمم حتى يقيم الحجة عليها، وذلك حين يرسل الرسول. والرسول نوعان:
الرسول الباطني، وهو العقل، فالله يعاقب أناساً على تمردهم باعتبار أن عقولهم
تدرك بعض الحقائق، وإن أنكروها، فقد قامت الحجة عليهم من خلال عقولهم. وهناك
الرسول الذي يبعثه الله للناس، والمقصود من كلمة الرسول - والله العالم - كل داعية
إلى الحق سواء كان مكلفاً من الله بشكل مباشر كما هم الأنبياء، أو كان مكلفاً
بشكل غير مباشر، كما هم الأوصياء والعلماء، وهؤلاء رسل يحملون رسالة الأنبياء،
لذا فالله سبحانه حدثنا عن أصحاب القرية ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (يس: ١٣ -
١٤) فهؤلاء رسل من قبل عيسى (ع) ليسوا رسلاً بمعنى الأنبياء، ولكن الله تعالى
عبر عنهم أنهم من المرسلين يحملون رسالته سبحانه. إذاً، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾
يقيم عليها الحجة، ينذرها ويزكيها ويعلمها الكتاب والحكمة، بحيث لا يبقى عذر
لمعتذر، لأنه يهيئ لها المعرفة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ولأنهم
تمرّدوا عليه حكم عليهم بالعدل فاستحقوا العقاب ﴿وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ﴾ فاستحقوا
العذاب من خلال قيام الحجة عليهم، ورفضهم لهذه الحجة وتمردهم عليها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاقًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٨ - ٥٤).

بين أسئلة الحق وأسئلة الإساءة

إلى جانب الأساليب الماكرة التي وظفها المشركون لمواجهة النبي (ص)، إتبعوا أساليباً أخرى في محاولة لإثارة الضوضاء حول الدعوة وحركة النبي (ص)، وذلك عندما عمدوا إلى توجيه بعض الأسئلة إليه والتي لا يملك أن يجيب عنها، لأن الله تعالى لم يجعل الإجابة عن ذلك من مهمته، حيث هناك أمورٌ استقلَّ سبحانه بالعلم بها، ولم يُطلع أنبياءه عليها، أو يكلفهم مهمة إبلاغها إلى الناس، لأنَّ الله حكماً في إخفائها عنهم من جهة ما يترتب على ذلك من مصالح، ولأنَّها أيضاً لا تتصل بحركة الإنسان في الحياة فيما يريد للإنسان أن يتحرك فيه ويتعرف على برنامج حركته. وهذا ما أراد الإسلام أن يؤكد في أسلوبه التربوي على أساس أن الأسئلة التي ينبغي للإنسان أن يوجهها إلى الأنبياء أو العلماء، إما أن تكون من الأسئلة التي تتصل بمسؤوليته في حركته بما كلفه الله تعالى به، وإما أن تكون مما يتصل بمنافعه ومصالحه في الدنيا والآخرة. وأما الأسئلة التي يدفع إليها الفضول ولا تمتصل بمسؤوليته ومنافعه، فإنَّ الله تعالى نهاه أن يوجهها إلى الأنبياء والعلماء، لذلك قال سبحانه ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١). وهكذا كان من بين الأمور التي أثارها المشركون أمام النبي (ص)، هو السؤال عن موعد القيامة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

كانوا يوجهون السؤال إلى النبي (ص) وإلى المسلمين في محاولة للإرباك: إذا كنتم صادقين، وكان هناك يوم قيامة كما تقولون، فمن الطبيعي أن من يتحدث عن يوم القيامة أن يكون ملماً بتفاصيله، من ناحية ما يجري في القيامة، ومتى موعدها، وما

هي مساحتها، لأنه من غير المعقول أن يتحدث إنسان عن شيء يؤمن به ولا يعرف أن يحدد مواعده، فإياها المسلمون الذين يتحدثون عن يوم القيامة، متى هذا الوعد، كم سنة، كم يوماً، وفي أي تاريخ؟ أخبرونا عن ذلك إن كنتم صادقين، فإن لم نخبرونا عن ذلك، فهذا دليل على أنكم لا تملكون معرفة وعلم هذا الأمر، وبالتالي لا يمكننا أن نقول إنه حقيقة من الحقائق ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهم عندما يوجهون هذا السؤال للمسلمين، فإنهم يوجهونه بالذات للنبي (ص) كونه مصدر الدعوة والمعرفة. ويجيبهم (ص) بكل تواضع لله، لأنه ليس إنساناً عادياً يريد أن يستعرض عضلاته أمام الناس لكي يقتنعوا بموقعه الثقافي أو العلمي ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨) فهو (ص) لا يعلم الغيب إلا من خلال ما يعلمه الله من غيبه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦ - ٢٧). فليس له قدرة ذاتية في اكتشاف الغيب بطرقه الخاصة بعيداً عما يعطيه الله تعالى من قدرة في ذلك ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إني في وجودي وحركتي لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً، إن معلوماتي وحركتي بيده سبحانه، فأنا لا أعرض نفسي عليكم لأقدمها كشخصية غيبية ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠).

توقيت الأجل

فمسألة الوعد، وعد هلاك الإنسان والأمم، وموعد يوم القيامة، فهذا مما لا أملك معرفته ولا الطريق إليه إلا من خلال الله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أجل في وجودها الجماعي، أو في وجوداتها الفردية، وإن هذا الأجل محتوم عند الله تعالى فيما يعلمه من أسباب الموت والحياة ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إنه أجل محتوم سيأتي، أمّا كيف ومتى وأين، فهذا ما لم يوكل إليّ

علمه، وما فائدة معرفتكم بالوعد؟ فإذا كنتم في سؤالكم تحملون التحدي بأنه إذا كان هناك من يوم قيامة وعذاب، فليقرّب الله هذا الموعد، فإليكم الجواب ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاسًا﴾ أي في الليل وأنتم مسترخون مستقرون هانئون في نومكم ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وكأنّ رسول الله (ص) يقول لهم: ما هي الدواعي التي تدعوكم لاستعجال عذاب الله؟ إنّ عليكم أن تدخلوا في حوارٍ معي حول أسس الدعوة التي أدعوكم إليها، وحول طبيعة المفاهيم التي أقدمها إليكم، وأن تتفكروا وتتأملوا في كلّ ذلك، لا أن تواجهوا المسألة بمثل هذه الإستهانة وهذا التحدي السخيف، فالعاقل الذي يتوعده أحدٌ بعذابٍ أو ضررٍ ما، فإنه يعمل على أن يثير القضية في ذهنه كاحتمالٍ على الأقل، حتى يحسب الحسابات التي يتفادى من خلالها هذا العذاب أو الضرر، لا أن يواجه المسألة بالإستهزاء والسخرية، ولو قلت لكم: إنّ هذا العذاب يأتيكم ليلاً أو نهاراً، فعلى أيّ أساسٍ تستعجلونه؟ أتعرفون حجم هذا العذاب وطبيعته؟ ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أنتم تستعجلون الجواب عن ذلك، وتستعجلون مجيء العذاب، فإذا وقع العذاب، هل تؤمنون به؟ ﴿الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فعند وقوعه، كيف لكم أن تتفادوه؟

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ذوقوا العذاب الذي لا تحديد لمدته، وذلك بما اقترفتُم من ذنوب وتمردتُم على الله تعالى.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ وعن هذا الأمر، يواجهون النبي (ص) بسخريتهم واستهزائهم: أصبح ما تقول أم أنك تهزأ بنا؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أنتم تتحدثون بهذه الطريقة لتسخرُوا وتستكبرُوا، ولتصورُوا أنفسكم أنكم في الموقع الذي تستطيعون أن تواجهوا به هذا العذاب، أو أن تتخلصوا منه،

ولكن تأكدوا أنَّ هذا العذاب واقعٌ عليكم لا محالة، لأنَّه حقٌّ من الله، ولأنَّه قادرٌ على أن ينزله عليكم ولستم بمعجزين، فهو عندما يريد أن ينزل العذاب على أحد، فإنَّه لا قوة تستطيع أن تتفادى هذا العذاب من قريب أو بعيد مهما كانت تمتلك من وسائل.

ويبيِّن القرآن الكريم حالة الإنسان في مواجهة هذا العذاب وهوَّله وحجمه وعظمه، وما يقدِّمه ثمناً لدفع هذا العذاب ولتفاديه والابتعاد عنه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ فأسرَّوا الندامة في نفوسهم، وبدأوا يعيشون الألم النفسي العميق الذي يضجُّ في داخلهم من دون الإفصاح عن ذلك لأنَّهم في موقع الإرباك والإحباط. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ذلك أنَّ شعار يوم القيامة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٧) فيعاملون بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ﴾ لأنَّ الحساب في يوم القيامة يكون على قاعدة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧).

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنُّ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ
بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٥ - ٥٨).

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ

في الحياة حقيقة لا بد للمسلم المؤمن أن يعيشها في نفسه، وألا يغفل عنها، فلا تغيب عن ذهنه لحظة واحدة ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتوجه الخطاب القرآني للإنسان ليبعث في نفسه الشعور بعظمة الله: أنت تعيش في هذا الكون، وهذا الكون هو السموات التي تُطَلُّ عليك فيما وصل إليك علمه وفيما لم يصل، والأرض التي تتحرك فيها وتعيش. إذا نظرت إلى الكون وفكرت في كلِّ مواقع الإبداع والعظمة فيه، واستولى هذا الإبداع، وهذه العظمة على عقلك وقلبك من خلال عناصر القوة فيهما، قل ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الله وحده الذي يملكها، ووحده الذي يدبرها ويحرك ما أودع فيها من قوانين في دائرتها، ولذلك فإنها في تدبيره وتحت رعايته.

وإذا ما أدرك الإنسان أن السموات وما فيها والأرض وما فيها من إنسان وحيوان وجماذٍ مملوك لله، فكيف يمكن أن ينحني لما هو مملوك لله، ويأبى أن ينحني لله وحده؟ وقيمة هذه الحقيقة في تأثيرها على النفس أنها تملأ كل قلبه بالله، وتجعله يشعر بأن الله محيط بكل شيء، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله من خلاله، باعتبار أن ما من شيء إلا وهو مملوك لله، وما من نعمة إلا وهي من الله، وما من ذي قوة إلا ويستمد قوته من الله، وعلى هذا، كيف يمكن للإنسان أن يبتعد عن الله، ويلجأ إلى مخلوقات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً؟

مشكلة الكثيرين أنهم يخضعون لغير الله، فيما يجدونه عند هذا الغير من مظاهر قوة وسلطة وجاه، ولو أجرى الإنسان مقارنة بين الله وبين خلقه لأدرك أن لا قيمة لأي مخلوق أمام قوة الله ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ألا إن وعد الله حق ﴿فَاللَّهُ تَعَالَى عِنْدَمَا يَعِدُ، فوعده الحق، وسيلتقون ليقدم كلُّ منه حساباً إلى الله

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشكلة الناس هي الجهل والغفلة واستغراقهم في شهواتهم وأعمالهم، فينسون الله وكل ما يتصل به سبحانه، وينسون أنفسهم، والله حذرنا ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩) فخالق السموات والأرض وما فيهن ﴿هُوَ الْحَيُّ وَيُمِيتُ﴾ عندما يرى الإنسان نفسه، ويرى الحياة تضح فيه وفيمن حوله، ويرى كل شيء في هذا الكون يحيا ويموت، لا بد أن يدرك أن المحيي والمميت هو الله تعالى ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ فإذا كنتم تعرفون أنكم ستعودون إلى الله، فاعملوا على أن تجهزوا أنفسكم للقاءه، وادرسوا طبيعة اللقاء، هل تريدون أن تلتقوا به سبحانه وهو راضٍ عنكم ليدخلكم جنته، أو تلتقوا به وهو ساخطٌ عليكم ليدخلكم ناره؟ وفي ذلك فليفكر كل إنسان.

موعظة الرحمة

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ في القرآن موعظة من الله تعالى للناس، فأنزل إليهم أحسن الحديث الذي يفتح قلوبهم على مواقع المعرفة بالله، وعلى مواقع المسؤولية أمامه سبحانه، وعلى كل ما يفتح عقولهم على نعيم الله ورضوانه في الآخرة. ففي القرآن الكريم حديثٌ ينفذ إلى المشاعر، ويدخل مع نبضات القلب، ويعيش في كل أفاق الإنسان وأفكاره ليفتح قلبه على ربه، وليقرِّبه منه. فموعظة الله تعالى لهذا الإنسان، ليست كموعظة إنسانٍ لإنسانٍ آخر، فهو سبحانه ينزل كلماته على عبده ليخشاه ويطيعه، ويحثه لأن يفتح على مواقع الخير. وعندما تكون الموعظة من الله، فمعنى ذلك أنها تمثل الحقيقة والخير، فهو سبحانه الحق، وهو مصدر الخير في الأمور كلها، والاستماع لموعظة الله تدفع بالإنسان لأن يتقيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَدْهُلُ كُلُّ مَرْصِعةٍ عَمَّا

أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١ - ٢) فمواعظ الله تحرك القلوب والمشاعر والأحاسيس وتجعل الإنسان خائفاً مقام ربّه راجياً رحمته.

وفي موعظة الله للإنسان ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ شفاء لما في صدوركم من الأمراض الروحية والفكرية والنفسية. فالإنسان عندما يعيش في هذه الحياة ويرتبط بالمادة، فإنه يدخل في صراعات مع نفسه، ويعيش حالات من الشك، وأخرى من النشك والحقد والبغضاء والحسد، وقد يعيش الخوف والعقد النفسية التي تتحرك من خلال المشاكل الاجتماعية التي تحيط به في علاقاته مع الناس.. وما أكثر الأمراض والوساوس النفسية التي تحول حياة الإنسان الفكرية والعاطفية والشعورية إلى حياة معقدة. لذا، فإله تعالى أرسل نبيه بالقرآن ليعالج المشاكل الفكرية والروحية والنفسية والعملية، وهذا ما ندركه فيما لو قرأنا القرآن قراءة وعي وتدبر، فإننا نستطيع أن نكسب صحة روحية وفكرية تقينا شتى الأمراض، وتخفف عنا الآلام. فالقرآن الكريم يعالج لنا الداخل النفسي، حيث يحول هذا الداخل الذي يضج بالحيرة والشك والقلق وأحاسيس الضياع، إلى داخل يعيش الوضوح والاطمئنان ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾ (الفجر: ٢٧ - ٣٠).

وهكذا نجد أن القرآن عندما يفتح قلوبنا على المحبة، يفتحها على الخير والتسامح، فالجنة التي عرّضها السموات والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وهي للمؤمنين ﴿وَالكَافِرِينَ الْغِيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤). فالله سبحانه يفتح للإنسان أبواب الجنة إذا كظم

غِيْظَهُ وَعَفَا عَنِ النَّاسِ، وَيَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ إِذَا أَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ، وَبِذَلِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفِيَ نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ الْعَقْدِ الَّتِي يَحَاوِلُ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَى حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ النَّاسِ. وَهَكَذَا عِنْدَمَا يَعْفُو، وَيَكُونُ الْعَفْوُ أَقْرَبَ إِلَى التَّقْوَى، وَإِذَا أَحْسَنَ بِأَنْ الْأُمُورَ وَالْمَشَاكِلَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ، يَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ فَيَشْعُرُ بِالسَّكِينَةِ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ (التَّوْبَةُ: ٤٠) وَالسَّكِينَةُ هِيَ الطَّمَانِينَةُ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ١٧٣) فَيَشْعُرُ بِالْقُوَّةِ عِنْدَمَا يَرْتَبِطُ بِاللَّهِ وَيَفْتَحُ قَلْبَهُ عَلَيْهِ.

وهكذا إذا انطلقنا إلى معرفة معاني وإحياءات وإشارات القرآن، فإننا ندرك الحلول التي يطرحها القرآن، والتي من خلالها نحصل على الصحة النفسية حيث هي الأساس في الصحة الجسدية. إذاً، فلنفتح قلوبنا على معاني القرآن حتى نشفى من داء قلوبنا وعقولنا وجميع مناطق الشعور عندنا.

المهدي والرحمة

وهذا القرآن إلى جانب ما يمثله من موعظةٍ وشفاءٍ لما في الصدور أيضاً ﴿وَهَدَى﴾ لأنه يركّز لنا الصراط المستقيم في حياتنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٠) باستقامتهم عرفوا صراط الله ومعالم الطريق، فانفتحوا على هداه ورحمته بما يفتح قلوبهم على ألطافه ونعمه وإلائه ورضوانه ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فاضت رحمة الله على قلوبهم وعقولهم، وكُلَّ حياتهم، على أساس ما وعوه من مواظ القرآن، فكان ذلك دواءً يُزِيلُ كُلَّ أَمْرَاضِ الصَّدُورِ.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ إذا أردتم أن تفرحوا فافرحوا بما يدوم لكم، وبما تكون عاقبته خيراً لكم، وافرحوا بما يعطيكم الله من فضله، من نعمة التقوى والإيمان والهدى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ بما يقدقه عليكم من رحمته التي تتحسسون فيها عطفه ولطفه ورضاه ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لا يكن فرحكم كله بالمال الذي تجمعونه لأن ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) فافرحوا بما يدوم لا بما يزول.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ أَلِلَّهُ
 إِذَنْ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ* وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ* وَمَا تَكُونُ
 فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً
 إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
 السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ* أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا
 خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرَى فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٩-٦٤).

التشريع الإلهي وحده يحدّد الحلال والحرام

يعالج القرآن الكريم مسألة كانت تعيش في واقع المجتمع الذي نزل فيه القرآن، ويمكن أن تحدث هذه المسألة في أيّ عصر من العصور، وفي أيّ موقع من المواقع ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ أَلِلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ بعض الناس يُحَلِّلون ويحرّمون من خلال شهواتهم وأوضاعهم وتقاليدهم الخاصة، فيجعلون شيئاً حراماً وآخر حلالاً. فالقرآن الكريم يقول لهؤلاء إن الله أنزل لكم الرزق بكل أشكاله وألوانه وأباحه لكم وهياً لكم أن تأكلوه وتشربوه وتلبسوه حلالاً، ولكنكم وتحت ضغط أهوائكم والأوضاع التي حرّكتموها في حياتكم جعلتم بعض هذا الرزق حلالاً وبعضه حراماً، فمنعتم أنفسكم ومجتمعكم منه، في الوقت الذي ليس فيه أمر التشريع بأيديكم، وليس لكم أن تحلّلوا أو تحرّموا شيئاً على أساس مزاجكم، لأنّ الرزق رزق الله، وما يتصل به من حلال وحرام هو شأن الله، فالحرمة والحليّة في الرزق خاضعتان لما يُنْزِلُهُ الله من تشريع على نبيه (ص) في ذلك، وإذا قلتم بأنّ هذا حلال أو هذا حرام، ولم ينزل من الله فيهما حكم، فإنكم تفترون على الله الكذب، حيث تنسبون إليه سبحانه ما لم يقله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً﴾ حرّمتم بعضه ولم يحرمه الله، وحلّلتكم بعضه ولم يحلّه الله ﴿قُلْ أَلِلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ هل أذن الله لكم فيما شرّعتموه من التحليل والتحريم؟ ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فنسبتم إليه كذباً ما لم يشرّعه.

وهذه قاعدةٌ عامّةٌ في كلّ الواقع الإنسانيّ الذي يرتبط بالله سبحانه وتعالى، حيث أمرُ التحليل والتحريم بيد الله وليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله، ولا أن يحلّل ما حرّم الله. وعلى هذا الأساس نقول: إنّنا إذا جهلنا حكماً من الأحكام، ولا نعرف طبيعته،

حلالٌ هو أم حرام، لا بدُّ أن نعود إلى الحجّة التي تبين لنا ماهيته، وإذا لم تقم هذه الحجّة لا من آية قرآنية، ولا من سنة صحيحة، ولا من فتوى عالمٍ تُقبل فتواه باعتبار أن رأيه كاشفٌ عن رأي الشريعة، علينا أن نتوقف في إصدار حكم على أيِّ أمرٍ من الأمور حتى تظهر الحجّة التي تبين طبيعته. هذه نقطة. والنقطة الثانية، أن البشر لا يملكون أمر التشريع، وهذه القوانين الوضعيّة التي تسنّها الحكومات التي لا تستوحي القرآن ولا السنّة في وضعها، هي قوانين لا تنسجم مع الخطّ الإسلاميّ، فالتشريع هو لله سبحانه.

عاقبة الكذب على الله

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ماذا يظنُّ هؤلاء الذين يكذبون على الله، فينسبون إليه أحكاماً لم يشرّعها، ما ظنُّهم يوم القيامة، وكيف يكون مصيرهم ونتائج أعمالهم؟ ليس لهم إلا أن ينالوا عقابه وغضبه وسخطه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إنَّ على هؤلاء أن يفهموا أن الله تعالى تفضّل عليهم بنعمه، وأراد منهم أن يشكروه بالطاعة والإلتزام بالحدود، ولكنَّ مشكلتهم أنَّهم لا يلتزمون ولا يشكرون. وشكر الله ليس مجرد كلمة تُقال، ولكنها تعبيرٌ عن الإلتزام بحدود الله وأحكامه، والإلتزام بطاعته وبالصدق.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ إنَّ عليكم أن تعرفوا موقع ربكم وسعة علمه، لتعرفوا أنَّكم لن تستطيعوا أن تفلتوا من رقابته سبحانه في أيِّ موقعٍ من مواقعكم، أو تفرّوا في أيِّ مجالٍ من مجالاتكم.

يريد منا القرآن أن نعي هذه الحقيقة الإلهية، وهي شهادة الله تعالى علينا، فهو سبحانه لا يغيب عنه شيء من أمورنا، سواء كانت خفية أم ظاهرة، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ تدخلون في هذا العمل أو المشروع أو الشأن، خفياً كان أم ظاهراً ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ يعلم أصغر الأشياء ولو كانت أقل من ذرة، وأكبر الأشياء ولو كانت بحجم الكون ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وكل ذلك في علم الله تعالى.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مَنْ هم أولياء الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هؤلاء الذين التزموا ولاية الله ومحبه وخطه، فجعلوه سبحانه وليهم، وجحدوا ولاية الطاغوت، فنصروا الله، ونصروا دينه، والتزموا أحكامه، وهذا معنى التقوى، فهؤلاء ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنهم عاشوا حياتهم في طاعة الله، فاستحقوا بذلك البشارة في الدنيا، وفي الآخرة ينطلقون انطلاقاً الإنسان المؤمن الذي يعيش في أمان الله ورعايته وحفظه، فهم يعيشون السرور كله، لأنهم يعيشون الطمأنينة والرضا والانفتاح على ثواب الله من خلال أعمالهم، ولن يبدل الله كلماته فيما يريد أن يسر به عباده بنيلهم للفوز العظيم.

﴿وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قَوْلِهِمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْقُضْهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلَحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٥ - ٧٠).

حصانة الانتماء للحق والعزة

كان المشركون وكما ذكرنا في الأبحاث السابقة يواجهون النبي (ص) بمختلف المواقف التي تتضمن السخرية منه، والإستهزاء برسالته، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين.. وهذا أسلوب يتبعه كل الذين يقفون في مواجهة الرسالات، وفي وجه الإصلاح والمصلحين، وهو نوع من أنواع الحرب النفسية التي يُراد منها إذلال الشخصية الرسالية، وتشويه وتحطيم صورتها ليسقط الإنسان الرسالي من دون معركة. ولهذا فإن الله تعالى أراد ومن خلال القرآن وفي أكثر من آية الإيحاء للنبي، ولكل من يسير في خط الرسالات ألا يحزن وألا يسقط أمام هذه الأساليب والكلمات كونها لا تمثل الحقيقة ولا العمق في واقع الحياة ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ على الإنسان الداعية عندما يواجه كلمات السوء واتهامات الكفر، وأساليب الإستكبار التي تُوجَّه إليه لتُذلل نفسه وموقعه، أن يقارن بين موقعه وموقع الآخرين، وانتماءه وانتماء غيره، ليدرك بأنه إنسان ينتمي إلى الله ينطلق من موقع الحق في الحياة، أما الآخرون فإنهم لا يمثلون الحقيقة في مواقعهم، لأنها مواقع الباطل والأوهام الكاذبة، وبالتالي فإنهم ينتمون إلى الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦). فانتفاء المؤمن إلى الله إنتماء إلى العزة كلها ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً من القوة الذاتية، ولا من العزة الحقيقية ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ إنك رسول الله والداعي إليه، يعطيك من قوته ومن عزته، لأن كل قوة وكل عزة هي له ومنه.. أما هم فإنهم الأذلاء في أنفسهم، وفيمن يتبعونهم ويطيعونهم ويتحركون معهم. ولذا، فإن الإنسان المؤمن عندما يشعر أنه في موقع العزة من الله، عليه ألا يحزن مهما حاولوا النيل منه، وسخروا بمواقفهم وكلماتهم وتحدياتهم، لأن الله من ورائه يسدده ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون، ويعلم ما يخططون، ويعرف كيف يواجه ذلك بما يؤيد به رساله.

وكما الخطاب موجّه إلى رسول الله (ص)، هو موجّه في الوقت ذاته إلى كلّ مَنْ يتّبع الرسول، ويلاقي ما لاقاه الرسول من كلّ الأساليب الساخرة والسلبية، بالأحرى يحزن وينألم، وأن يبقى في موقع العزّة بالله، حيث يواجه المتمرّدين والمنحرفين والكافرين بقوة الإيمان والموقف والانتماء، وبكلّ العزّة المرتبطة بالله سبحانه.

كُلُّ خَاضِعٌ لِقُوَّتِهِ

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ماذا يملك هؤلاء - يا محمد - الذين يتحدّونك بكلامهم، أو يتحدّونكم أيّها المؤمنون الدعاة إلى الله بأساليبهم؟ ماذا يملكون أمام ما يملك الله ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كلّ مَنْ وما في السموات والأرض حتى هؤلاء المنكرون هم ملّك الله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، ويتّبعون مَنْ يرون فيهم بعض القوة، ويعتبرونهم شركاء لله يتقاسمون معه القوة، فيخضعون لهم ويطيعونهم، هؤلاء ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ لا يتّبعون اليقين والعلم، بل يتّبعون الأوهام التي لا تصل إلى الحقيقة ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ هم يخمنون الحقائق تخميناً، من دون أساس أو قاعدة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ تعيشون في هذا الكون ويطبّق الليل عليكم فتسترخي أعصابكم، ويغمركم الظلام ليعطيكم شيئاً من السكينة وهدوء الأعصاب، فتنامون لتحصلوا على راحة النوم التي تجدد لكم نشاطكم، ثم يأتيكم النهار وهو مفتوح العينين ليدلّكم على ما تريدون. فهل من شركائكم من يملك أن يمحو الليل والنهار، أو أن يخلق مثلهما إذا أزالهما الله سبحانه؟ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ويركّز القرآن على مسألة السمع، حيث يريد الله سبحانه للإنسان أن يسمع الكلمات التي تُلقَى إليه، ليتأمّلها، وليميّز

بين كلمة الحق وكلمة الباطل، وليفكر في معاني الكلمات وإحياءاتها حتى يستطيع أن يصل إلى الحقيقة من خلال ذلك.

تصورات لا تثبت أمام النقد

وتتناول الآيات التالية فكرةً واهيةً عاشت في أذهان الكثيرين على مدى العصور، مفادها أن الملائكة بنات الله، وأن عَزِيراً (ع) ابن الله، وكذلك عيسى (ع)، وربما نشأت هذه التخيُّلات والعقائد من أن هؤلاء أرفع من صورة البشر، إمّا لأنَّهم يمثلون مخلوقات غيبية، وإمّا لأنَّ الناس جعلوا لهم بعض الخصائص غير الواقعية بسبب ما أجرى الله على أيديهم من معجزات. ولهذا فإنَّهم تصوَّروا أن الذي يقوم بالمعجزة بما أعطاه الله من قدرة خارقة فوق قدرة البشر، لا بدُّ أن يكون بينه وبين الله تعالى علاقة قرابة ونسب ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لذلك فهم ينظرون إلى مسألة الولد إنطلاقاً من الإحساس بالحاجة، حيث يشعر الإنسان بحاجته إلى ولدٍ ليعينه، وليكون امتداداً له ولوجوده من بعده. هذه وجهة نظر النَّاس إلى المسألة، أما الله تعالى، فما حاجته إلى الولد؟ ليس سبحانه محتاجاً إلى أحد، يخلق الدنيا بكلمة ويُزيلها بكلمة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، وهو سبحانه ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر: ١٦ - ١٧). فإذا كان الله غنياً بذاته عن الحاجة إلى أحد، فلماذا يتخذ لنفسه ولداً يميِّزه عن بقية المخلوقات؟ ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هو تعالى مَنْ يملك السموات والأرض، والغنيُّ عما فيهنَّ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ إِنَّ مَنْ يؤمن بعقيدة ما، لا بدُّ له من حجة يؤكد فيها صواب ما يؤمن به، وأنتم تعتبرون أن لله ولداً، فما حجَّتكم ودليلكم على ذلك؟ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ اتنسبون إلى الله تعالى شيئاً لا تملكون الأساس العلمي فيه؟

والقاعدة التي يركّزها القرآن الكريم كخطّ في عملية الإنتماء والإعتقاد والإيمان، هي ألا يؤمن الإنسان بأمرٍ ما إذا لم يكن له حجة وبرهانٌ على ذلك الإيمان، حتى يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال. فالخيال هو مجردّ تصورات لا تثبت أمام النقد، لأنّها لا ترتكز على حجة، أما الحقيقة فهي تنطلق من حجة وبرهان ودليل، ولذلك كان الشعار القرآني لكلّ الناس الذين يخالفون القرآن في حقائقه وعقائده ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)، وعلى هذا ﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء الذين ينسبون إلى الله ما ليس عنده يفترون كذباً على الله لأنّه سبحانه لم يقل ذلك في قرآنه، وهؤلاء مهما حاولوا أن يحققوا لأنفسهم الفلاح والنجاح، فإنّهم لن يحصلوا على شيء لأنهم يقفون موقف التمرّد على الله ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يستمتعون في الدنيا وينهلون من خيراتها وينالون من أطايبها، ولكن إلى حين، حيث يعودون إلى الله للحساب ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فينالون العذاب القاسي لما جنّته أيديهم من شرك وانحراف وكفر وتمرّد.

وإلى هنا نأتي إلى ختام الفصل الأول من سورة يونس حيث تتضمن المفاهيم والخطوط الفكرية والشرعية في مقابل خطوط الكفر والتمرّد والتجرؤ على الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي
وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ
أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ
أَجْرِ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ
وَمَنْ مَعَهُ فِي الْقُلُوكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خِلَافًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ* ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْلُعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُتَكَبِّرِينَ* ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ* فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ
هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ* قَالَ مُوسَى اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تُلَاقُونَهُ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا
يُقْلِحُ السَّاحِرُونَ* قَالُوا اجْعَلْنَا لِنُلَاقِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ إِبَاعَنَا وَنَكُونَ لَكُمْ
الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ* وَقَالَ فِرْعَوْنُ اانْتَوْنِي بِكُلِّ
سَاحِرٍ عَلِيمٍ* فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ* فَلَمَّا
أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
الْمُفْسِدِينَ* وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ* فَمَا آمَنَ لِمُوسَى
إِلَّا ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ* وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ
بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ* فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٧١) .

النبوة الفاعلة

نتوقف الآن عند الفصل الثاني من سورة يونس الذي هو بمثابة جولة تاريخية في حركة الأنبياء (ع)، ونبدأ من النبوة الأولى الفاعلة والمتحركة، وهي نبوة نوح (ع) الذي أرسله الله إلى قومه الذين دخلوا معه في صراع انتهى بالطوفان ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ يطلب الله تعالى من رسول الله (ص) أن يتلو على الناس نبأ نوح، وأن يحدثهم عن أسلوبه في مواجهة التحديات، وليأخذوا الدروس التي تحمل الإيجابيات ويتفادوا السلبيات ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أمرهم بالتقوى وعبادة الواحد الجبار، وأثار معهم المفاهيم التي كُف من الله بنشرها والدعوة إليها، ولكن لم يستمعوا إليه، وبقي على موقفه في الدعوة ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إذا كنتم تعتبرون حركتي في الحديث عن آيات الله، ومقامي بينكم، يشكل لكم حدثاً خطيراً وإزعاجاً كبيراً، وأردتم البقاء ضدي في خطّ التحدي والصراع ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فأنا مستمر في دعوتي متكلاً على الله في ذلك، ولن أضعف بسبب مواقفكم المعقّدة والمتشجّعة والمتمردة ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ جهّزوا قدراتكم وطاقاتكم، وجنّدوا شركاءكم من أصنام حجرية وبشرية ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ فلا يكن مشروعكم شيئاً غامضاً ومغلقاً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾ واجهوني ولا تعطوني أية فرصة أو مهلة، واعملوا ما تريدون ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فلم تقبلوا مني دعوتي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فقد لبثت فيكم ألف سنة إلا خمسين ولا أريد منكم أجراً أو منصباً أو عزاً وجاهاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأجري من الله تعالى الذي أمرني أن أكون واحداً من المسلمين، ومن المجتمع الذي يُسلم أمره لله تعالى.

وهنا نقول لكلّ الدعاة إلى الله والعاملين والمجاهدين في سبيله والمتزمين بخطه،

أن يعوا جيداً تاريخ نوح (ع) ليكسبوا من هذا التاريخ شحنة قوية تدعم كل إمكانات الصبر في حياتهم ومواقفهم، وليدركوا قوة الثبات على الموقف والدعوة إلى الله مهما اتخذ الجاحدون والمنكرون مواقف سلبية منهم، فهذا نوح (ع) يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ٥ - ١٠)، كل هذه الدعوة التي استمرت ألف سنة إلا خمسين لم تجد معهم نفعاً، وفي نهاية المطاف دعا ربه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦ - ٢٧)، تقرير نهائي في نهاية الدعوة إلى الله في عالم الدنيا، يقدمه نوح (ع) بعد أن استنفذ كل سني عمره وجهده وطاقاته في هذا السبيل، فأى صبر هو صبره؟ وأي ثبات ثباته؟ وهذه هي الروح التي يجب أن يعيشها المؤمن الرسالي حتى لا يسقط أمام حالات التحدي التي يعلنها الآخرون من القوى الكافرة والمستكبرة. ولا بد من ملاحظة مسألة مهمة في هذا المجال تتعلق بمسألة تواضع القيادة، فالنبي يعتبر نفسه واحداً من هؤلاء المسلمين لا يعلو ولا يتكبر عليهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هؤلاء الذين آمنوا بالله، ومن هذا المجتمع الذي يسلم أمره لله. وهذه نقطة يجب أن يفهمها كل القادة، من علماء ومسؤولين في أي خط من خطوط المسؤولية الإسلامية تستوجب على الواحد منهم، ومهما بلغت درجة مسؤوليته، ألا يشعر بالفوقية على الناس، وألا تنتفخ شخصيته مجرد أنه يملك مسؤولية، بل عليه أن يتواضع لله وللناس، وهذا هو توجيه الله تعالى لرسوله (ص) ﴿وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء - ٢١٥).

إذاً بعد أن قدم نوح (ع) كل الحجج الواضحات لقومه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ومكافأة لنوح ومن آمن معه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ فهؤلاء ورثوا الجيل الأول من البشرية بعد أن أنجاهم الله من الغرق، وصنعوا الجيل الثاني في عملية إنتاج البشرية من جديد ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فماتوا غرقاً بعد أن أنذرهم الأنبياء الذين لم يستجيبوا لدعوتهم.

وتتتابع المسيرة

وبعد عصر نوح (ع) ولدَ الجيل الثاني من البشرية، وهذا الجيل يحتاج بطبيعة الحال إلى أنبياء ومبشرين ومصلحين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ فأرسل الله بعد نوح (ع) رسلاً إلى الجيل الذي ولد بعد الطوفان وشكل المجتمع الجديد ﴿فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فالظروف التي هيأت للتمرد سابقاً، هي الظروف التي هيأت للتمرد لاحقاً، لأن القوم كانوا يعيشون التخلف في عقلياتهم، والعصبية فيما يرثونه عن آبائهم، فكانوا يحتقرون المصلحين والأنبياء الذين يرسلهم الله إليهم، ويميلون إلى من بأيديهم المال والجاه والقوة، ويرفضون البيّنات والحقائق الإيمانية ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ فبعد أن عملوا على إغلاق قلوبهم عن الحق، يأتي أمر الله بإغلاقها، لأن الله لا يخلق عقل وقلب الإنسان عن التفكير والحقائق إلا بعد أن يختار هذا الإنسان ذلك بنفسه، أو يقوم بما يستوجب أن يعاقبه الله عليه.

تجربة نبوية جديدة

وتبقى مسيرة النبوة قائمة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ وجاء دور موسى ومعه هارون الذي كان دوره دور المساعد

﴿وَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْوَاجاً وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيراً وَتَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ (طه: ٢٩ - ٣٤)، ويأتیان إلى فرعون بآيات الله ليؤمن وقومه بالحق وبما أمر به الله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ مَنْ هُوَ مُوسَى حتّى نتنازل له عن معتقداتنا وجاهنا ومواقفنا التي نحن فيها؟ قالوا ذلك بكلّ علوّ واستكبار ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ لم يكونوا منفتحين على الحق، أو مستعدين للحوار والمناقشة، بل كانوا من القوم الذين عاشت الجريمة في عقولهم من خلال ما كانوا يتخذونه من مواقف استكبارية. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فعندما أخرج يده فإذا هي بيضاء، وألقى العصا فإذا هي ثعبان، اعتبروا أن هذا نوع من أنواع السحر الخادع ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يحدثهم موسى (ع) بالمنطق كأبي رسول يحاول أن يدخل إلى عقول الناس، وهذا هو سبيل أصحاب الدعوات الرسالية في أيّ موقع من المواقع. فالإنسان الرساليّ يعمل على أن يخاطب عقول الناس بالمنطق الذي يستطيع من خلاله أن يحصل على قناعاتهم في الأمور التي يطرحها عليهم. ولذلك فإنّ موسى (ع) لم يتشجّع ولم يتعقّد عندما قدّم لهم الآيات البينات و﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فكأنه أجابهم، بأنّ هناك فرقاً بين السحر وبين الحق، فالسحر تلاعبٌ على عيون الناس، فلا حقيقة ولا واقع ولا تأثير له، أمّا ما جنّتم به فهو الحق، وله جذوره العميقة في طبيعة الحياة والأشياء ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ أقدم لكم براهين وحججاً على صحة ما أتيتكم به، لتفكروا وتقتنعوا، ولتدخلوا في حوارٍ معي للوصول إلى الحقيقة، وتعتبرون كلّ ذلك سحراً؟ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ قد يحصل الساحر في لحظة غفلة الناس وجهلهم على إعجابهم وخضوعهم ودهشتهم، وكونه يتحرّك من موقع اللاشيء، ومن المواقع المغايرة للحق، فإنّ أمره سيكتشف ولن يُفلح أبداً، وذلك بعد أن يعرف الناس

زيفه، وأنَّ ما يقوم به مجرد خدعه للواقع وللعقول والعيون. أما الحق فإنه على طرفي نقيض مع السحر، لأنه يمثل الأمر الثابت في عمق الحياة وفي عقول الذين ينفثون عليه.

عقلانية وهدوء الخطاب النبوي

ونلاحظ في ردِّ موسى (ع) هدوء الأنبياء في منطقتهم وخطابهم (ع) عندما يرفض الناس دعوتهم لا يعتبرون أنَّ ذاتياتهم مُسَّت فيثأرون لذلك ، وإنَّما يعتبرون أنَّ لهم دوراً ورسالة، عليهم أن يتحمَّلوا كُلَّ شيءٍ لنجاحهما، وإنَّ يجمدوا انفعالاتهم وعواطفهم في سبيلهما، وأن يكون الأسلوب الهادئ أساساً في الحركة حتى في الحالات التي تسود فيها أساليب السُّباب والشتائم والإتهامات والبغضاء.

وعلينا أن نتعلَّم ذلك كرساليين نؤمن بالإسلام، لنفتح عقول وقلوب الناس على الحق، وأن نكون هادئين عندما تكون المسألة مسألة دعوة إلى الله، وحوار في سبيل الله، بعيداً عن التشنُّج حتى لا يتصيد الفريق الآخر مواقع ضعفنا ويسقطنا من خلال ذلك.

وبعد ردِّ موسى (ع) الهادئ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا لموسى (ع) ولهارون، لماذا جئتمونا؟ هل تريدان إخراجنا عن قناعاتنا بما وجدنا عليه آبائنا؟ أنتما لم تأتيا لهداية الناس، بل من أجل الحصول على الكبرياء والزعامة والسلطة والعلو في الأرض، ولذا نحن غير مستعدين بما تطرحان، فلدينا زعامتنا وسلطاننا، ربُّكم الله، أما ربُّنا فهو فرعون الذي نعبد. هذا هو منطق الضعفاء الذين لا يملكون الحجة والبرهان فيما يقولون ويعتقدون.

أما فرعون الذي يخضعون له، فهو صاحب السلطة والقوة، وقد وظَّفَ السحر والسحرة لخدمة سلطانه في مجتمع جاهل متخلف ومستضعف، وكان السحرة فريق فرعون، حيث أعطاهم كل الإمتيازات، وما يريدون من المال ليبقوا القوة الإحتياطية التي يمكن أن يُواجه بها أي موقع من مواقع المجتمع يمكن أن ينتفض ويشور في وجهه على اعتبار أن السحرة يملكون مفاتيح الاسرار، ومفاتيح معرفة الجن والملائكة والسمع وما إلى ذلك. ومن هنا فإنه حاول أن يُلقي التحدي لموسى (ع) من خلال السحر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وأتوا من كل حذب وصوب ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وقف (ع) موقف الواصل الذي يعتبر أن الله تعالى معه، وأنه سوف ينتصر، وطلب منهم أن يُلقوا ما بأيديهم ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا﴾ الحبال والعصي تحولت في أعين الناس إلى ثعابين بطريقة سحرية لا تخضع للحقيقة أبداً ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦)، لذلك فإنه (ع) أراد كشفهم في أنفسهم وعند الناس ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنتم لا تحركون قدرتكم وخبرتكم في سبيل الخير والحق، وإنما تحركونها لخدمة فرعون والمفسدين، وسيبطل الله سحركم وخداكم ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فالله تعالى سيثبت الحق بكلماته التي سينزلها على رسله بإرادته ولو كره الضالون والمجرمون ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ونتيجة إبطال الله تعالى لسحر السحرة وهزيمتهم مع فرعون وانتصار موسى، أمنت فئة من قوم فرعون ولكن ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ ومع القوة المسددة من الله والتي أظهرها موسى (ع) خاف الناس أن يؤمنوا بدعوته هرباً من بطش فرعون وجماعته، وحتى الذين آمنوا معه، آمنوا وهم

على حذر وخوف من أن ينال منهم الطاغية ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ فيسجنهم ويضطهدهم ﴿وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعيش العلوّ والإستكبار والغطرسة، فيستضعف الناس ويجعلهم في الدرجة السفلى من الحياة التي يعيشونها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذي يتجاوزون الحدّ في طغيانهم واستكبارهم.

وفي مواجهة خوف الناس من فرعون شدّ من عزائمهم ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ لأنكم اعتقدتم أن الله وحده يحيى ويميت، وأنّ الأمر كلّ بيده، وفرعون لا يمثل شيئاً أمام قدرة الله، انطلقوا من هذه الحقائق لتجعلوها عنصراً قوّة في قلوبكم وعقولكم، ولا تلتفتوا إلى التهديدات وما يمكن أن يواجهكم من مهمات وملمات.

وهنا نتمثّل هؤلاء الذين دخلوا في الإيمان، رغم الضغط والعنف ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من خلال ما تبليهم بنا لتفتنهم بذلك فتختبر طريقتهم في مواجهة الإيمان والمؤمنين ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ حيث لا نطيق الإستمرار تحت ضغط هذه القوة الكافرة التي قد تستغلّ بعض نقاط ضعفنا فتبعدنا عنك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أَلَا نَ وَقدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٨٧ - ٩٢).

بشارة النصر

في الفصل السابق من قصة موسى (ع) من خلال سورة يونس رأيناه (ع) كيف واجه فرعون بأسلوب إفشال مخططات السحرة الذين وضعهم فرعون في مواجهته، ورأينا كيف انتصر (ع) على فرعون، وأمن جماعة بالله نتيجة ما رأوا من آيات الله على يدي موسى، ولكن هذا الانتصار لم يكن كاملاً، لأن فرعون بقي في ملكه، والذين اتبعوا موسى ظلوا خائفين من سطوة الحاكم الظالم وصولاً القوة الظالمية، كي لا يفتنهم ويرجعهم إلى ضلالهم القديم، وكان على موسى (ع) أن يبعث في نفوسهم القوة حتى يثبتوا على الحق، وذلك فيما أرادهم أن يبقوا متكئين على الله تعالى متضرعين إليه أن ينجيهم من القوم الكافرين.

ويبدأ موسى (ع) وبأمر من الله مرحلة جديدة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أوحى الله إلى موسى وأخيه وهما في موقع القيادة، أن يقيما موقعاً للقوة في ساحة المؤمنين، ليكون لهم منطقة يعيشون فيها بحرية ويدافعون عن أنفسهم إذا ما أراد فرعون مهاجمتهم والقضاء عليهم، خصوصاً وأن المعركة ما تزال مفتوحة بين موسى وأخيه والمؤمنين من جهة، وبين فرعون والذين معه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ إعمالاً على أن تجدا لقومكما في مصر موقع إقامة واستقرار، بأن تبنيا وبالتعاون معهم بيوتاً للحماية ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ وفي هذه وجهان من التفسير:

الأول: إجعلوا بيوتكم مساجد تُصلُّون فيها باعتبار أن القبلة هي وجهة الصلاة، ولأنهم كانوا يخشون من فرعون إذا صلُّوا، فكانه يقول لهم، صلُّوا في بيوتكم، واجعلوها مساجد، إذا لم تستطيعوا أن تقيموها بشكلٍ رسميٍّ وعلنيٍّ، لأن فرعون إذا رآها سوف يهدمها. هذا تفسير.

الثاني: ﴿وَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوها في الواجهة، وليست على شكل متناثر، بحيث إذا أراد العدو مهاجمتكم، فإنكم قادرون من خلال الموقع المتقدم أن تدافعوا عن أنفسكم، خصوصاً وأن العدو في هذه الحالة لن يستطيع الالتفاف عليكم. هذا التفسير نتبناه نحن، لأن الآية ليست في مقام بيان المساجد، بل اجعلوا البيوت قِبْلَةً، أي واجهةً تصدّون هجمات الأعداء وتمكّنكم من الدفاع عن أنفسكم، تماماً كما تكون القبلة في واجهة المصلي. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي المظهر الحي لعبودية الإنسان أمام ربه، ولخشوعه بين يديه وانقياده له ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أعطهم البشارة يا موسى على إيمانهم، لأن الله سبحانه سوف يهيئ لهم بعد العسر يسراً في الدنيا، وسوف يهيئ لهم بعد الغربة داراً في الآخرة، هي الجنة.

ميزان القوس والحسابات الإلهية

ويلاحظ موسى (ع) أن ميزان القوة بينه وبين فرعون غير متوازن، وأن طبيعة وجود القوة الإقتصادية والعسكرية عند الأعداء قد يشكل عنصراً ضاعطاً على المستضعفين، لأنهم يعيشون الضعف في اقتصادهم وأمنهم ومواقعهم الإجتماعية، ومن الطبيعي حينها، وفيما إذا رأوا مظاهر القوة عند الأعداء فإنهم قد يسقطون، وقد يستطيع الأقوياء أن يبعدهم عن دينهم ويضغطوا على نفسياتهم، لذلك فإنه (ع) دعا ربه معبراً عن قلقه أمام الواقع غير المتوازن بين المؤمنين وبين فرعون وجماعته ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ كان فرعون يتباهى بكل ما يقع تحت سلطته، يعتزُّ بمُلك مصر، وبكل تلك القوة، من مالٍ وأملاك، وذلك افتخاراً بالموقع المتقدم والموقع الأعلى الذي اتخذ لنفسه من باب أنه في موقع الربوبية ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ

سَبِيلِكَ ﴿ فَإِنْ أُعْطِيتَ يَا رَبِّ، فَرِعُونَ وَجَمَاعَتَهُ هَذِهِ الزَّيْنَةُ وَالْقُوَّةُ بِكُلِّ عُنَاصِرِهِمَا وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَضَلَالٍ، فَإِنَّهُمْ سَيَسْتَخْدِمُونَ ذَلِكَ لِإِضْلَالِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَإِسْقَاطِهِمْ وَإِبْعَادِهِمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أَخْفَهَا بِقُدْرَتِكَ يَا رَبِّ عَنْ الْوُجُودِ ﴿ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ ﴾ اضْغَطْ عَلَيْهَا وَحَاصِرْهَا بِالْخَوْفِ وَالْحَزَنِ ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أَرَهُمُ الْعَذَابَ، حَتَّى إِذَا مَا رَأَوْهُ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَوَاجِهُونَ الْحَقَائِقَ، وَعِنْدَ ذَلِكَ سَيُؤْمِنُونَ.

وجاء الخطاب من الله لموسى وأخيه ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ صدر الأمر الإلهي - يا موسى ويا هارون - بإزالة مُلْكِ فِرْعَوْنَ، والتنفيذ يحتاج إلى صبر ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ إبقيا على خطِّ الإِسْتِقَامَةِ ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا تخافا من فِرْعَوْنَ وَجَمَاعَتِهِ وَلَا تَخْضَعَا لَضُغُوطِهِمْ، فهذا الليل لا بدُّ له من آخر، وسيُشرقُ الفجرُ بإذن الله.

وفتح الله تعالى لموسى وقومه طريقاً في البحر - وسُمِّيَ نهر النيل في القرآن بالبحر - تَخَلَّصَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَظَلَمِهِ، حيث لاحقهم خوفاً من أن ينتقل موسى (ع) مع هؤلاء المؤمنين إلى منطقة بعيدة عن سيطرته فتحصل لهم القوة التي تهدد وجوده، واندفع وراءهم ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ﴾ وَحَقَّقَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى مَا أَرَادَ فَأَنْزَلَ الْعَذَابَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ لِكَيْ يُؤْمِنُوا ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وعندما شاهد فِرْعَوْنَ عِظَمَةَ اللهِ مِنْ خِلَالِ مَا فَتَحَهُ اللهُ مِنْ طَرِيقٍ فِي الْبَحْرِ لِمُوسَى، عَادَتِ الْمَيَاهُ لِتَغْمَرَ طَرِيقَ الْيَابِسَةِ فَتَغْرَقُهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَأَدْرَكَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَظْهَرَتْهَا قُدْرَةُ اللهِ ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أسلم عندها أمره لله. ولكن ما قيمة

أن يؤمن وقد عاين الآخرة، وما قيمة أن يتوب وقد مرّت الفرصة التي أُعطيت له في الحياة؟ ﴿أَلَا لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومع كُلِّ عصيانك وفسادك، ولأنك «تُبَّتْ» ستنجي جسدك من الغرق، وسيطفو على الماء، ليرى الناس ذلّ مَنْ قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤). وكيف تحوّل هذا «الربُّ» إلى جيفة نتنة لا يطيق الناس رؤيتها ورائحتها ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لكي يعتبر ويتعظ من يسير على خطّك، وليدرك كيف تكون نهاية الطّاغين، الذين يعتبرون أنفسهم آلهة، ويبغون على عباد الله المستضعفين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لأنّهم يعيشون الغفلة، ولا يلتفتون إلى آيات الله التي تكشف لهم الحقائق وتهديهم إلى سواء السبيل.

«وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٣ - ٩٨﴾».

يقظة النوازع الذاتية

بعد أن حدثنا القرآن الكريم عن المواجهة بين موسى (ع) وبين فرعون وملاه، وكيف انتهت بهزيمة فرعون، يعود ليحدثنا عن واقع جديد، وفى الله تعالى فيه للمستضعفين من بني إسرائيل، فأنزلهم منزل صدق ليستقيموا على خط الهداية، وليلتزموا بالرسالة في علاقاتهم فيما بينهم، وفي انفتاحهم على ما أراده الله لهم في تبليغ ما أنزله الله على موسى من آيات بيّنات.. ولكن بني إسرائيل كغيرهم من كثير من الناس الذين يعيشون مشكلة صعبة، فيلجأون إلى الله لحل مشكلتهم، وبعد أن يخرجوا بقدرة الله مما هم فيه من آلام وهموم ومصاعب، ويعيشوا حالة الأمن والطمأنينة، تبدأ حالة الضعف والإسترخاء والوهن فيعيشون لقضاياهم الخاصة بعيداً عن القضايا المصيرية والعامّة. ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أنجاهم من فرعون وعاشوا حياة متوازنة، وبعد أن نزلت فيهم التوراة، بدأوا يعيشون حالة الاختلاف، لأن نوازعهم الذاتية قد استيقظت في داخلهم، وعصبياتهم الخاصة تحركت في مجتمعاتهم، فبدلاً من أن ينسجموا مع الرسالة ودعوة كليم الله موسى، ويحولوا العلم إلى عمل، جعلوا من كل ذلك العلم مادة للاختلاف، بدل أن يجعلوه مادة للاتفاق.

ويوضح لنا القرآن أن حركتهم في هذا الاختلاف بإسم العلم حركة غير مستقيمة، وغير مرضي عنها من الله، حيث سيقضي سبحانه بينهم يوم القيامة فيما تنازعوا واختلفوا فيه ليعرفهم أنهم لم يختلفوا من موقع إخلاص، بل من موقع بغى وحسد.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ﴾ جعلناهم في مواقع الصدق ومنازله، فصدقهم الله وعده وهياً لهم حركة الصدق في حياتهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

وسَّعَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ضَيْقٍ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ طَوْلٍ فَقَرَّ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فَاخْتَلَفُوا كَالكَثِيرِينَ الَّذِينَ لَا يَحْرُكُونَ الْعِلْمَ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، بَلْ فِي طَرِيقِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ.

الشكُّ من دون حجة

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هذا هو القصص الحقُّ الذي أنزله الله عليك يا محمد، وإذا أردت دليلاً على صحة ذلك فيما لو حدث الشكُّ في نفسك، فعد إلى التوراة التي بين أيدي اليهود. ومن الطبيعي أن رسول الله (ص) لا يمكن أن يشكَّ فيما أنزله الله عليه، لأنَّه يعرف أنَّه وحيٌّ منه سبحانه ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر: ٣٣). ولكنَّ القرآن الكريم وفي أسلوبه العلميِّ الموضوعيِّ، يتحدث عن ذلك كأسلوب من أساليب الحديث عن أيِّ شخص من الأمة يمكن أن يشك، فكان الآية تقول: فَإِنْ كُنْتَ أَتُهَا الْمُسْلِمَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، فَاسْأَلْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ عَنْ صِحَّةِ مَا أَنْزَلَهُ سَبْحَانَهُ لِأَنَّ التَّوْرَةَ بَنَ أَيْدِيهِمْ وَفِيهَا وَحْيُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ إسألهم لتقييم الحجة عليهم، وقل لهؤلاء الذين يثيرون الشكَّ بين المسلمين ليسقطوا إيمانهم بالإسلام، وليثيروا الشكَّ في القصص الحقِّ، قل لهم ليأتوا بالتوراة، ففيها الصديق كلُّ الصديق، والحقُّ كلُّ الحقِّ، وفيها الدليل القاطع على ما أقول ﴿قَلَّا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْذَلِينَ﴾ لا تكن من الشَّاكِّين، لأنَّ الشَّاكَّ هو الذي لا يملك حجة على الفكرة التي يشك فيها، وأنت تملك الحجة من خلال وحي الله وتصديق رسالته التي أنزلها على موسى (ع).

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لا تكن يا محمد من المنكرين لآيات الله. وحاشا لرسول الله (ص) أن ينكر أو يكذب بآيات الله. رخصب هذا موجة لامة من خلال النبي (ص)، وذلك جرياً على عادة الأسلوب القرآني الذي يخاطب لامة من خلال خطابه لرسول. ومما ساء التكذيب بآيات الله هي من مبادئ شي تتحصر بمصير الإنسان في الدنيا والآخرة. فمن يكذب بآيات الله في تكذيب. فبأنه يتحرك في الخط المعادي لخط الله تعالى. وبذلك يستبعد عن الهدى وحسب المستقيم ولا يبلغ الشاطئ الآمن ولا ينال السعادة في حياته. وفي الآخرة يحصل رضى الله ونعيم الدائم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء الذين كذبوا بآياته سبحانه ثبتت كلمة ربك عليهم بأنهم لا يؤمنون. لأن الذي يؤمن هو الذي يفتح عقله ليفكر. ويفتح عينيه ليرى. ويفتح أذنيه ليسمع. أما الذي يغلق كل ذلك فإنه لا يستطيع على لإضلاق الارتباط بالحقيقة التي جعل الله طريقها في بصر الإنسان وسمعه وقلبه وعقله. وهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة الله ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ إنهم لن يؤمنوا ولو قدمت لهم كل الآيات التي تثبت لهم حقيقة الإيمان. وجميع الحقائق التي أودعها الله في الكون، لأنهم قرروا ألا يؤمنوا تمرداً وعصياناً. وهؤلاء لن ينصاعوا للإيمان حتى يروا العذاب بأمر أعينهم. وعند ذلك تضيق الدنيا عليهم، ويفقدون الخيارات، فيرتبطون بالإيمان تحت وطأة العذاب الذي يشعرون بهوله وقوته، ولكن لا فائدة من إيمان بعد ذلك، لأن مرحلة الإيمان هي مرحلة ما قبل الآخرة، لا مرحلة الآخرة.

التجربة الحية

وتضعنا هذه السورة المباركة في الجو الذي عاشه نبي الله يونس (ع) مع قومه ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا

عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿يَسْتَنْهَضُ الْقُرْآنُ أَهْلَ الْقُرَى الْمُتَمَرِّدَةَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعِيشُوا التَّجَرُّبَةَ الْحَيَّةَ الَّتِي عَاشَتْهَا قَرْيَةٌ كَانَتْ تَكْفُرُ بِإِنْعَمَ اللَّهُ كَمَا يَكْفُرُونَ، وَيَعَادُونَ الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَمَا يُعَادُونَ، وَلَكِنَّهُمْ عِنْدَمَا عَاشُوا التَّجَرُّبَةَ الصَّعْبَةَ انْفَتَحَتْ عُقُولُهُمْ عَلَى الْأَخْطَارِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَوَاجِهَهُمْ إِذَا ابْتَعَدُوا عَنْ خَطِّ الْإِيمَانِ، فَشَعَرُوا بِالْحَقِيقَةِ تَفَرُّضَ نَفْسِهَا عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ أَمَنُوا، وَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

﴿قُلُوبًا كَانَتْ قَرْيَةً أَمِنَتْ فَذَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ إِنَّ أَغْلَبَ الْقُرَى بَقِيَتْ سَائِرَةً فِي خَطِّ الْكُفْرِ، رَافِضَةً خَطَّ الْإِيمَانِ ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَأَمَنُوا بَعْدَ تَهْدِيدِ يُونُسَ لَهُمْ ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَمراً مديداً، وَكَانُوا قَبْلَ إِيْمَانِهِمْ كَمَا تَحَدَّثْنَا قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ يَزِيدُونَ عُتُوًّا كُلَّمَا دَعَاهُمْ يُونُسَ (ع) إِلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ، وَلَمَّا يَنَسَّ مِنْ هُدَايَتِهِمْ خَرَجَ مُغَاضِباً كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧). خَرَجَ مِنْ قَرْيَتِهِ غَاضِباً مِنْ اسْتِعْلَانِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ. وَلَئِنْ مَنْ أَمَنَ بِيُونُسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ كَانُوا يَدْرِكُونَ أَنَّ غَضَبَ النَّبِيِّ سَيَسَبِّبُ لَهُمْ إِنْزَالَ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، حَذَّرُوا الْآخَرِينَ مِنْ ذَلِكَ، حَيْثُ انْتَبَهَوْا مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَثَابُوا إِلَى رَشْدِهِمْ، فَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ النَّاقَةِ وَفَصِيلِهَا، وَبَيْنَ كُلِّ أُمٍّ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَضَجُّوا إِلَى اللَّهِ ضَجَّةً وَاحِدَةً مُنْفَتِحِينَ عَلَى التَّوْبَةِ وَمُنْطَلِقِينَ فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

وَهَكَذَا نَدْرِكُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ لِلنَّاسِ أَنْ يَفْتَحُوا عُقُولَهُمْ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ، وَأَبْصَارَهُمْ عَلَى مَوَاقِعِ عِظَمَةِ اللَّهِ، وَأَسْمَاعَهُمْ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ، لِيَنْطَلِقُوا فِي خَطِّ الْإِيمَانِ مِنْ مَوْقِعِ الْوَعْيِ وَالْعِلْمِ، وَهَمَّ إِذَا مَا عَاشُوا ذَلِكَ، يَصْبِحَ الْعِلْمُ نُوراً يُضِيءُ لَهُمُ الطَّرِيقَ يُبْعِدُهُمْ عَنْ ظُلْمَةٍ تَحَاصِرُهُمْ فِي أَعْمَاقِ التَّخَلُّفِ وَالشُّكِّ وَالشُّبُهَاتِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ* قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩ - ١٠١).

رأينا في البحث السابق أن القرآن أكد للناس ضرورة الإيمان والإنفتاح على مواقع عظمة الله من خلال العلم والوعي. وهنا في هذا البحث سنتناول حقيقة في مسألة الإيمان وهي أن الله تعالى جعل إيمان الناس تابعاً لإرادتهم واختيارهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إنه تعالى لم يتدخل في مسألة إيمانهم بإرادته التكوينية التي إذا تعلقت بشيء فإنه لا بد أن يوجد، بل أراد الله للإنسان أن يكون حرّاً الإرادة في اختيار الكفر أو الإيمان، بمعنى أنه أراد له أن يفكر ويسأل ويحاور ويختار على أساس ذلك، ليتحمل مسؤولية نفسه في النتائج السلبية للكفر إذا اختار الكفر، وليحصل على نتائج الإيمان الإيجابية إذا اختار الإيمان ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، على النبي قول كلمة الحق، والعمل على تقريبها إلى عقول الناس ليوجد جواً من الحوار ينفتح فيه الناس على علامات الإستفهام التي تُثار حول الحق من خلال الشبهات التي يطرحها أهل الباطل، فلا يقصر نبي في ذلك أو وصي أو عالم أو مثقف في مجال الدعوة إلى الله، فيقدم للناس كل وسائل وعناصر الإيمان، وبعدها يتحمل الناس مسؤولية أنفسهم ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) وللمؤمن، تكون النتائج الطيبة في رضوان الله في الجنة، وللکافر، تكون النتائج السلبية في سخط الله في النار.

الحاجة إلى الدعوة

وعلى الأساس الذي أراده الله للناس أن يؤمنوا من موقع حرية الإرادة والاختيار، ومن موقع حرية الفكر والحوار، إنطلق أنبياء الله تعالى في تبليغ رسالات الله. وقد أراد سبحانه لكل من جاء بعد الأنبياء (ع) من أئمة وعلماء ودعاة أن يبذلوا الرسالة على هذا الأساس، وجعل تبليغ الرسالة واجباً كفائياً على كل إنسان مؤمن، رجلاً كان أم امرأة، حتى يبلغ حجم الدعوة إلى الله بمستوى حجم الحاجة إلى الدعوة. فإذا كان الناس في بلدٍ ما يحتاجون إلى عشرة من الدعاة، ولم يكن إلا واحد، يجب حينها على الناس أن يهيئوا التسعة الآخرين. فالناس إذا تركوا التبليغ والدعوة إلى الله التي تفتح عقول الناس على الإيمان، واستراح كل إنسان لنفسه، واسترخى العلماء لحياتهم الخاصة، وابتعد المثقفون الرساليون عن مسؤولياتهم، فكيف يؤمن المجتمع؟ ولذا كانت مسألة الدعوة إلى الله من المسائل الأساسية التي إذا بذل الإنسان جهده في سبيلها حصل على رضوان الله، وإذا قصر في مسؤولياته فيها حصل على لعنة الله، وهذا ما جاء به الكتاب المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

ومن هنا، جاء قول رسول الله (ص): «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي فَلْيُظْهِرِ الْعَالَمُ عِلْمَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ» (*). فعندما تنتشر البدع بين الناس سواء كانت بدعاً في العقيدة تدعو الناس للإيمان بغير العقيدة الحقّة، أو بدعاً في الأخلاق تحرّض الناس ضدّ أخلاق الرسالة، أو بدعاً في الواقع السياسي والإجتماعي والإقتصادي تدعو للانحراف عن خطّ الله، فعلى العلماء والمثقفين

(*) الكافي: المجلد الأول ص ٥٤ رواية ٢.

والواعين أن يواجهوا هذه البدع كُلُّ بحسب إمكاناته وقدراته، ومن هنا فإنه (ص) يعتبر أن مواجهة البدع قضية حيوية ملحة، بحيث أن الذي يبتعد عن ساحة الصراع بين السنة والبدعة، أو بين الكفر والإيمان، فإنه يحصل على لعنة الله. وإن الله عندما كلف المؤمنين بالإيمان، كلفهم بالدعوة إلى الإيمان ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (ال عمران: ١٠٤)، وقد حدثنا الله في القرآن عن الذين يبلغون رسالات الله، ويخشون الله وحده، إذا خوفهم الناس بالناس بأنهم سوف يسجنونهم ويشرّدونهم ويضطهدونهم، فإنهم لا يضعفون ولا يخافون ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: ٣٩) وهذه هي مسألة الدعوة إلى الله في إلقاء الحجة على الناس التي تظهر في خطين: العقل، وهو الحجة الأولى، لأن العقل هو الرسول الباطني، أما الأنبياء وأولياء الرسل ومن جاء بعدهم، فهم الحجة الثانية على العباد.

أمام المسؤولية

إذاً، إن مسألة التبليغ هي مسؤولية كل مؤمن ومؤمنة، ولو فرضنا أنه كان يُقال فيما سبق إن الدعوة إلى الله وتبليغ أحكامه والدفاع عن شرعه هو واجب كفائي، فإني أقول وأتحمل مسؤولية ما أقول إن الدعوة في هذه الأيام واجب عيني على كل مؤمن ومؤمنة، لأن الكفر برز إلى الإيمان بكل أسلحته، وبكل وسائل التضليل والتشكيك والتميع والضغط. فهذه هجمة الكفر تحقق أغراضها وأهدافها، والمسلمون يتركون مسؤولياتهم في المواجهة من دون أي تصد، وكثير ممن هم في مواقع المسؤولية الدينية لا يشعرون بأية حاجة للتبليغ والتوجيه، في وقت تقضي فيه المرحلة بالإستنفار في وجه الكفر والضلال، تماماً كما هي حالة الإستنفار في مواجهة الوباء، حيث لا يجوز للأطباء أن يجلسوا في بيوتهم، بل أن يخرجوا معلنين حالة الطوارئ ليتمكنوا من حصر الوباء وإزالته.

والمجاهدون في سبيل الله يفهمون معنى حالة الإستنفار، وذلك عندما يشعرون بالأخطار تحيط بالساحة، فيخافون أن يباغتهم العدو في الليل أو النهار، فيبقون على سلاحهم، وهكذا في الدعوة إلى الله، حيث تتطلب منا أن نشهر كل أسلحتنا المادية والفكرية والثقافية لوقف مد هذه الهجمة الشرسة، منطلقين في ذلك من خط الدعوة إلى الله، ومن التخطيط لكي يجعل الداعية إلى الله من نفسه مشروع قائد إسلامي فكري، أو قائد سياسي أو عسكري أو إجتماعي، يطور فكره وتجربته وحركته، ويطور آفاقه بالمستوى الذي يجعل من نفسه مشروع قائد.

ويبقى القرار بيد الإنسان

ونعود إلى مسألة الإيمان، فالله تعالى جعل من الإيمان اختياراً للإنسان وطوع إرادته، وقال للإنسان لقد خلقت حركة الحرية في أعضائك، وجعلتك حراً في فكر، وأردت لك أن تتحمل مسؤولية نفسك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ فكما خلقهم بإرادته، فإنه يستطيع أن يجعلهم مؤمنين بإرادته، ولكن الله تعالى جعل قرار الإنسان بيده من بين كل المخلوقات، ولم يفرض عليه الإيمان به بالقوة، بل تركه يتخذ قراره بنفسه في هذه القضية ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣).

ولذلك يخاطب الله تعالى نبيه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إذا كان الله لم يُكْرِهِ النَّاسَ على الإيمان وهو خالقهم، فهل تستطيع أنت يا محمد ذلك؟ ونستوحي من هذه الآية الكريمة أن مسألة الإقناع بشيء خاضعة للإنسان نفسه، فمن الممكن أن تسجن إنساناً وتعذبه وتفعل به ما تشاء، ولكنك لا تستطيع أن تُكْرِهه على الإيمان بأمر لا يقتنع به. فكم من المجاهدين سُجِنُوا وَعُذِّبُوا وحاولت أجهزة المخابرات أن تنزع من عقولهم قناعاتهم لتزرع مكانها قناعات أخرى، ولكنها

فشلت، لأنهم إذا كانوا يملكون السلطة على أجسادهم، فإنهم لا يملكون السلطة على أفكارهم وأرواحهم وقلوبهم، لأن هذه المفردات تبقى المنطقة الحرة التي لا يمكن لأحد أن يتسلط عليها إلا الله وهي المحروسة بالعقل والإرادة. ولذا لا بد للإنسان الرسالي الذي يحترم نفسه أن يحرس إيمانه أكثر مما يحرس ماله، وعندها لا يستطيع السوط ولا السيف ولا الرصاصة أن تقتل فكره أو أن تصادره.

والنبي (ص) من خلال هذه الآية التي تتضمن الإستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى النفي لا يستطيع أن يكره أحداً على الإيمان، وفي المقابل فإن الطغاة والمشركين لا يقدرّون على إكراه أي رسالي على الإيمان بخطهم وفكرهم وتوجهاتهم ولو تراكمت عليه كل المصائب، لا يمكن أن تكسره أبداً أو تزلزله، يبقى واقفاً عزيزاً لأن «المؤمن أعزُّ من الجبل، إنَّ الجبل يُسْتَفَلُّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يُسْتَفَلُّ من دينه شيء» (*).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالله يأنن لهذه النفس أن تؤمن به من خلال القوانين التي أودعها في الكون، فكما أن هناك قوانين كونية واجتماعية، هناك قوانين فكرية تتحرك فيها حرية الفكر لتؤمن وتقتنع وتهتدي، فلو أخذت النفس بأسباب الإيمان لأمّنت ولرفعها الله إلى درجات القرب منه ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يجعل القذارة الفكرية والروحية والمعنوية في عقول هؤلاء الذين لا يريدون من خلال الإيمان الوصول إلى النتائج الطيبة.

من كل ما مضى نفهم الآية بوضوح ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إذا استجمعت عناصر الإيمان، من خلال تحريك العقل في خط الإيمان، أما مشكلة أولئك الكافرين فهي أنهم لا يعقلون ولا يبصرون ولا يسمعون ولا يناقشون ولا يتحملون مسؤولياتهم في الحياة أمام الله.

(*) الكافي: المجلد الخامس ص ٦٣ رواية ١.

ثم يكون التوجيه القرآني إلى الناس ليعيشوا الإيمان حقيقة واعية في عقولهم، يوجههم ليحصلوا على عناصر الإيمان من خلال كتاب الكون. ففي الكون كتابان: كتاب يعطي الفكرة من خلال الحروف، وكتاب يعطي الفكرة من خلال الظواهر الموجودة في الكون.

فالله تعالى فتح كتاب الكون وطلب من الإنسان أن ينظر إلى كل ما فيه من إنسان وحيوان وجماد ومجرات وسماوات وأرضين وأنهار وبحار وسهول، ليقراً في كل ذلك أسرار خلق الله وعظمته وقدرته وبديع صنعه، فإذا ما أدرك أسرار هذا الكون عرف عظمة مَنْ خَلَقَ الكون ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انظروا نظرة الإنسان الواعي الذي لا ينظر إلى الأشياء بجمالها الظاهري، بل ينظر نظر تعقل وتدبر وتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١)، لم تخلقه من دون أساس وسنن كونية ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهذه هي الآيات الكونية التي تدل على وجود الله، وهذه هي إنذارات الأنبياء في مسألة المصير في الآخرة، ولكن مشكلة هؤلاء الذين لا يؤمنون أنهم أغلقوا عيونهم عن الإبصار، وأغلقوا أذانهم عن الاستماع ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة: ٧)، ختم الله على قلوبهم عندما أقفلوها على الجهل والأهواء والشهوات، فقرروا عدم الإيمان، وكيف لمن يقرر ذلك أن توجهه وتفتح عقله على الحق؟

ونستوحي من هذه الآية بأن على الإنسان أن يبقي عقله مفتوحاً على المعرفة، ويجعل فكره مفتوحاً على الحوار، وأن تبقى إرادته جاهزة لياخذ ما يقتنع به ويكون ذلك جزءاً أساسياً من حياته.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ* ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَاً مِنَ الظَّالِمِينَ* وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٢ - ١٠٩).

تتابع السورة المباركة وصف حالة الذين لم تحرك الآيات عيونهم للنظر إلى الحقيقة، ولا إنذارات الأنبياء استطاعت أن تفتح قلوبهم على الإيمان. هؤلاء ماذا ينتظرون في بقائهم على الشرك والكفر والضلال؟ ﴿قَهْلَ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هل يكون حالهم إلا كحال الناس الذين سبقوهم؟ فكفروا كما كفروا، وخاضوا في الباطل مثلهم، واستمتعوا مثلما استمتعوا، ثم جاءهم الموت والعذاب بغتة من دون أن يشعروا، فلن يكونوا أفضل من السابقين، وسيُعَذَّبُونَ ويهلكون كما عَذَّبَ وهلك السابقون ﴿قُلْ فَاِنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لأنكم غير مستعدين للحوار معي، أو القبول بالإيمان، فانتظروا عذاب الله، وسانتظر لأراه كيف سيقع عليكم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذاب الله في الدنيا عندما يُنْزَلْهُ على الذين كفروا وأشركوا، أو من عذاب الله في الآخرة، عندما يأمر الله بالمشركون والكفار إلى النار، ويأمر بالمؤمنين إلى الجنة.

وبعد أن دعاهم (ص) إلى الإيمان وأقام عليهم الحجج، يقف أمامهم في حالة مناجاة ذاتية يحدد فيها موقفه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ لقد عرضت عليكم الإسلام الذي انتميت إليه قبل أن أدعوكم للإيمان به، وقدّمت لكم الحجج والبيّنات التي تبين الحقيقة كلّها في هذا الدين الذي أنزله الله عليّ، ولكن بقيتم على شككم ورفضكم، ومع كلّ مواقفكم المضادة، فإنّ شككم لن يؤثر على مواقفي التي لن أراجع عنها، لأنني أملك من قوة العقيدة ووضوح الرؤية وصلابة الإيمان، ما لو وقف الناس كلّهم ضديّ وبقيت وحديّ، فإنّني أبقى قويّاً في موقف الإيمان ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا يمكن أن أصاب بالاهتزاز

والخيبة واليأس والإحباط، أو أن أفقد الثقة من نفسي في ديني، وستبقى عبادتي لله الخالق المدبر المحيط والمهيمن على كُلِّ شيء، ولن أعبد الذين تعبدونهم من دون الله لأنني أعرف معنى هؤلاء في حقارة وجودهم، كما أعرف معنى عظمة الله في خلقه وقدرته وتدبيره ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنِّي أَقْرُّ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ الَّذِي يُمَيِّتُكُمْ وَيُحْيِيكُمْ وَتَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْحِسَابِ.

وهذا هو الموقف الذي ينبغي للمسلمين اتخاذه عندما يأتي من يحاول إسقاطهم وزلزلة وجودهم.

في الآية السابقة كان حديث النبي (ص) مع النَّاسِ، وتأتي الآيات التالية لتوجه الخطاب إلى النبي (ص) ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ كلمة الوجه هنا يُراد منها الذات، وليس المراد من الوجه، الشكل المتعارف عليه، بل المراد أن يقيم الرسول (ص) ذاته ونفسه على الدين في كُلِّ حركاته وخطواته وتطلعاته في مواجهة التيارات والأفكار والمناهج والمواقف ﴿حَنِيفًا﴾ مستقيماً مبتعداً عن الطريق المنحرف، وسائراً في خط الإستقامة الذي لا عِوَجَ فيه ولا التواء ولا انحراف.

لتكن حياتك لله

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تكوننَّ يا محمد، ويا كُلَّ المؤمنين، من الذين يشركون بعبادة الله غيره، كما الكثير من الناس الذين يعتقدون بالله، وبأنه الواحد الأحد، ولكنهم يخضعون لغير الله، ويطيعون غيره في أفعالهم وأقوالهم وأوضاعهم الخاصة والعامة وجميع أمورهم، بحيث إذا وقفوا بين أمر الله ونهيه، وبين أمر الظالمين ونهيه، فإنهم يقدمون أمر هؤلاء على أمر الله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وحدَّ عقيدتك وخطك، فلا تعبد إلا الله، ولا تتحرك إلا في خطه، حتى تكون حياتك

كلّها لله. ونشير هنا بأنّ مسألة الشرك لا تقتصر على أن يضع الإنسان أمامه صنماً ليعبده، ولكنّ الشرك يتمثّل أيضاً فيما إذا أطاع الإنسان إنساناً يذوب فيه ويستغرق في عظمته وطاعته، بحيث يخضع له ولو على حساب معصية الله.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أيّها الإنسان الذي يحب نفسه وسعادتها، ويحب سلامة مصيره، في أن تكون حياته حياة طيّبة، ومماته مماتاً طيباً، أيّها الإنسان فكّر فيما ينفعك ويضرّك، وحدد علاقتك بمن تطيعه وتُخلص له وتجعل حياتك مرهونة لخدمته، فكّر ما دمت الإنسان الذي يحبّ نفسه من خلال النّاس، فأنت تحبّهم لأنّهم ينفعونك ويدفعون عنك الضرر، فكّر ملياً، هل هؤلاء النّاس هم الذين ينفعونك ولا يضرّونك، ويملكون القوة على أساس ذلك؟ أم إنّهم مثلك مثلهم، وقارن بين من يملك إسماعاً كبيراً أو شائناً خطيراً، أو موقعاً مهماً عظيماً، وبين الله تعالى، الذي وحده ينفع ويضر، لأنّه وحده يملك الحياة والموت، ويملك الخلق كلّ والأمر كلّ، أما النّاس فهم مخلوقون كما أنت مخلوق، وهم محتاجون كما أنت محتاج، هم لا يملكون موتهم وحياتهم وأنت لا تملك موتك ولا حياتك، لذا كيف تميل إلى من لا ينفعك ولا يضرّك ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤)، إنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا لك شيئاً إلّا بإذن الله، فهم لا يملكون قوّة ذاتية ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ فإذا ارتبطت بشخصٍ وتعبدت له وأطعته، وهو ممن لا ينفع ولا يضرّ، فإنّك تظلم نفسك، لأنّك تربطها بأمرٍ لا قيمة له. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلو أراد سبحانه أن يبتليكَ بمرض أو أيّ نوعٍ من أنواع البلاء، فهل يمكن أن يكشف ذلك عنك إلّا الله؟ قد تقول، إذا مرضت فإنّ الطبيب يشفيني، وإذا افتقرت فإنّ الغنيّ الفلاني يغنيني، ولكن من ألهم الطبيب سرّ الداء ومعرفة الدواء، ومن أعطى فلاناً

المال؟ هل غيرُ الله تعالى؟ ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فالله وحده يملك شؤون الخير، فإذا أراد سبحانه بعبدٍ خيراً، فلو اجتمع كلُّ الناس ليردّوه عنه لما استطاعوا ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يغفر ذنوب عباده المنفتحين على مغفرته وعفوه، وهو الرحيم الذي يغمر عباده في ظلِّ رحمته.

ثم يقول (ص) للناس ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا هو الحقُّ الذي أنزله الله عليَّ في كتابه مما يتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق والمنهج، ويبقى أن تؤمنوا ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأنَّ في الهداية سلامةً لنفسه ومصيره ومستقبله، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإذا ما ابتعد عن الحق وسار في طريق الضلال، فإنَّما عاقبته على نفسه، وليتحمل مسؤولية ضلاله ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ لن أجبركم على الإيمان، فالإختيار بأيديكم، لأنَّ دوري كرَسُول هو أن أبلغ رسالته، وتبقى لكم الحرية في ذلك تؤمنون أو لا تؤمنون ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فأنت كنبِي وكداعية وكمسلم، اتبع وحي الله، واجعل حياتك على درب هذا الوحي، ولا تمل عنه يُمْنَةً ولا يُسْرَةً، لتكن حياتك حياة الوحي والإسلام ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ واصبر على ما تعانیه وتلاقیه من اتهام النَّاس وشتائمهم وتمردهم وحربهم عليك وإنكارهم لك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ سيحكم سبحانه بينك وبينهم في الدنيا والآخرة، لأنَّه الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً.

سورة قور

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١ - ٥).

نبيُّ الله هود (ع) من الجيل القديم للأنبياء، وغالباً ما يأتي الحديث في القرآن عن هود وصالح معاً. والمرويُّ في بعض أحاديثنا أنَّ هذين النبيين مدفونان في وادي السلام في النجف الأشرف، لذلك نقول في زيارة أمير المؤمنين عليّ (ع): «والسلام على ضجيعيك آدمَ ونوح، وعلى جارئك هودٍ وصالح».

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هود (ع) في أكثر من سورة حيث أُرسِل إلى قومه «عاد» ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١١ - ١٣) وفيما يُذكر أنه (ع) كان من العمالقة، أرسله الله إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد، وقد عاش معهم مدة طويلة، تمرّدوا عليه واستضعفوه، ولم يؤمن به إلاَّ عددٌ قليل، ثم أنزل الله على المتمردين من قومه العذاب الأليم.

وهذه السورة المباركة من السور التي تتحدّث عن التوحيد كأساسٍ للدين والعقيدة، وكنهجٍ متحرّك في كلّ خطوط الرسل والرسالات.

وتوحيد الله في العقيدة هو الاعتراف بأنَّه سبحانه، الربُّ الواحد الذي لا شريك له في ألوهيته. وتوحيده في العبادة هو بالخضوع له وحده دون غيره، وبهذا يكون التوحيد حاضراً في كلّ حركة الحياة لدى الإنسان. لذا، فإنَّ مسألة التوحيد تجمع كلّ عناصر حركة العقيدة والشرعية في الإسلام.

حكيم خبير

وتبدأ السورة المباركة بالحديث عن كتاب الله تعالى

﴿الرَّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

﴿الر﴾ وهذه من الكلمات المقطّعة في القرآن الكريم، وقد فصلنا الرأي فيها في بداية سورة يونس، وسنعرّض لها بإذن الله في سورة يوسف.

﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هذا الكتاب الذي أنزله على رسوله، وأراد للناس أن يقرأوه ويتدبروه، وأن تكون مفاهيمه نهجهم الذي يسيرون على هُدايه ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ كتابٌ متماسكٌ يتميز بالاتقان حيث أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض، لا خلل فيه ولا أية ثغرة، والاتقان واضحٌ في الإبداع البلاغي والفني وفي أسرار المعاني التي يتضمنها ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فالاتقان والإحكام والتماسك بين أجزائه وآياته ومعانيه واضحةٌ مفصلةٌ فيما يوحي به التفصيل من الوضوح في أساليبه، حيث تمكن الإنسان من أن يفهم كل تفاصيله، فيأخذ الفكرة الواضحة عن مفردات العقيدة والشرعية والتاريخ وما إلى ذلك ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فالله سبحانه الذي أوصى بهذا الكتاب يضع كل شيء في موضعه، ويعطي لكل شيء حقه، فلا يبتعد ما أوجده وصنعه وأبدعه عن الحكمة في كل مواقعه وخطوطه وامتداداته ﴿خَبِيرٍ﴾ بما يحتاجه الناس ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤) وعلى هذا فإن الناس عندما يفتحون على هذا الكتاب سيجدون فيه حاجاتهم وسيجدون الحكمة التي يحتاجونها، لأن من أنزله حكيم يعرف مواقع الأمور وسبل تحركها في الحياة.

الإنذار والبشارة

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هذا الكتاب يضع في عنوانه الكبير أمرين، توحيد الله تعالى، والدور الرسالي للأنبياء ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فهذا الكتاب يدعو الإنسان إلى عبادة الله التي هي خطأ في الفكر، بحيث يجعل فكره خاضعاً ومتحركاً في خطأ الإيمان وملتزماً به، فيخضع حياته لطاعة الله فيما أمر به ونهى عنه، لأن معنى العبادة هو الخضوع له سبحانه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وهذا هو الأمر الثاني المتمثل في دور الرسول الذي أرسله الله تعالى

ليبين للناس مسؤولياتهم التي أوكل الله لهم القيام بها، وليوضح الخطوط التي يسرون عليها، ولينذروهم إذا قصرُوا في مسؤولياتهم وانصرفوا، وليبشروهم إذا استقاموا وأطاعوا، برضوانٍ من الله، وبالنعيم الخالد في جنته.

ومن هنا، فإن هذه الآية المباركة تبين قاعدة الإيمان وحركة الرسول في مضمون الرسالة التي تشتمل على بشارة في جانب، وإنذار في جانب آخر، البشارة للمحسنين الذين اتقوا الله، والإنذار للمسيئين الذين تمرّدوا عليه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا هو مضمون كتاب الله ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وهذا هو نداء رسول الله (ص) الذي جاء يحمل رسالة الله.

نداء الرحمة

﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أيها الخاطئون، سواءً كانت خطيئتك في الكفر أو الشرك أو الفسق والفجور والانحراف عن شريعة الله ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ حاولوا أن تستغرقوا في وعي خطيئتك، لا تغفلوا عنها، حدّقوا في أقوالكم وأفعالكم وما فيها من ضلالٍ وانحرافٍ وخطأ، حدّقوا في علاقاتكم ومواقفكم، فإذا اكتشفتم أنكم بعيدون عن الله، فعليكم أن تستمعوا إلى الإنذار والبشارة، لتراجعوا عن خطأ الانحراف والتمرد، ولتنفتحوا على الله من جديد ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ استشعروا الندم في قلوبكم على كلّ التاريخ الأسود الذي عاش في ماضيكم، أحسّوا بالحسرة والندم، واطلبوا من الله أن يعفو عنكم ويغفر لكم ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ انطلقوا في الخط العملي للتوبة، وذلك بأن تغيروا ما في نفوسكم وواقعكم، فالاستغفار هو إعلان الندم والإحساس بالخطيئة وطلب العفو، والتوبة تمثل العزم على تصحيح الخط وتقويم الانحراف. ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ استغفروا ربكم وتوبوا إليه لتحصلوا على ثوابه في الدنيا والآخرة، لأنّه مالك الدنيا

والآخرة ورحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، بيده رزقكم وأمنكم وطمأنينتكم وحياتكم وموتكم، استغفروه وتوبوا إليه ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ مما يعطيكم من أمن وصحة ورزق ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن تستكملوا حياتكم وينتهي بكم الأمر إلى أن تنتقلوا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ كل صاحب فضل وخير وعمل صالح واستقامة وتقوى، ومما يُعتبر من الفضل في حركة الإنسان وحياته، فإله يعطيه ما يستحقه من ثواب ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إذا أعرضتم وتوليتكم عن ذلك ولم تسمعوا أو تبالوا وتستغفروا وتتوبوا ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ كبير في خطورته وهوله وحسابه ونتائجه، فهو يوم ليس كالأيام التي تعيشون فيها، وصعوبة ذلك اليوم ليست كصعوبة أيامكم التي تعيشونها حيث اليوم هناك ﴿مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥) أو ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) مما لا نعرف طبيعة المقاييس التي تتحكم بحركة تلك السنين هناك.

وعلى هذا شرقوا وغربوا، إصعدوا إلى أفاق الفضاء وانزلوا إلى أعماق الأرض، ولو امتدتم بكم أجالكم إلى مئات وآلاف السنين، فأين تهربون، وماذا بعد ذلك ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ سترجعون إليه، بعد أن تحولتم إلى تراب بفعل مرور الزمن على أجسادكم، والله الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن أتم خلقكم، قادر أن يختصر كل المراحل، فيخرج من التراب بشراً، فهو سبحانه الذي خلقكم في البداية من عدم، يستطيع أن يحييكم من جديد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وما يخذعون إلا أنفسهم

ومع كل النداءات والإنذارات ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ يطوون صدورهم

على بعضها، كناية عما يُخفونه في صدورهم من الحقد والعداوة والبغضاء والكفر ﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾ ليحجبوا عن النبي (ص) ما يفكرون فيه ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي عندما يغطون رؤوسهم بثيابهم، وهذا كناية عن أن الثياب تغطي وتحجب، فكأن بتغطية رؤوسهم وأجسادهم بثيابهم عن تغطية ما في داخلهم، هم يحملون في أنفسهم الكثير من الأمور الخفية التي لا يريدون إظهارها للناس، إنهم المنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، أو يبطنون ما يتآمرون به، ويتحركون فيه من المكر والكيد والحيل، وليضعوا على قلوبهم وأفكارهم الثياب تلو الثياب مادية ومعنوية، وهم إن كانوا يحجبون ويسترّون ما في قلوبهم عن الناس، ولكنهم هل يستطيعون أن يحجبوا ذلك عن الله؟ ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فالله تعالى يبصر من تحت عرشه ما تحت سبع أرضين، ويستوي عنده السر والعلانية، والخفاء والظهور، فيعلم ما يُسرّونه وما يبطنونه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بكل ما يختزنه الصدر من أفكار وأسرار، ولذا، فإن عليكم أن تعيشوا الإحساس بحضور الله في داخل خفقات قلوبكم، ونبضات مشاعركم وأحاسيسكم وأفكاركم، لتتحركوا في هذا الاتجاه ولتعرفوا كيف تستقيمون على الخط، لتصلوا إليه سبحانه من أقرب طريق.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ
أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦ - ٨).

كفالة الله للرزق

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إِنَّهُ سبحانه وتعالى لَا يُغْفِلُ رِزْقَ أَيِّ مخلوق حيٍّ يدبُّ على الأرض، سواء كان من الزواحف مما يمشي على بطنه أو على رجليه، أو مما يطير في الفضاء بعد أن يستقرَّ في الأرض، وهياً لكلَّ خلق رزقه إن كان في أعماق الأرض والبحار أو في آفاق الفضاء وتكفل به. والتكفل بالرزق لا يعني أن الله يُوصل لكلَّ مخلوق رزقه بشكل مباشر، بل يعني أنَّه سبحانه مكَّنه من الوسائل التي يحصل بها على رزقه، وعلى هذا فإنَّ الله يرزق الناس من خلال الوسائل التي أوجدها في أجسادهم، وفي الأرض التي يتحركون فيها، وفي الأشياء التي يصنعونها وينتجونها.

ولذا، فإنَّ تكفل الله للمخلوقات وللناس بالرزق لا يمثل التشجيع على الكسل والبطالة والاسترخاء والفراغ، والإنسان الذي يجلس في بيته من دون أن يسعى ويُجهد نفسه ويتحرك لتحصيل الرزق، ويدعو الله أن يرزقه فإنه لَا يُستجاب دعاؤه، فالله تعالى يقول: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥) إمشوا في الأرض وتحركوا، تحصلوا على رزقكم، وهذه النماذج أمامكم، انظروا إلى النمل كيف يجلب رزقه، وإلى النحل كيف يجهد ليحصل على قوته، وإلى العنكبوت كيف يرتب بيته ليجتذب الفريسة. وقد نظم الله ذلك كله من دون أن يختلَّ هذا النظام في أية حالة من الحالات، لأنَّ المسألة خاضعة لتدبير الله، وقد يَقْدِرُ على الإنسان رزقه ليبتليه ويختبره، أي شكر أم يكفر؟ أي صبر أم يجحد؟ وقد يوسَّع عليه رزقه ليبتليه ويختبره كذلك. وفي كُلِّ ذلك يعطي الله الرزق للإنسان ولكلِّ دابةٍ على الأرض على حسب حكمته وتقديره. ولذلك على الإنسان أن يطمئن على رزقه، لأنَّ هناك رعاية

إلهية تتكفله في رزقه، فلا يستعجل هذا الرزق من الحرام، بل أن يصبر حتى يأتيه من طريق الحلال. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ أي تُستودع قبل أن تخرج إلى الحياة، وتستقر بعد أن تخرج إلى الحياة وتتحرك فيها، فإنه سبحانه يعلم مواقع كُلِّ خلقه على تنوعه، ويلهمه السير إلى مواقع رزقه ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ والمراد بالكتاب المبين إما كتاب الله في اللوح المحفوظ الذي أودع تعالى فيه كُلَّ مفردت علمه في خلقه، وإما الكتاب الكوني الذي نقرأ فيه وفي كُلِّ ظواهره ومخلوقاته عظمة الله في أسرار خلقه وفي كُلِّ شؤونه.

ارتباط النظام الكوني بالنظام الإنساني

وتجلّى عظمة الله فيما خلقه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ كان الله ولم يكن شيء، وكان الماء يشمل الأرض والكون، وليس المراد بعرشه مكانه، إنما المقصود بالعرش مركز السلطة والسيطرة اللتين هما لله تعالى وحده ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فكرسيه أي مُلكه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) فالعرش كناية عن أعلى موقع في السلطة، وليس مكاناً مخصوصاً يجلس الله فيه لأنه سبحانه ليس مادةً كما نحن.

وهذه السموات والأرض خلقها تعالى في ستة أيام، فهل هذه الأيام كأيامنا؟ الله تعالى لم يحدّد لنا هذه الأيام بحدٍّ معين، خصوصاً إذا ما عرفنا أنه لم يكن هناك مقاييس لليوم حسب مقاييسنا، فلم يكن هناك أيام وليال وشهور وسنين كأيامنا وليالينا، ولذلك فإنّ التعبير القرآني يرمي إلى تقريب الصورة، لنفهم أنّ الله خلق السموات والأرض بشكلٍ تدريجي وليس دفعياً لحكمةٍ يعرفها هو.

ثم تأتي الآية التالية لترتبط الحديث عن خلق السموات والأرض بحركة الإنسان من أجل التنافس على العمل الأحسن ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإله خلق السموات والأرض وأودع فيها ما يمكن للإنسان أن يستفيد مما فيها، فجعله خليفته وسيد هذا الكون، وأراد منه أن يبينه على النهج الذي يريده سبحانه من خلال عقله وإرادته، وما هيأه له من وسائل وأدوات، ليكون هذا الكون ساحة تنافس وعمل، لا ساحة لهو وعبث واسترخاء وبطالة وابتعاد عن المسؤولية «ألا وإن المصمار اليوم والسباق غداً ألا وإن السبق الجنة»(*) فالجنة هي نتيجة العمل، والحياة هي المصمار - الميدان - الذي يتسابق فيه الناس ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣) سارعوا لأن تكون الحياة ساحة للسباق في العمل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لا ليلوكم أيكم أكثر مالا وجاهاً وجمالاً وموقعاً، بل ليختبركم من خلال ما هيأه لكم في الحياة من فرص للوصول إلى كل النتائج الكبيرة في الحياة.

إذاً، هناك ارتباط بين النظام الكوني فيما أودعه الله فيه من قوانين ونظم، وفيما سخره من ظواهر وكائنات، وبين النظام الإنساني في حركة الإنسان في الحياة، ولذلك فإن النداء القرآني للإنسان يقول: أيها الإنسان كن الأحسن عملاً، وإذا كنت الأحسن عملاً، فستكون الأحسن مصيراً والأقرب إلى الله. إن لك مهمة في هذه الحياة، فكما للشمس والقمر والنهر والبحر والسهول ولبقية الكائنات مهمة، فمهمتك أن تكون عاملاً في سبيل الله.

نتائج التمرد

وبعد ذلك تأتي نتائج العمل عندما يبعث الناس بعد الموت ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ

(*) من لا يحضره الفقيه المجلد الأول ص ٥١٤ .

مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴿﴾ ليست هذه الحياة الدنيا الموقع الأخير لحياة الإنسان، فهناك المواقع الجديدة التي يقف فيها الإنسان غداً لينال نصيب ما عمله في الدنيا. وهذا ما تذكرهم به - يا محمد - ولكن مشكلة هؤلاء الذين تنصّحهم وترشدهم وتهديهم أنهم أغلقوا مسامع قلوبهم ﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ويطلقون كلماتهم الهازئة، ما طرحه هو السحر. ويجيبهم، ما علاقة هذا الموضوع بالسحر؟ فالسحر عملية تنطلق من خلال لعبة تخدع أعين الناس، فهو ليس حقيقة، إنّما حالة تخيلية لا أساس لها في الواقع. لذا، فالمشركون الذين واجهوا رسول الله (ص) لم يكونوا يملكون ما يواجهون به الحقائق العقائدية والقرآنية إلا كلمة الإلهام بالسحر، تماماً كما في عصرنا اليوم، عندما يتهم المعادون للإسلام، الدعاة إلى الله بكلمات التخلف والرجعية والأسطورة والخرافة، وما إلى هنالك.

يحدثهم (ص) عن فكرة بعث الإنسان بعد الموت، وعن ضرورة مناقشة الفكرة ودراستها والدخول في حوار حولها، وبدل أن يستجيبوا لدعوته، يطلقون كلماتهم الاستهلاكية ويأتون ما يطرحه النبي (ص) مجرد سحر، في محاولة للتأثير النفسي على صاحب الدعوة واتباعه، ولأنهم لا يملكون الحجّة المضادة والحقيقية.

﴿وَلَنِّ أٰخَرٰنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أَمَةٍ مَّعْدُوْدَةٍ﴾ وإذا ما أخرنا إنزال العقاب بهم إلى أمانة معدودة ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ وكعادتهم في السخرية والاستهزاء يتساءلون، لماذا لا يُنزل الله العذاب الآن؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ماذا يؤمنهم من العذاب عندما يأتي أمر الله في ذلك؟ ما هي الضمانات التي يملكونها فيما لو نزل هذا العذاب؟ إنه سيأتي ذلك اليوم ولن ينصرف عنهم ذلك العقاب الأليم ﴿وَحَاقَ بِهِمُ﴾ وأحاط بهم من كلّ جانب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأنهم استهزأوا وسخروا وتحدوا، فالقضية المحتومة ستقع عليهم عاجلاً أم آجلاً.

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ *
 وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نَعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحُ
 فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ
 * فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ
 عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٩) -
 (١٢)

في مواجهة الضعف البشري

في القرآن الكريم حديثٌ متنوعٌ عن نقاط الضعف في الإنسان، فالقرآن يحدثنا عن الإنسان بأنه خُلِقَ ضعيفاً، وبأنه خُلِقَ من ضعف، ثم جعل تعالى ضعفه قوة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (الروم: ٥٤).

فكل واحدٍ منا يختزن في داخله نقاط ضعف يتأثر بها، وربما تؤثر بطريقة سلبية على مجرى حياته، فنحن ضعفاء أمام شهواتنا التي قد تغلب إيماننا فتقودنا إلى المعصية، ونحن ضعفاء أمام حاجاتنا المادية التي تدفعنا للتنازل عن كثير من مواقفنا والتزامنا، أو أن نصبح عبيداً لهذه الحاجات.

والإنسان الضعيف عندما يحسّ بالحاجة إلى المال فإنه يخضع لمن يملك المال، وهكذا عندما يشعر بالحاجة إلى الجاه والمنصب والمركز الاجتماعي، فإنه يخضع لمن يؤمن له ظروف الحصول على ذلك، فيمدح من لا يستحق المدح، ويذم من لا يستحق الذم، وهذا ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين (ع)، وكما روي عن الإمام عليّ (ع): «اللهم صُنْ وجهي باليسار وَلَا تبتذل جاهي بالإقتار - الضيق - فاسترزق أهل رزقك، واستعطي شرار خلقك، فأبتلى بحمد من أعطاني وأفتتن بدم من منعني، وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء والمنع».

والإمام (ع) يتحدث بلسان الإنسان الضعيف، وليس بلسانه هو، عن أن هذا الإنسان عندما يعيش حالة ضيق في إمكاناته المادية، يندفع صوب من يملك المال، فقد يعطيه هذا، وقد يمنعه ذاك، فيبدأ ليمدح ويعظم ويرفع مكانة من أعطاه المال، ويذم ويحتقر ويُنزل قدر من لم يعطه المال، مع أن الذي أعطاه المال لا يستحق المدح لأنه لا يملك الصفات التي يستحق بها المدح، والذي لم يعطه المال لا يستحق الذم لأنه

يملك من الصفات الجيدة والحسنة ما تؤهله للمدح، لا للذم، لأنّ ذلك يكون قد أعطاه لغاية، وذلك منعه لظروف معينة تفرض المنع.

فالإنسان ومن خلال هذا الدعاء يطلب من ربه تعالى ألاّ يوقعه في هذه التجربة الصعبة التي لن يخرج منها سالماً بأيّ حال، لأنّ العطاء والمنع بيد الله وحده.

وهكذا، من الأمور التي يحدثنا عنها القرآن من نقاط ضعف الإنسان، أنّه يستعجل في الحكم على الأشياء، فلا يدرسها بحسب طبيعتها وأسبابها وظروفها ونتائجها، وإنما يدرسها من خلال أوضاعها الظاهرية السريعة.. فقد يُبتلى بمرض أو خوف أو نقص في مال أو في أوضاعه الاجتماعية، فيؤدي به ذلك إلى اليأس والجزع والإحباط وأحياناً إلى الكفر من خلال ما يعترض فيه على الله مما وقع عليه من بلاء.. ولو فكّر هذا الإنسان ملياً لرأى أنّ الحياة التي نعيشها ليست رحلة مريحة منعمة سعيدة لذينة بكلّ أمورها، ولكن منذ ولد الإنسان وهو يبكي ويضحك، يتألم ويلتذ، يشقى ويسعد، يمرض ويشفى، ويجد حاجاته في وقت ولا يجدها في وقت آخر.. فلو درس الأمر دراسة طبيعية معقولة فإنه يرى أنّه ما من شوك إلاّ وفي داخله شيء من الورد، وما من تعب إلاّ وتعبه راحة، وما من شقاء إلاّ وبعده سعادة، وما من عُسر إلاّ وبعده يُسر.

ولذا، فإنّه عندما يُصاب بمرض عليه ألاّ يسقط أمام انفعالاته بفعل إحساسه بالمرض، بل عليه أن يدرس سبب نشوء المرض وظروف الشقاء ليتفادى هذا المرض.. وهكذا إذا ابتلي بضيق في رزقه، عليه أن يعرف أنّ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ - ٣) فعندما يدرس المسائل بدقة ويفهم طبيعة الحياة يجد أنّ هناك الكثيرين ممن مرضوا ثم شفوا، افتقروا ثم اغتنوا، تعسّرت أمورهم ثم تيسّرت، وعندها لا يُصاب باليأس، لأنّ أبواب الأمل تكون

قد نمت في قلبه من خلال دراسته للحياة في تجربته السابقة وتجارب الذين من حوله، وعند ذلك لن يكفر أو ينتحر، لأنه سيجد أن ابتلاء الله له رحمة منه ليقوّي له بعض عناصر شخصيته من خلال مواجهته للبلاء الذي سيرفعه عنه فيما بعد.

امتدادات الضعف

ونعود إلى آيات هذه السورة المباركة لنتعرّف على شخصية نموذج من الناس تسقط تحت تأثير نقطة الضعف ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ كان سليماً فصار مريضاً، وغنياً فصار فقيراً، وأمناً فصار خائفاً، كان صاحب منزلة وموقع، ففقد منزلته وموقعه ﴿إِنَّهُ لَيَوُوسُ كَفُورٌ﴾ يئأس تحت تأثير نزع هذه الرحمة والنعمة والرزق ويؤدي به ذلك إلى الكفر.

وفي جانب آخر ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نَعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ﴾ كان مريضاً فشفاه الله، وفقيراً فأغنائه، رفعه إلى الدرجات العليا في المجتمع بعد أن كان في المواقع السفلى.. هنا ماذا يكون ردّ فعله؟ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ ذهب عهد الشقاء وجاء عهد السعادة فيُخَيِّلُ إليه أنه وصلَ إلى حالة الاكتفاء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ تأخذه حالة العلو، ككثير ممن يصبح غنياً فإنه لا يحتاط لنفسه، فيبدأ بالإسراف والتبذير، أو يصبح في الدرجة الرفيعة من السلم الاجتماعي فيطغى ويبطر، وتتملكه حالة الفرح، وليس الفرح بمعنى السرور الهادئ المطمئن، بل المقصود بالفرح هو البطر الذي يستولي على كلّ مجالات شخصيته فيُشعره بالطغيان والاستبداد ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَىٰ﴾ (العلق: ٦ - ٧) بمجرد أن يُحس بالاكْتفاء وانتفاح الشخصية، فإنه لا يفكر بالموت والمرض والفقر لأنه يستغرق في الجوّ الذي يستولي عليه، ولا يحتاط للمتغيرات والتطورات، ولا يدرس الأمور فيما يحيط بها من ظروف وأوضاع ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ يعيش الفرح الذي يأخذ بمجامع قلبه فيغفل عن العواقب وعن أن الحياة تتبدّل دائماً من حال إلى حال فيأخذ البطر والطغيان.

نموذج الصبر والصالح

تعرفنا على نموذجين من الناس، وهناك نموذج ثالث ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هؤلاء الذين يتمردون على نقاط ضعفهم، فإذا جاءهم الفقر بعد الغنى صبروا ودرسوا ظروف الفقر.. وهنا عندما يفتقر المؤمن بعد الغنى، فإنه لا يفقد توازن عقله ولا وضوح رؤيته للأشياء، فيدرس أسباب افتقاره وخسارته، ويصبر على آلام فقره محاولاً حل مشكلته إذا كانت ناشئة من خطأ في طريقته بإدارة الأمور، أو من خلال من مكر به وخدعه وضيق عليه، فيعالج أوضاعه من هذه الناحية، أو من خلال ظروف عامة فيصبر ويرتب وضعه حسب واقعه الجديد بانتظار إمكانية تبدل الظروف. وهذا الإنسان نفسه إذا كان في فقر فاغتنى فإنه يشكر الله ولا يبطر، وإذا كان ضيعاً فارتفع، فيحس بنعمة الله عليه وبالامتنان له سبحانه فيما أنعم به عليه، ويشعر بأن هذه النعمة مسؤولية من الله يتحملها فلا يسرف ولا يبذر، وكما أن صموده أمام الفقر يحتاج إلى صبر، فإنه يرى الصمود أمام النعمة يحتاج إلى شكر.

هذا نهج الصابرين، الذين يجعلون من صبرهم قاعدة للوعي، لوعي مسؤولياتهم عندما يفتقرون بعد غنى، أو يغنون بعد فقر، فيتحركون في الخط المستقيم الذي أراده الله لهم أن يسيروا فيه ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يغفر الله لهم من خلال صبرهم وعملهم الصالح ما أسلفوه من السيئات باعتبار ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤) ولهم أجر كبير على عملهم الصالح، وبذلك يحصلون على خير الدنيا والآخرة.

من هذا المنطلق يتوجب على الإنسان ألا يواجه تطورات الحياة وتغيرات الواقع وأنواع الابتلاءات بطريقة إنفعالية، بل بطريقة عقلانية متزنة تحسب حساب الأشياء كلها، وتجعل لكل مشكلة حلاً، وتبحث لكل داء عن دواء، وتدرس بعمق متطلبات المرحلة.

فالإنسان الذي يصبر ويعيش التوازن في حركته هو الذي يفتح في كُلِّ مسؤوليات حياته على أساس الصبر، وهو بذلك يتمثل المواقف التي عاشها الأنبياء فيما ابتُلوا، ومن بعدهم الأئمة والأوصياء والعلماء والمجاهدون والدعاة إلى الله والعاملون في سبيله.

طمانينة وثبات الداعية

وقد ابتلي النبي (ص) بالذين يخضعون لذهنية خاطئة لا تدرك أن النبوة فعل تغيير لمنهج الحياة على أساس الوحي، بل فهموا النبوة فعلاً خارقاً يتطلب من النبي حتى يؤمنوا بنبوته أن يُغيّر الكون ويبدل في أنظمتهم وقوانينه ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإسراء: ٩٠ - ٩١) فليست مهمة النبي تغيير الكون بل تغيير عقل الإنسان وقلبه وسلوكه ونمط علاقاته ومواقفه المغايرة لمنهج الله سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ويريد الله تعالى تثبيت وتقوية موقف النبي (ص) بطريقة وقائية ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ قد يضيق صدرك من خلال طروحاتهم التعجيزية التي لا يريدون من خلالها الانفتاح على الله تعالى، بل يهدفون إلى إرباكك واسقاطك، لتتخلى عن الدعوة إلى الله، وتبتعد عن هدفك ليرضوا عنك ويقبلوك بعد أن تكون عاجزاً أمامهم ولا تستطيع أن تلبى طلباتهم ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾ فلماذا لم ينزل الله إليك كنزاً كونك متصلاً بالسماء؟ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ ولماذا لم يبعث الله معك ملكاً يرافقك؟ وأمام كل تحدياتهم التعجيزية والتي لا مبرر لها، يبعث الله الهدوء والاطمئنان في قلب النبي (ص) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ مهمتك أن تنذرهم وتوضح لهم أهداف دعوتك، والأمور الأخرى يتكفل بها الله سبحانه، فاصمد واخلص لمهمتك، ولا يستقرزك الذين

يحاولون أن يوحوا إليك بأنك لن تحصل على ثقتهم إلا بعد أن تأتي لهم بالمعاجز، أو تبدل الكون بطريقة وبأخرى، فلا تسقط نفسك أمامهم لأنك لم تقصر في مهمتك، فليقولوا ما يقولون، وأنت منذرٌ وبشيرٌ وبعدها ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

وهذه المسألة لا يخاطب الله تعالى بها نبيه (ص) وحسب، بل هي تعني كل العاملين في سبيل الله، فهذه التحديات تحاول النيل من العلماء الرساليين الذين يواجهون قضية الاستكبار العالمي والصهيونية لتطويقهم وإرباك حركتهم، وتحاول أيضاً إضعاف تحرك المؤمنين الرساليين في دعوتهم وجهادهم، وذلك بالضغط عليهم في كثير من الأوضاع السلبية التي يضغط عليهم بها مجتمعهم، من الأقربين والأبعدين، ليتروا مسؤولياتهم في الدعوة والعمل، ليضيق صدرهم ويعيشوا حالة التعقيد والإحباط، ولكن القرآن ينادي بهؤلاء الرساليين أن يدرسوا مهماتهم ومسؤولياتهم، لأن المهم أن يرضى الله عنهم ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠) وليس فقط هؤلاء بل حتى بعض المسلمين الذين يحملون عقلية يهودية، وعقلية غير إسلامية، من الذين لا يريدون من الرسالي أن يكون ملتزماً ومستقيماً وتقياً، بل أن يكون سائراً في خطأ أهوائهم وشهواتهم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجن: ١٨). وهذا هو خطأ الإنسان الذي يؤمن بالله ويثق به وبصواب وصحة طريقه، وعندها لن يسقط ويضيق صدره، وإذا ما قام بمسؤولياته ووصل إلى نهاية رحلة العمر في الدنيا جاء النداء المحبب ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾ (الفجر: ٢٧ - ٣٠).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣ - ١٤).

التحدّي والتحدّي المضاد

وتستمر التحديات بوجه رسول الله (ص) من قبل المشركين، ومن بينها أن كتاب الله الذي أتى به من قبله سبحانه، إنما ابتدعه واقتري على الله بأن نسب إليه هذا الكتاب ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أثاروا الحملة الإعلامية ضد رسول الله (ص) واتهموه بالإفتراء، ولكن ما هو ردُّ الفعل أمام هذه التهمة؟ إن الله يريد للنبي أن يواجه هذا التحدي بتحدٍّ أكبر: إنكم تدعون أنني افتريته، ومعنى ذلك أنه كلام بشر، وعلى هذا فالبشر يستطيعون أن يأتوا بمثله، فإما أن أكون قد أتيت به ولم يسبق لي في حياتي أن أخذت بأسباب البلاغة في خطابة أو شعر، وما إلى ذلك، وإما أن يكون هذا مما علّمني إياه الآخرون، إذاً هو كلام بشر حسب قولكم.. وعلى هذا ففيكم الخطباء والشعراء، ومجتمعكم مجتمع مكة الذي يلتقي الشعراء فيه كلّ سنة في سوق عكاظ ليقدم الشاعر شعره والناثر نثره، ليعرف من هو الأبلغ والأرقى في التعبير والبيان، ولذلك فإنني أطلق التحدي ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ واختاروا أقصر السور، وليست المشكلة في طول السورة وقصرها.. وهذا التحدي أطلقه باتجاه من تعتبرونه رموزاً ومرجعيات مطاعة تؤمنون بها وتتعبّدون لها ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إذا كنتم صادقين في ادّعاءكم بأنني جنّت بهذا الكتاب من عندي ونسبته إلى الله تعالى.. وإنني لا أحصر التحدي في مجتمعاتكم الضيقة، بل أقول، بأن هناك قمماً في حياتكم تدعونها من دون الله، فليأتوا بكلام كهذا الكلام، إذا كان البشر يستطيعون أن يأتوا بمثله ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ وبعد أن يأخذ التحدي مجراه، ويمرّ زمن ولا يستجيبون لكم، عند ذلك يمكنكم - أيها المؤمنون - أن تعيشوا القناعة بأن ما أتيتُ

به هو كلام الله ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو القادر الذي لا يملك أحدٌ مستوى قدرته، ويؤيدُّ رسوله بالمعجز من كلامه، كما يؤيدُّ بقية رسله بالمعجز من آياته الأخرى، حيث لكلِّ رسول موقعٌ في حركة التحدي تبعاً لطبيعة الواقع الذي يعيش فيه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هل تسلمون أموركم وحياتكم لله من خلال هذا الإيمان التوحيدي المنفتح عليه سبحانه؟ والإسلام يُطلق النداء، ومن الطبيعي أن هذا النداء يترك في وعي الإنسان أثراً إيجابياً ليتفاعل معه ويتحرك من خلاله على أساس الواقع.

مناقشة

ونعود إلى مسألة التحدي التي يطرحها القرآن الكريم، فالتحدي كان يتدرج من الإتيان بمثل سورةٍ من القرآن أو عشرٍ أو بمثل القرآن كله، وبالعكس. ومن سؤالا هل الإعجاز الذي تحدى الله تعالى به عباده، هو إعجازٌ من ناحية بلاغة القرآن، أم أن يأتوا بمثله في بلاغته وفصاحته، أم أن الإعجاز كان من خلال مجموع ما في القرآن من خصائص فكرية وفلسفية وتاريخية، أم من خلال ما أثاره القرآن من لمحات علمية لم ينتبه إليها الإنسان إلا بعد حين؟

يذهب كثير من المفسرين ومنهم السيد الطباطبائي (رحمه الله) صاحب الميزان، بأن التحدي، كان بكل ما في القرآن من أسرار ومعارف وعلوم، لأن الخطاب موجّه إلى كل الناس من عرب وعجم، فمن لا يملك معرفة اللغة العربية فكيف يمكن أن يوجه إليه التحدي في البلاغة؟

نحن نخالف السيد الطباطبائي فيما ذهب إليه، ونرى أن التحدي كان بالبلاغة، لأننا عندما ندرس بعض سور القرآن، فإننا لا نجد فيها أسراراً علمية أو تشريعية،

كما في سورة الكوثر وغيرها. ولذا فعندما يتحدّاهم بالإتيان بسورة واحدة، فإنّه يتحدّاهم بلاغياً، نعم لو كان التحديّ بأن يأتيوا بمثل القرآن كلّهُ لكانت المسألة تحتمل ذلك، ولكننا نلاحظ أنّ القرآن طرح عليهم التحديّ متدرّجاً من الأكبر إلى الأصغر، أي من القرآن كلّهُ، إلى عشر سور، إلى سورة واحدة، ومع ذلك لم يستطيعوا الإستجابة لهذا التحديّ. والقرآن جاء على لسان النبيّ (ص) بأسلوب سهل ممتنع فوصل إلى قمة الإعجاز، ولم يستطع المجتمع العربيّ بكلّ ما فيه من فصحاء وبلغاء وشعراء أن يأتي بسورة تصل في فصاحتها وبلاغتها إلى حدّ سورة واحدة من القرآن من مثل سورة الكوثر مثلاً. هذه نقطة، والنقطة الثانية التي تؤكد ما ذهبنا إليه أنّ كلّ الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) تشير إلى أن الله تعالى ينزل المعجزة بحجم الواقع الذي يتحرّك فيه النّاس، ففي زمن موسى (ع) كان السحرُ الغالب على مجتمعه وأهل عصره، فلذا كان يحتاج إلى أن يتحداهم بما يُبطل سحرهم، وكان الغالب على المجتمع الذي عاش فيه عيسى (ع) الطبّ، فكان لا بدّ أن تتناسب المعجزة مع ما يهزم طبّهم الذي لا يستطيع معالجة القضايا المستعصية كالموت مثلاً. لذلك كانت معجزته (ع) في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وهكذا في زمن رسول الله محمد (ص) فكانت البلاغة المسيطرة على واقع الناس فيما يعتزّون ويفخرون، فالله بعث على يديه الإعجاز الذي تحدّى وأربك كلّ إمكاناتهم البلاغية.

وأما أنّ النبيّ (ص) جاء ببعض الأسرار والمعارف والعلوم التي لم يعرفها عصره كونه لم ينطلق في ذلك من ثقافة ذاتية لأنّه لم يقرأ ولم يكتب، فهذا دليل على صدق النبيّ (ص) لا على الإعجاز.

﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَقَلَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥) .

(٢٤)

أهمية الهدف في حياة الإنسان

لا بد أن يكون للإنسان في الحياة هدف يسعى إليه من خلال أفعاله وأقواله وعلاقاته، وقد تتشابه الأهداف وتختلف.. فهذا يصلي مثلاً وذاك يصلي، ولكن هذا يصلي إخلاصاً لله تعالى لا يريد إلا وجهه، وذاك يصلي صلاة رياء فارغة من أي مضمون، يريد بها رضى الناس. وهكذا في كثير من الأمور، فقد يقوم شخص بأعمال خيرية، من بناء مدرسة أو مسجد أو مستشفى وما إلى ذلك، ويقصد من كل ذلك وجه الله تعالى، وآخر يقوم بأعمال مشابهة ولكن يقصد بها وجه الناس. وقد يدخل إثنان في معركة من معارك الإسلام، ولكن أحدهما ينطلق في المعركة لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الشيطان هي السفلى، والثاني يدخل المعركة من أجل حالة ذاتية، أو ثأر شخصي، أو أي أمر لا علاقة له بالله تعالى.

العمل في كل الأحوال يمثل عند الطرفين شكلاً واحداً وصورة واحدة، ولكن ما يجعل صاحب العمل قريباً من الله أو بعيداً عنه، هو الهدف من العمل ونية هذا العمل. واحد يريد بعمله الآخرة ورضى الله، وآخر ليقرب من الناس، تحصيلاً لمنفعة وتحقيقاً لمأرب شخصي لا علاقة له بالآخرة ورضى المولى سبحانه. فالمسألة تتلخص بالسؤال التالي: هل يريد الإنسان حياة الدنيا للدنيا، أم يريد الحياة الدنيا للآخرة؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

من أراد الحياة الدنيا للدنيا فليس له إلا الدنيا، ويعطيه الله ما يشاء من هذه الدنيا بحسب حكمته، ولكنه عندما يصل إلى الآخرة، يصل صفر اليدين، لأنه لم يلحظ هدف الآخرة في حياته. ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ

الجحيم هي المأوى» (النازعات: ٢٧ - ٣٩) لقد طغى وتجاوز الحد، فغلب جانب هدف الدنيا على هدف الآخرة، وفي مقابل هذا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ (النازعات: ٤٠) عرف ربّه وموقع عظمتة وسار في الخطّ المستقيم الذي رسمه له، وأدرك مسؤوليته تجاهه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤١) فوظّف أفكاره ومشاعره وأحاسيسه لتحقيق هدفه فيما يُرضي ربّه، فنال ما أراد.

إذا ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا﴾ حيث كلّ همّه أن يحصل في الحياة على ما يرفع شأنه ليعظم أمره ويكثر ماله ويحقّق مطامعه، ويشبع نهمه وغرائزه. ويستولى كلّ ذلك عليه في الليل والنهار ﴿وَزَيَّنَّتْهَا﴾ يريد زينة الجسد والبيت، وزينة الواقع الاجتماعي والجاه والمنصب ﴿ثَوَفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ فيمدُّ الله للإنسان، يعطيه مالاً وموقعاً وكلّ ما يمثل الزينة التي يريدها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يعطيهم ما يريدون بلا نقصان.. ولكن عندما يقدّمون عليه في الآخرة للحساب، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لأنهم استغرقوا في الحياة الدنيا وفي زينتها، فنسوا الله والدار الآخرة ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (طه: ١٢٥ - ١٢٦) كالكمية المهملة لا يعتني بك أحد، ولا يعبك أحد ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وسقطت كلّ أعمالهم «الخيرّة» التي صنعوها في الدنيا، لأنّ هدفهم في هذه الأعمال لم يكن رضى الله، بل كان تحصيلاً لمواقع اجتماعية متقدمة عند الناس. فلا قيمة للأعمال إذا لم تكن مرتبطة بالله ومترافقة مع خطّ الايمان ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الأنبياء: ٩٤) فالايان مرتبّ بالنية. قال أبو عبد الله (ع): «إِنَّمَا خَلَدَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ لَأَن نِّيَاتِهِمْ

كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء^(*). ونتائج أعمال هؤلاء ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن عملهم لم ينطلق من الله ومن محبته والقرب إليه سبحانه.

البينة

ويتناول القرآن الكريم الحديث عن الفريق الذي يفتح على الله في إيمانه من خلال البينة ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فهو يملك البينة على الحق الذي يدعو له ويؤمن به، ويتلو هذه البينة شاهد من ربه أو من نفسه، بحيث يشهد له بالصدق والرسالة ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكان كتاب موسى (ع) وهو التوراة أول كتاب سماوي شامل يتضمن العقائد والشرائع، أنزله الله على الناس رحمةً، وذلك فيما أحل لهم وحرّم عليهم، وهو إمام الكتب السماوية الشاملة، ومن بعده الإنجيل ثم القرآن. وقد كان رسول الله (ص) يقول لليهود: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣) لماذا تخفون التوراة وفيها تصديق رسالتي، والبشارة بي من قبل موسى (ع)؟

والقرآن الكريم في هذه الآية ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يوازن بين من يملك الصفات الإيمانية التي ذكرناها ويدعو الناس للإيمان بها، وبين الذين لا يملكون هذه الصفات من المنحرفين عن خط الله ورسوله ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بهذا الخط وبالرسول وبالقرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ الذين تنوعت مواقعهم وخطوطهم ومجتمعاتهم على أساس عشائري وطبقي وعنصري ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾

(*) الكافي مجلد ٢ ص ٨٥ رواية ٥.

جزاء لما جنته أيديهم من الكفران والجحود ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ لا تكن في شك مما أنزل إليك من ربك من القرآن والرسالة ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ باعتبار أنه يمثل الحق في أحكامه وأفكاره ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم لا ينفثون على الحق من خلال عناصره الأساسية، بل يعيشون على السطح دون أن يغوصوا في العمق لاكتشاف الحقيقة، ولذا فإنه يجتذبهم من يثير الشبهات والإشكالات ويعمل على إثارة الفرائز.

سبب الظلم ومصير الظالمين

ويعالج القرآن من خلال هذه السورة المباركة جريمة الكذب على الله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إن هؤلاء الذين يكذبون على الله، فيحللون ما حرم سبحانه ويحرمون ما أحل وينسبون إليه كثيراً من الأقوال والأحكام والمفاهيم التي لم يشرعها، يمارسون أبشع الظلم، ويعتدون على حق الله تعالى، وعلى الناس لأنهم يصورون الباطل بصورة الحق، وبذلك يكون الظلم مضاعفاً، ظلم لله وظلم للعباد، كما أنهم يظلمون أنفسهم لأنهم تورطوا في خطئ عقاب الله سبحانه، ويظلمون الحياة والحقيقة، لأن انتشار هذه الأكاذيب تسيء إلى مسيرة الحياة وطهارتها وصدقها، وهذا من أبشع الظلم، لأن الظالم عندما يزور الحقائق، فإنه يزور وعي الناس ورؤيتهم لحقائق الأشياء... فالذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه ما لم يقله ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويدفعون بكل هذه المفاهيم المزيفة والكاذبة والخاطئة إلى عقول الناس وأحاسيسهم ومشاعرهم، فإنهم يزورون الحياة كلها ويعتدون على كل حركة فيها، من خلال الانحراف الذي يوجهونه ويعيشونه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ من أظلم من هذا الإنسان الذي

يؤدي كذبة على الله إلى نتاج سلبية في كثير من المواقع والمجالات؟ ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليحاسبهم يوم القيامة ويصدر حكمه عليهم ﴿وَيَقُولُ الشَّهَادُ﴾ والله تعالى لا يحتاج إلى شهداء ليشهدوا على هؤلاء بضلالهم، ولكن لينطلق الحكم عليهم بقناعة الناس فيما سمعوا عنهم، وشاهدوا أفعالهم، أو بشهادة أعضائهم وجوارحهم عليهم فيما ارتكبوه وفعلوه ﴿هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وكلمة اللعن تعني الإبعاد عن رحمة الله تعالى، فهؤلاء الذين ظلموا ربهم بالإفتراء عليه، وظلموا الناس بتزيف أفكارهم، وظلموا الحقيقة والحياة وأنفسهم، هم بعيدون عن رحمة الله. وهكذا نفهم من هذه الآية المباركة أن الله تعالى يلعن كل ظالم، سواء ظلم نفسه بالكفر والمعصية، أو ظلم الناس بالبغي والعدوان، باعتبار أنه سبحانه أطلق اللعنة على عنوان الظلم كله.

وأما صفة هؤلاء الظالمين الذين لعنهم الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي هؤلاء الذين يقفون في الطريق ليحجزوا الناس عن الإنطلاق في سبيل الله، عندما يريد الناس أن يؤمنوا بالله، فيمنعونهم بالآعيبهم وأساليبهم وضغوطهم، ويصدونهم عن طريق طاعة الله بإثارة الأجواء الضالة التي تُغريهم وتزيّف إرادتهم وتدعوهم إلى الانحراف، وهم بذلك ينفذون جريمتين، جريمة ابتعادهم عن سبيل الله، وجريمة صدّ الناس عن سبيل الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله هو الخط المستقيم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدون الطريق منحرفاً أعوج يؤدي إلى غير الله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ لأنهم استسلموا للدنيا وللانحراف، واعتبروا أن الدنيا نهاية المطاف، ولم يوقنوا أن هناك حساباً ووقفاً بين يدي الله في الآخرة ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ قد يظنون أنهم يملكون القوة والسطوة والسلطة، ولكن الله

يمهلهم ويمهل أمرهم إلى حين حتى يأتي موعده، وعند ذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولو أرادوا أن ينتصروا لأنفسهم، إذا ما أراد الله تعالى أن يأخذهم في الدنيا أو الآخرة، فإنهم لن يجدوا أحداً ينصرهم من دون الله ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم ارتكبوا جريمتين، إبتعادهم عن سبيل الله، وصدُّهم الناس عن هذا السبيل ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لماذا لا يسمعون ولا يبصرون مع أن لهم أذاناً وعيوناً يسمعون ويبصرون بها؟ وأجاب القرآن على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الاعراف: ١٧٩) لا يسمعون بها لأنهم لم يفتحوا على ما يراد لهم أن يسمعوه، ولا يبصرون لأنهم لم يوجهوا أبصارهم إلى ما يجب أن يبصروه، ولذلك صار حالهم حال مَنْ لَا يملك السمع فلا يسمع، وحال مَنْ لَا يملك البصر فلا يستطيع الإبصار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ خسروا أنفسهم لأنهم خسروا الله، ووقعوا تحت وطأة سخطه، وبذلك كانت آخرتهم آخرة العذاب الخالد في نار جهنم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ضاع وذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ولم يبق إلا المصير الذي يواجه الإنسان في مقام وموقع المسؤولية ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ كلمة (لا جرم) تُستعمل بمعنى (حقاً) وتتضمن معنى القسم، إذاً، حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون، أي الأشدُّ خسارةً في ذلك اليوم العظيم، يوم القيامة.

موازنة

وفي مقابل الأخسرين تظهر لنا صورة المؤمنين الصالحين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الإخبات إلى الله هو الإنابة إليه سبحانه، فهؤلاء المؤمنون الصالحون خضعوا لربهم وخشعوا إليه وعادوا إليه منيبين مستغفرين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ويوازن القرآن الكريم بين المؤمنين والكافرين ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ فمثل المؤمن كالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، ومثل الكافر كالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى، فالكافر يسير في الظلمات، أما المؤمن فيسير في النور ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وهذان الفريقان ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فهل يمكن أن نساوي بين مثل المؤمن ومثل الكافر؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حاولوا أن تنزعوا الغفلة عن أفكاركم لتنفثوا على الله في يقظة واعية حتى تتذكروا الحقائق لتوازنوا بين فريق الايمان وفريق الكفر، لكي تختاروا السير على خط الله، وتجتنبوا السير على خط الكفر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ
 إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ
 لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا
 كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
 الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ
 يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥ - ٣٠).

النبي المنذر

في هذه الفصل من سورة هود ينقلنا القرآن الكريم في جولة تاريخية رسالية ليضعنا أمام حركة الأنبياء (ع)، وليُطلِّعنا على أسلوبهم في الدعوة إلى الله، الذي تميَّز بالرحمة والصبر والثبات، وليعرِّفنا أجواء أقوامهم في المواجهة والتحدِّي والتمرد، وذلك حتى نتحمَّل مسؤوليتنا الرسالية في الحياة، مستلهمين خطوات الأنبياء (ع) في أسلوبهم ودعوتهم إلى الله تعالى، موقنين أننا جزءٌ من هذه المسيرة الرسالية الطويلة التي بدأت بآدم (ع) وانتهت بمحمد (ص)، وتحركت في خطِّ الأئمة (ع) والعلماء الدعاة إلى الله الأذلاء على سبيله.

ونبدأ مع مسيرة نبيِّ الله نوح (ع) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ من الطبيعي عندما يرسل الله تعالى رسولاً، فإنَّ المنطقة التي يتحرَّك فيها الرسول للتبليغ والدعوة هي منطقته التي يعيش فيها، باعتبارها القاعدة التي ينطلق منها إلى العالم، لأنَّ طبيعة الرسالة لا تختص بمفاهيمها ومضمونها بجماعة دون أخرى، وهذا ما نفهمه من نداء نوح لقومه ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فتوحيد الله تعالى ليس مختصاً بقوم دون قوم، وإنَّما يشمل البشرية كلّها في كلّ مرحلة من مراحلها، لذا فإنَّ دعوته (ع) هي دعوة جميع الأنبياء من بعده.

ويأتيهم نوح (ع) رسولاً من الله ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جاء إلى قومهم لينذرهم بأنَّ هناك أخطاراً وأهوالاً يمكن أن تواجههم في مستقبلهم، سواء كان مستقبل الدنيا أو مستقبل الآخرة، وسبب هذه الأخطار أنَّهم ينطلقون في حياتهم من قاعدة الوثنية، فيعبدون الأحجار التي لا تضر ولا تنفع، فيستغرقون فيها ويعطونها قيمة لا تحملها، فهي أحجار كبقية الأحجار، ولذا، فإنَّ هذا الإستغراق فيها جعلهم ينحرفون في حياتهم عن النهج الصحيح، ويتعدون عن الله تعالى، بحملهم لتلك الذهنية المتحجرة، ورفضهم لأيَّ ذهنية منفتحةٍ على الحياة والمستقبل.

وهم بهذا يعيشون الإنغلاق في حياتهم، لأنهم ربطوا حياتهم بحاجاتهم ولم يربطوها بأهدافهم، لأنَّ مَنْ يعبد الحجر يعبد المادة، وبذلك تكون حياته مشدودة إلى أمثال الحجر مما يتحرك في واقعه ومن حوله. بينما الإنسان المؤمن فإنَّه يرتبط بالله الذي يملك الأمر كله من حيث أنَّه خلق الوجود كله، فهو يدبّر الأمر وينظّم للناس حياتهم، ولذا فإنَّه يشعر أنه مشدود إلى الله بكل شيء، بكل حاجاته وأهدافه في الحياة، فالله سبحانه خلقه من عدم وهو الذي يرزقه، وكما يبتليه بالمرض فإنَّه يعطيه الصّحة، وكما يُميته فإنَّه يعود إليه، فيحسّ عندها أنَّه يتحرك ضمن نظام دقيق، ليس فيه أية حركة عمياء خاضعة للصدفة. وهو بذلك يرى أنَّ الحياة تمثّل انفتاحاً على المستقبل الكبير، حيث الدنيا مجرد مرحلة تليها مرحلة الدار الآخرة الواسعة الإمتداد والمنفتحة على الخلود.

وهكذا يريد نوحٌ (ع) أن ينذرهم بما يمكن أن يحصل لهم في مستقبل الدنيا والآخرة ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لأنذركم بالأخطار المستقبلية التي ستواجهونها، والتي يمكن أن تتفادوها فيما لو وحدتم الله تعالى ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فإنَّ توحيدوا الله في العبادة، معناه أن تخضعوا له سبحانه في كلِّ أموركم التي تتصل بالجانب الفكري والعاطفي، وبالجانب العملي فيما تأكلون وتشربون وتستمتعون وتسكنون، وفيما تبنون من علاقات في مواقف إيجابية وسلبية، وفيما تقاتلون وتسلمون وتبايعون وتشاورون. فالعبادة ليست فقط هذه الحركات الصلواتية. وإنَّما هي الخضوع المطلق لله سبحانه، فمعنى أن يعبد الإنسان ربَّه، أن يخضع له غاية الخضوع، في استقامته على خطّه، وفي التزامه بأوامره ونواهيه، وعلى هذا فإنَّ الآية المباركة ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ تشمل الدين كله، وبهذا نستطيع أن نعرف أنَّ الذين يخضعون لغير الله بقلوبهم، فإنَّهم يعبدون غيره، ولذا ورد في الحديث «مَنْ أَصْغَى

إلى ناطق فقد عبده»^(*). فقد يصغي إنسان إلى آخر منجذباً إليه بعقله وقلبه، فإنه يخضع له، وهذا نوعٌ من أنواع العبادة، فإذا كان كلام الناطق يؤدي إلى الله فقد عبد الله، وإن كان يؤدي إلى طريق الشيطان فقد عبد الشيطان ﴿الْمَ أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠ - ٦١). فالعبادة للشيطان ليست الصلاة له، وإنما الخضوع والطاعة والإستسلام له واتباع خطواته.. فإذا ما اتبع الإنسان أحداً من دون الله، بحيث إذا أمره حاكمٌ أو زعيمٌ أو أي شخص بأمرٍ لا يرضاه الله وأطاعه في ذلك، فقد عبده من دون الله تعالى.. فكلُّ عبادة لغير الله أو طاعة أو التزام بشريعة وقانون لغير الله معناه عبادة للطاغوت، ولذا فإن المؤمنين أدركوا خطورة ذلك، فحدثنا القرآن عن حالهم، بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ (الزمر: ١٧).

إنسانية الأسلوب

وبعد أن يحذرهم نوح (ع) من عواقب حركتهم في الحياة يقول لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ويواجههم بالأسلوب النبوي العاطفي الروحي، لا بالإسلوب المهذّب المتوعّد، فأسلوبه يختزن روح الأبوة والعاطفة والحنان، وكأنّه يقول لهم: أطلب منكم أن تعبدوا الله، لأن قلبي متعلّق بأوضاعكم، وخائفٌ عليكم، أتحسّس مستقبلكم، وما ستعرضون له من العقاب من الله لو بقيتم في خطّ الانحراف.

وهذا الأسلوب النبوي نلمحه في مسيرة الأنبياء، حيث يأتي النبي إلى عبّاد الأصنام والأوثان ليدعوهم إلى الله من موقع عاطفة روحية توحى بأنّه يحدثهم من موقع خوفه عليهم لا من موقع غلظة وقساوة وتهديد. وهذا ما نتعلّمه من الأنبياء (ع)

(*) الكافي المجلد ٦ ص ٤٣٤ رواية ٢٤.

فيما لو أردنا هداية إنسان منحرف أو فاسق، فإن علينا ألا نواجهه بالذهنية القاسية المعقّدة، بل أن نفتح قلوبنا له، حتى نوحّي إليه بأننا حريصون عليه من موقع قلوبنا المفتوحة عليه لينجذب إلى خطّ الصلاح والإيمان من خلال العاطفة التي يتحسّسها في أسلوبنا وكلماتنا، فيكون ذلك وسيلة ندخل عبرها إلى قلبه وعقله.

لذا نقول لكلّ العاملين في سبيل الله: ادخلوا إلى قلوب الناس قبل أن تدخلوا إلى عقولهم، لأنّ الطريق إلى العقل هو القلب، فإذا استطعتم أن تكسبوا عاطفة ومحبة إنسان، فإنكم تستطيعون أن تصلوا إلى عقله من أقرب طريق.

الفوقية والإسعلاء

ومن هذه الفكرة انطلق نوحٌ (ع)، ولكنّ الذين جمّدوا عواطفهم وعقولهم رفضوا ما أُنذِرهم به ووجههم إليه ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ﴾ وهنا نعرف طبيعة الذهنية التي كانت تحكم قومه فيبدون من خلال ردّة فعلهم أنّهم كانوا يعيشون الطبقيّة الإجتماعية، إضافة إلى أنهم ينظرون إلى نبيّهم بأنّه بشر، ولا يمكن للبشر أن يكون مرتبطاً بقوة إلهية، فبشرّيته تنفي أن يكون رسولاً من قبل الله، لأنهم يتصورون النبي ملكاً من الملائكة، وعلى هذا فليس للبشر أية علاقة بالله. وهذه الذهنية جعلتهم يرفضون دعوة نوح (ع) لأنّ من آمن به من قومه لم يكن في المستوى الإجتماعي المتقدّم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَانَا﴾ الذين يمثلون الطبقة السفلى في المجتمع، أي أراذل المجتمع الذين لا يملكون مالاً ولا قوة ولا جاهاً ولا امتيازات، فإذا ما أمنا بدعوتك، معنى ذلك أنّك تساوي بيننا وبينهم، والفارق كبيرٌ بين واقعنا المتسلّح بالقوة والسلطة ومواقعهم الفقيرة الضعيفة.

إذاً، رفضنا لدعوتك ينطلق من اتباع الأراذل الضعفاء لك ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ أي هؤلاء الذين يحكمون على الأمور من خلال سطحها وبدائيتها من دون تفكير وتأمل، وكلمة (بادي الرأي) أي الرأي الأول والنظرة الأولى، وعلى هذا فإن الذين اتبعوك هم الذين لم يتعمقوا في الأمور، هم البسطاء الأميون الذين لا يملكون عمقاً في الفكر ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فليس لكم علينا فضل، الفضل للأغنياء، لأصحاب الجاه والسطوة والسلطان ﴿بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ليس من الممكن أن تكونوا صادقين، لأن الصادقين هم الأغنياء والوجهاء وأصحاب الامتيازات، أو الذين يكونون من صنف الملائكة وأشباههم.

رغم التمرد يبقى الحوار أساساً في الدعوة

ورغم استكبارهم واستعلائهم يبقى نوح (ع) في خط الدعوة إلى الله بالرحمة والهدوء النبوي المتميز ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ مشكلتي معكم أنني أتحدث بلغة، وأنتم تتحدثون بأخرى، أحدثكم بالمنطق فتعتدون بامتيازاتكم، أوضح لكم خطأ الإستقامة فتفخرون بالمال والجاه وبالأمر الزائلة والطارئة، وترفضون أن أكون بشراً نبياً، فنبوتي من الله أنزلها عليّ مع البينة والدليل والبرهان، والمسألة واضحة عندي وضوح الشمس، وعندما أقدم لكم رسالة ربي فأني أقدمها على أساس البينة بحيث لو فتحتم عقولكم عليها لاقتنعتم بها، ورسالتي هذه رحمة من الله ولطف منه ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ لن تنالكم رحمة الله، ولن تعيشوا عمق الرسالة لأنها اختفت عنكم، بسبب إغلاقم لقلوبكم وعقولكم ﴿أَنزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاِرْهُونَ﴾ لا نقدر أن نفرضها، كل شيء قابل للفرض إلا القناعات الفكرية، لأن عالم الفكر والقلب لا يمكن لأحد السيطرة عليه. وقد قال الله سبحانه لرسوله (ص): ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٣) قلوب الناس بيد الله وحده يحولها
كيفما شاء.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ لم أتيكم بالرسالة لأطلب مالا أو مركزاً، أو أن
أكون عليكم زعيماً، ما أطلبه منكم أن تسمعوا وتحاوروا لتؤمنوا وتهتدوا وتسيروا في
خطا الرسالة ﴿إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فمنه وحده أمل بالأجر والثواب ﴿وَمَا أَنَا
بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لن أخضع لدعوتكم بطرد هؤلاء المؤمنين المستضعفين كشرط
وضمتموه للتفكير بالإيمان بدعوتي أم لا، أنا لن أطردهم، لأنهم استمعوا إلى الدعوة
واستجابوا لها ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ ليحصلوا على نتائج موقفهم فيما بذلوه من
صدق وإيمان وخوف منه سبحانه وتعالى ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تُجْهَلُونَ﴾ أنتم لا
تفكرون بعقولكم، بل تتحكم بكم غرائزكم وعصبياتكم وامتيازاتكم، تماماً كما يسيطر
على الجاهل جهله ، أما العاقل والعالم فهو الذي يزن الأمور بميزان العلم والعقل
والوعي، وهذا ما يوصله إلى النتائج الإيجابية في الدنيا والآخرة.

ثم يعود (ع) ليؤكد على رعايته لهؤلاء المؤمنين ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ هؤلاء صاروا جماعة الله وعباده وأوليائه، فإن طردتهم من مواقع
الرسالة لأرضائكم، فمن يدفع عني عدم نصرة الله لي؟ وإذا أراد سبحانه معاقبتي
على ذلك، هل تستطيعون أن تنصروني من دونه؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكروا أن
المسألة ليست من المسائل المتصلة بعلاقات البشر فيما بينهم، حتى يمكن أن أجد
فيكم القوة إذا ما انحرفت عن طريق الله، لأنكم لا تملكون لي شيئاً من دونه تعالى.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكُ وَلَا
 أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ
 إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُفْرتَ جِدَالِنَا فَأْتِنَا بِمَا
 تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ
 إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ * وَأُوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ
 إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَيَصْنَعِ الْفُلَ
 وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
 مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
 عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣١ - ٣٩﴾

لا زلنا في رحلتنا القرآنية مع نبي الله نوح (ع) وهو يردُّ على قومه فيما واجهوه به، ليؤكد لهم بأنه رسولُ الله، وليقدِّم نفسه من خلال رسالته لا من خلال مواقع القوة والمال والسلطة والإمكانيات ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ السَّعَةِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ إنني لا أقدم نفسي إليكم على أساس امتلاكي لخزائن الله، فيما تخزنه الأرض من ثروات، والدنيا من أموال لتقبلوني على أساس ثروتي، ولأنال الموقع المميز بينكم. كما أنني لا ادعي علم الغيب لأوحي إليكم بقدرتي على اكتشاف المستقبل، ليسرع الناسُ إليَّ ويصدقوا نبوتي، لأنَّ الله لم يجعل مهمة الأنبياء أن يكشفوا الغيب للناس في قضاياهم ومفردات حياتهم.

ومن رده (ع) عليهم ندرك أنَّ ارتباط النبي بالغيب إرتباط بالوحي فيما يريد الله تعالى أن يبلغه لعباده من أوامر ونواهٍ تكفل لهم سعادة الدارين، وإذا كان الله تعالى أطلع بعض أنبيائه على أسرار الغيب، فلأن الموقع الرسالي وطبيعة الظروف التي عاشوها كانت تفرض أن يطلعوا على بعض غيبه. ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا ادعي في دعوتي إلى الله أني ملكٌ من الملائكة، فبشيرتي هي الأساس.

خط العدل

ويعود (ع) للحديث عن هؤلاء المستضعفين الذين اهتموا وساروا في طريق الإيمان ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ هؤلاء الذين تسقطونهم من أعينكم من الفقراء والمساكين قد يكونون سكانَ جنة الله تعالى، لأنَّه تعالى أعلم بما في أنفسهم، فهو يعطيهم الخير من خلال ما يطلع عليه من أفكارهم ونواياهم وسرائرهم مما يفتحون به عليه سبحانه وتعالى من مواقع القرب عنده، وعلى هذا

فليس لي أن أزدريهم لأنهم لا يملكون مالاً ولا نسباً عريقاً، واتحدت عنهم بطريقة سلبية كما تتحدثون بأن الله لن يعطيهم خيراً ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فالله هو الذي يعلم ما في نفوس هؤلاء الفقراء وما في نفوسكم، ليقوم ذلك ويعطي لكل إنسان ثوابه وجزاءه ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وإنني إذا ما رضخت لمطالبكم في نظرتكم لهؤلاء المؤمنين الفقراء، فأكون قد ظلمت نفسي ومهمتي ورسالتي والناس من حولي، وأسقطت فكرة العدل مع الله والنفس والناس والرسالة التي تحملها دعوتي.

وَيَصْرَوْنَ عَلَىٰ إِغْلَاقِ عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ

وهكذا يطرح (ع) أفكاراً تستدعي الإثارة العقلية، ولو كانوا ممن يحترمون عقولهم وإنسانياتهم، ويحترمون إنسانية الإنسان الآخر لدخلوا معه في حوار فيما أثاره من قضايا وأمور، ولطلبوا منه أن يثبت بالدليل إمكانية أن يكون النبي بشراً، ولحاوروه في البيئة التي يملكها، لكنهم ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هم يقولون بأنهم لا يؤمنون بالمنطق ولا بالحوار، فلماذا كثرة الجدل معهم؟ فإذا كان نوح (ع) يملك القوة فليقدم قوته ولينزل ربه عليهم العذاب إذا كان صادقاً.

ويجيبهم (ع) من موقع رسالته لا من موقع ما يملكه من قوة ذاتية ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أتقدم منكم وأحاورك على أساس بشريتي، فلست ملكاً ولا أملك الغيب ولا خرائن الله، وإذا ما توعدتكم بعذاب الله لا على أساس تحديد وقت عذاب الله، وعلى هذا لا أملك هذا التحديد، ولكن إذا ما شاء الله إنزال العذاب عليكم الآن أو غداً أو بعد غد، في الدنيا أو في الآخرة، فإنكم لا تعجزونه في أي وقت من الأوقات، لأنكم عبيده وهو ربكم، وبيده وجودكم وحياتكم وموتكم، وهو قادر عليكم في كل حين، ولهذا لن تنالوا مرادكم في التحدي الذي

تطلقونه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ فليست لدي إمكانات فوق العادة في هذا المجال، لأنكم أغلقتم نوافذ عقولكم وقلوبكم، وأردتم عدم الإنفتاح على الرسالة، لذلك ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي أن الله لا يريد لكم الغواية بشكل مباشر، وإنما يريد ذلك من خلال انطلاق سبب الغواية بإرادتكم وأيديكم، تماماً كما يريد الله للإنسان الموت إذا تحقق سبب الموت، وهكذا في الغواية، فإنَّ الإنسان يَضِلُّ وينحرف إذا ما أوجد الأسباب التي تبعده عن الإنحراف وتوقعه في الغواية.. وعلى هذا فإنَّ نوحاً (ع) إذا أراد نصحهم، فإنه لا يستطيع أن يلزمهم بقبول النصيحة، أو أن يزرع في قلوبهم بذرة الخير، إذا هم لم يريدوا ذلك، وسيقدمون يوماً على ربهم ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ فإذا كنتُ كاذباً فيما أطلقه فأنتم لا تتحملون المسؤولية، أنا أتحملها وحدي أمام الله تعالى، وأنا موقن أنني لستُ كاذباً، بل أمثل الصدق كله فيما أبلغه عن ربي تعالى. هذا موقفني أعلنه وأتحمل مسؤوليته، ولكن تحمّلوا أنتم مسؤولياتكم فيما تتحملون من المسؤولية عن إجرامكم وتكذيبكم وتمردكم وغوايتكم.

نهاية المهمة

هذا الحوار الذي استمر ألف عامٍ إلّا خمسين بين نوح وقومه اختصره لنا القرآن بكلمات عدة.. وبعد أن استنفد (ع) كلَّ الوسائل من أجل هداية قومه، جاء الأمر من الله تعالى ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ انتهت المسألة، فالمؤمنون لن يزيدوا واحداً، والكافرون لن يزيدوا واحداً، وقد قمت بمهمتك - يا نوح - وتحددت كلُّ المواقف، لذا فلا تحزن ولا تتأذَّ، لقد قمت بواجبك كاملاً غير منقوص.

ويُهمل الله تعالى هؤلاء المتمردين مفسحاً لهم الفرصة والمجال لكي يؤمنوا، وبعد ذلك تستجيب الإرادة الإلهية لتحدي هؤلاء المتمردين بإنزال العذاب ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ بادر إلى صنع السفينة تحت نظرنا وبتوجيهنا ووحينا حيث سنعلمك خصائصها وما يجب أن تصنعه وما تضعه فيها ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ لقد صدرت الإرادة الإلهية، فلا تتشفع في الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك لأنهم سينالون عقابهم. ويستجيب نوح (ع) لتعليمات ربه في بناء السفينة، ويبدأ القوم بالسخرية منه، لأن المنطقة التي يصنع فيها سفينته لا بحار ولا أنهار فيها، فعلام ستسير هذه السفينة؟ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ويأتيه قومه هازئين ساخرين. ونعرف أن السخرية قد تثقل نفس الإنسان فتضعفه وتُحبطه، ولكن الله تعالى لا يريد لنوح مثل هذا الإحباط، فيطلب منه أن يواجه فعل السخرية برد فعل مماثل ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ تسخرون منا، لأننا نصنع السفينة في منطقة لا ماء فيها، إنظروا سخريتنا عندما تواجهون وضعا من أصعب الأوضاع ساعة تغرقون عقاباً لكم وانتقاماً من أفعالكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ستعلمون لاحقاً من يأتيه عذاب يُخْزِيهِ في النتائج، وستعلمون أن الذي يضحك هو الذي يضحك أخيراً ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٣٤) والذي يبكي هو الذي يبكي أخيراً، فما قيمة الضحكات في البداية، إذا كانت ستتحول إلى صرخات وأهاتٍ وآلامٍ في النهاية؟ وما قيمة الإبتسامات في أول الطريق إذا كانت ستتحول إلى دموعٍ في نهاية الطريق؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وَقَالَ
ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ* وَهِيَ تَجْرِي
بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا
وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ* وَقِيلَ
يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ
عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ
تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَالْأَعْفُورُ لِي وَتَرَحَّمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ* قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ* تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ
قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٠ - ٤٩).

وَيَبْحُرُ الْمَوْتُ مِنْهُمْ بَعِينَ اللَّهُ

ويأتي أمر الله تعالى وتتفجّر الينابيع من كلّ مكان، ويهطل المطر غزيراً من السماء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وهي المنطقة التي تفجّرت فيها المياه من كلّ جانب ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ﴾ ويطلب الله تعالى من نبيه نوح (ع) أن يحمل على السفينة من كلّ مخلوقٍ من المخلوقات زوجين اثنين، لأنّ كلّ شيء على الأرض سوف يغرق ويموت، وستكون هناك حياة جديدة وبداية جديدة ﴿وَأَهْلِكَ﴾ وطلب منه تعالى أن يأخذ أهله معه ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ إلّا من أراد الله أن يهلكه منهم ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واحمل معك المؤمنين القلّة الذين اتبعوك.

ووجّه الله تعالى نداءه إلى كلّ الذين كانوا مع نوح (ع) ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ في هذه السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ وبدأ المسير بإسم الله في جريانها ووقوفها ورسوها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو الذي يمنحنا مغفرته فيما أخطأنا فيه لأننا سرنا في طريقه، ويمنحنا مغفرته فيحفظنا من كلّ سوء ويُنجينا من كلّ هلكة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ بلغ من قوة الماء واندفاعه وعلوه أن كانت الموجة تُشبه الجبل، ومن الطبيعي أنّ السفن التي كانت في ذلك الزمن غير مجهزة بالآلات التي تدرأ عنها الأخطار، ولذا فإنّ سفينة نوح (ع) بما كانت تواجهه من قوة الماء والطوفان، وما تحمله فوق ظهرها من إنسانٍ وحيوانٍ وأغذية، كانت تجري وسط الأهوال المائتة برعاية وإسم الله تعالى.

عاطفة الأبوة وجحود الولد

وهنا، في بداية غرق الناس الجاحدين ورؤية نوح ومن معه لما سيحدث من موت وفناء، لاحت من نوح (ع) التفاتةٌ شاهد فيها ولده الذي لم يركب معه في السفينة

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ كان يعيش في أجواء بعيدة عن والده، ومتمرداً عليه، وربما كان متأثراً بأمه التي حدثنا عنها القرآن وعن امرأة لوط بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحریم: ۱۰)، والمقصود هنا بالخيانة، خيانة الرسالة وليست خيانة العرض.

إذاً، كانت امرأة نوح منحرفة عن الخطّ الرسالي الذي كان نوح (ع) يدعو إليه، وكانت تقف بجانب قومها ضده، ولذا فإن ولدها الذي كان يميل إليها، عاند والده ورفض دعوته، لذا، استحق مع أمه أن ينالا العقاب بالغرق. وهنا نستوحي من ذلك أنه لا بد للإنسان عندما يريد الإقدام على الزواج، عليه أن يختار المرأة الصالحة المؤمنة التي تحفظ أولاده وتجعلهم يعيشون الإيمان والتقوى. وفي الرواية أن رجلاً أتى رسول الله (ص) يسأله من يتزوج من النساء، فقال (ص): «عليك بذات الدين» (*). ونشير إلى أن نوحاً (ع) لم يستطع الزواج من امرأة مؤمنة، لأنه كان مضطراً لذلك، حيث لم يكن في بداية دعوته نساءً مؤمنات على الإطلاق.

ونعود إلى الآية المباركة ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ نداءً أخيراً ليأتي ولده معه، ليعيش مع المؤمنين جَوْ الإيمان، وليبتعد عن الكافرين كي لا يهلك معهم في الدنيا قبل الآخرة. وكان نوح (ع) مندفعاً في ندائه لولده من خلال عاطفة الأبوة من جهة، ومن خلال موقعه الرسالي من جهة أخرى.

ويبرز عقوق هذا الولد مع ربّه ومع أبيه ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يتمرد ويرفض النداء متسلحاً بأنه سيصعد إلى قمة جبل تمنع عنه وصول

(*) الكافي المجلد ۵ ص ۳۳۲ رواية ۱.

الماء. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ وَيُجِيبُهُ بِأَنْ هَذِهِ الْمِيَاهُ لَيْسَتْ مَجْرَدُ سَيُولُ تَبْلُغُ دَرَجَةً مُعَيَّنَةً وَتَتَوَقَّفُ، هِيَ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي سَيَتَحَوَّلُ إِلَى طُوفَانٍ يُفَرِّقُ جِيلًا بِأَكْمَلِهِ لِيُولَدَ جِيلٌ جَدِيدٌ، وَلَا عَاصِمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا هَذِهِ السَّفِينَةُ الَّتِي سَيُرْحَمُ رُكَّائُهَا وَيُنَجُّونَ، فَهِيَ سَفِينَةُ النِّجَاةِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ وَهَوَى عَلَى طَرِيقَةِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص): «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فَيَكُمُ كَسَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ وَهَوَى».

فِي خُضْمِ هَذَا الْحَوَارِ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ كَانَ يَخَاطَبُ وَلَدَهُ، وَالْمَوْجُ يَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ وَنَالَ عِقَابَهُ بِالْغَرَقِ.

وَيَخْتَصِرُ الْقُرْآنُ كَعَادَتِهِ الْمَشْهُدَ، لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَقْصُ عَلَيْنَا قِصَصًا نَلْهُو بِهَا، وَنَسْتَغْرِقُ فِي تَفَاصِيلِهَا، بَلْ لَتَكُونُ مَلَامِحُ الْقِصَّةِ عِبْرَةً لَنَا نَحَاوِلُ أَنْ نَمْسِكَ بِمَفَاصِلِهَا الْأَسَاسِيَّةِ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي حَيَاتِنَا.

نَحَقِّقُ أَمْرَ اللَّهِ

وَيَهْدُ الطُوفَانُ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي﴾ فَلْتَرْجِعِ الْمِيَاهُ إِلَى الْخَزَائِنَاتِ الْجَوْفِيَّةِ فِي الْأَرْضِ، وَلْتَكْفِ السَّمَاءُ عَنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ ﴿وَعِصْصَ الْمَاءِ﴾ ذَهَبَ وَضَاعَ فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ انْتَهَتْ الْمَسْأَلَةُ، نَجَا مَنْ نَجَا وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وَتَوَقَّفَتِ السَّفِينَةُ كَمَا يُقَالُ عَلَى جَبَلِ (الْجُودِيِّ) فِي الْمَوْصِلِ شِمَالِ الْعِرَاقِ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَبْعَدَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ عَنْ سَاحَةِ رَحْمَتِهِ لَمَّا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ.

ويبدأ نوحٌ (ع) مرحلة حياة جديدة، واندفع الناس الذين حملهم معه في السفينة، كلٌ يريد أن يجد لنفسه موقِعاً جديداً، وراح يرتب أموره وأوضاعه على هذا الأساس. ويقف نوح (ع) مع نفسه ليعرف حيثيات غرق ولده بعد أن كان الله تعالى قد وعده بنجاة أهله ﴿وَلَدَايَ نُوحٌ وَرَبُّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وقد وعدتني أن تنجي أهلي ﴿وَأِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾ فأنت الذي لا تُخلف وعْدَكَ لعبادك ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أنت صاحب الحكم، وأفضل من حكم ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين طلبت منك أن تحملهم في السفينة، فأهلك أهل الرسالة، وأولادك أولاد الرسالة، وإخوانك إخوان الرسالة، فولدك من صلبك ولكنه ليس من أهلك، لأن أهلك هم المؤمنون الذين يعملون الخير والصلوات، ولذا ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وعلى هذا ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ويخبره تعالى بأن الأسس التي تنطلق منها إرادته وعلمه يتفرّد بها وحده سبحانه ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لا أريد لك أن تكون من الذين يجهلون حقائق الأشياء ومواقع رضا وإرادة الله تعالى.

وقد يتساءل البعض، هل يحمل تساؤلُ نوح (ع) لربه اعتراضاً على أمره؟ بالطبع لا، فهو (ع) لا يعترض عليه سبحانه خصوصاً مع هذا الإخلاص الذي بذل فيه حياته في الدعوة على مدى ألفٍ إلا خمسين من السنوات، إنه مجردُ تساؤلٍ يُوحى للآخرين بالأل يندفعوا في أي موقع عاطفي مع أولادهم إذا ما ساروا في خط مغاير لخط الله تعالى، وعندها يقعون في الجهل وفيما لا يعلمون. فنوح (ع) يتساءل ولا يعترض ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ مما لا يتفق مع إرادتك ونهجك، ومما لا أملك فيه حجةً ودليلاً ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهنا نلاحظ تواضع الأنبياء (ع) أمام عظمة الله تعالى، ونلاحظ

خشوعهم وخضوعهم واستغفارهم حتى في الموقف الذي لا ذنب فيه ولا خطأ. فتعبير نوح (ع) بطلب المغفرة والرحمة يتعدى المضمون اللغوي إلى المضمون الروحي الخاشع أمام الله تبارك وتعالى.

ويبعث الله تعالى السلام الروحي في قلب نوح (ع) رعاية ومحبة له ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ فيباركه الله ويعطيه من نعمه وبركاته إكراماً له ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ وهذه البركات تشمل الذين آمنوا به وبرسالته ثواباً لجهادهم وصبرهم وإيمانهم ﴿وَأُمَمٌ سُمِّتُ لَهُمْ﴾ وستأتي أمم تشكّل الجيل الثاني من البشرية ستتمرد على الله تعالى، وهي مهما تمادت في غيها وضلالها ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كنتيجة لعصيانهم وضلالهم.

العبرة بين أيدينا

ويضع الله تعالى العبرة بين يديّ رسول الله (ص) ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ وهذه قصة نوح نتلوها عليك يا محمد ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ لم يحدثكم بها أحدٌ ولم تقرأوها في كتاب ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصبر - يا محمد - على ما تلاقيه من أذى قومك، كما صبر نوح على ما لاقاه من أذى قومه، وستكون العاقبة لك لأنك تتحرك في خط التقوى، كما كانت لنوح ومن معه من المؤمنين عندما تحركوا في خط التقوى.

وهذا درسٌ لنا من خلال ما هو درسٌ لرسول الله (ص) ومن معه، فإننا عندما نواجه الكفر والتمرد والتعسف والحصار وكل أنواع البغي والعدوان، لأننا نؤمن بالله وندعو إلى سبيله، ونرفع شعاراتنا على أساس رسالات الله، حيث يجب أن نبقي في خط الصبر مهما واجهنا من ضغط وتمرد، لأننا بذلك نواجه بما وجّه به الأنبياء (ع)، وستكون العاقبة لنا بإذن الله، كما كانت لرسول الله (ص)، وكما كانت لأنبياء الله من قبله.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي
 أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ* يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي
 فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ* وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ* قَالُوا يَا هُودُ مَا
 جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* إِن
 نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي
 بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مَن دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ
 عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ* فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
 نَجِيًّا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّيْنَاَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ*
 وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ*
 وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنَّا عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
 لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٥٠ - ٦٠).

وننتقل الحديث عن نبيٍّ آخر من أنبياء الله تعالى، وهو هود (ع) الذي سُمِّيَت السورة باسمه. فقد أرسله الله إلى قومه «عاد» لهدايتهم ولصدِّهم عن الانحراف ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أرسله إلى عشيرته التي كان يتميز أفرادها بالقوة البدنية، وذلك فيما ترويه قصص الأنبياء، وقد سُمُّوا بالعمالقة. وهذه القوة البدنية جعلتهم يشعرون بالكبرياء، فتمردوا على الله من موقع كبريائهم وقوتهم، واتخذوا لأنفسهم أوثاناً وأصناماً يعبدونها من دون الله فطغوا واستكبروا ﴿وَجَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر: ٩)، فكانوا ينحتون من الصخور بيوتاً عالية تكريساً لسياسة الطغيان، فيعيثون في الأرض فساداً فيقتلون وينهبون وييفنون في الأرض بغير الحق... إلى هؤلاء أرسل الله لهم نبياً لهم من داخل أنفسهم، يدعوهم إلى توحيد الله، محاولاً أن يفتح قلوبهم على الخير والعدل وعلى كُلِّ القيم الروحية والإنسانية. أتى إليهم ليتحدَّث معهم بكل طيبة ولطف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذه هي دعوة كُلِّ الأنبياء (ع) عبر التاريخ، حيث توحيد الله يختصر كلَّ الخطوط التي أراد الله للناس أن يسيروا عليها، فيوحِّدونه في العبادة ويرفضون الخضوع لأيَّة شريعة غير شريعته، وبذلك يسيرون في خطِّ الإستقامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت: ٣٠)، فأمنوا بالله وحده، واستقاموا على نهجه وخطه وهداه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ سواءً ما كان يمكن أن تعبدوه من شمس وقمر وكواكب، أو ما تعبدوه من أصنام وأحجار وبشر ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ فعندما تنسبون شركاء إلى الله وتعبدونهم من دونه، فأنتم تفترون عليه سبحانه بذلك، وتفترون على الحقيقة التي تقول أن لا إله إلا الله تعالى. ولأنه لا يدعوهم إلا إلى

الحقَّ وحده ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فهو (ع) يخبرهم بأنه لا يريد من دعوته هذه مالا أوجاهاً ولا موقعا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ اطلب ثوابي ورزقي من الذي خلقني، وهو يتكفل بي، لأنني عبده الذي أطيعه، وأسعى في سبيله وانتظر الأجر منه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حركوا عقولكم لما أدعوكم إليه، لأنكم سترون أنني لا اطلب منكم جزاء ولا شكورا، ما أريده منكم أن تعرفوا الحقيقة لتعرفوا خلاصكم ونجاتكم.

ضمانات

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ويعمل هود (ع) على أن يفتح قلوبهم على الله من موقع ما يحبون، فهم يريدون لأرضهم أن تكون خصبة، كما يريدون لقوتهم أن تزداد، ولذلك خاطبهم بكلمات الترغيب: أنتم مقيمون على معصية الله فيما تعتقدون وتتعبدون، وأطلب منكم أن تستغفروا الله وتوبوا إليه وأنا أضمن لكم على الله أن يرزقكم من خيره الكثير، لأنه سبحانه يفتح للمستغفرين أبواب رزقه ورحمته، ويفتح للتائبين مواقع نعمته، كما أضمن لكم وأنتم الذين أعطاكم الله قوة أن يزيد في قوتكم. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ لا تعرضوا عني وعن دعوتي مصرين على جريمتكم في الكفر والطغيان والإعتداد بالقوة.

وهكذا يريد هود (ع) أن يجتذب عقولهم وقلوبهم، ولكنهم ككل مجتمع متخلف، لا يحاول أن يستمع بعقل وفكر لمن يدعو إلى الحق والخير، بل يعمل من خلال جهله وتخلفه ليستغرق فيما هو متمسك به، وليهدد الداعية إلى الحق بمختلف أنواع التهديد.. وإننا نجد في واقعنا أمثال ما يحدثنا الله عنهم، وذلك عندما يواجه الداعية أجواء العصبية التي يعيشها الناس، سواء كانت عصبية طائفية أو حزبية أو مذهبية

أو عائلية، فيحاول أن يستبدل جو العصبية هذا بأجواء الخير والإيمان والعقل، فيعتمد المتعصبون للرد عليه بالشتائم والتهم لاضعاف مبادئه وما يؤمن به. ولذا، فإن الماضي يتمثل عندنا في الحاضر وفي كل موقع من مواقع التخلف والعصبية.

لغة الكفر واحدة

ومن خلال الآيات التالية سنرى كيف واجه قوم هود منطقة العقلائيّ الإيماني ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ لم تنقل لذا الشمس من مكانها مثلاً ولا القمر، إنك جئت بكلام، نحن نريد البينة. من الطبيعي أن منطقهم منطق غير صحيح، هو يدعوهم وعليهم أن يناقشوا مضمون ما يدعوهم إليه، ولكنهم يرمون بوجهه كلمات حادة تهدف إلى إسقاط موقفه، والتشويش والتهويل عليه. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نحن متمسكون بموقفنا من الشرك، والالتزام بالهتنا، ولسنا على استعداد لتقبل دعوتك.. وينطلقون في تخلفهم أكثر، فيحذرونه جواباً على ما أعطاهم من الأمل الكبير بالله، ومخاطر الإصرار على الجريمة، وكانوا يعتقدون أن هذه الأصنام التي يعبدونها تضر، وأن الإنسان الذي يتمرّد عليها ويقف ضدها سوف يُصاب بمرض أو جنون أو بلاء... فتكلّموا معه بلهجة أهل العشيرة التي تحذر أحد أولادها من التحرك في طريق لا يأمنون عواقبه ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

وعندما استمع إلى منطقهم ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ فعندما رأى أنهم غير مستعدين للحوار وللمناقشة والتفكير، عمل على أن يوجّه إليهم صدمة عنيفة علّها تهز أعماقهم، إنطلاقاً من موقع القوة في مواجهتهم جميعاً وهم الأقوياء، وإبرازاً لموقفه الصلب المتحدّي. لذلك أشهد الله تعالى على أنه في خطّ التوحيد، بالرغم من تمسكهم بخط الشرك، ثم أشهدهم أنه بريء مما هم

عليه، وذلك كأسلوبٍ من أساليب التأثير عليهم في إحياءات القوة التي يجسدها موقفه ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعلن البراءة من الهتهم ليزيد الموقف حدة، وليرفض الخضوع لألهتهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ جربوا قوتكم وأنتم العمالقة، وعلى هذا فإنني أتحداكم، أتحدى خططكم ومؤامراتكم وما لديكم من وسائل القوة ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾ ولا تتأخروا في قبولكم للتحدي، فإنني ثابتٌ على موقعي ولن أراجع.

وهذا يعطينا موقف القوة الذي ينبغي للمؤمن أن يتخذه في مواقف التحدي، عندما يقف الآخرون ليضعفوا موقفه، فإنه يتحداهم تبعاً للظروف والأوضاع التي يعيش فيها.

اختبار القوة

ثم أراد (ع) أن يبرز القوة في الجانب العقائدي، ليشعرهم بأنه مسددٌ بقوة الله تعالى ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يريد أن يشعرهم بأن الله سبحانه ليس ربه وحده. فالله هو ربهم أيضاً، ولذلك فليس الصراع بين ربه وربهم ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وإذا أردتم أن تعرفوا شمولية قدرة الله، انظروا إلى كل ما يدبُّ على الأرض، سواء كان يدبُّ على رجليه أو على بطنه أو يطير في الهواء ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الناصية هي أعلى الجبهة، وفي دعاء كميل نقول: ﴿يَا مَنْ بِيَدِهِ نَاصِيَتِي﴾ فالناصية تمثل مظهر الشخصية وعزها، فالله الذي يأخذ بالناصية، يأخذ بالذات كلها، وهذا كناية عن أن الله تعالى مسيطرٌ على كل مخلوقاته، وعلى هذا فإن هوداً (ع) يتحداهم بقوتهم، وأين هي من قوة الله تعالى؟ ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عرضتم ﴿فَقَدْ أَيْلَفْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وهذا واجبي أقوم به ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ لن تكونوا الخالدين مهما كانت قوتكم، انظروا في تاريخ آبائكم وأبن صاروا! لقد جعلكم تعالى خلائف من بعد قوم نوح (ع) وسيستخلف قوماً غيركم، لن تكونوا آخر الطاغين الذين سيحاولون أن يعجزوا الله سبحانه ﴿وَلَا تَخْشَوْهُ شَيْئاً﴾ ومهما تماديتم في طغيانكم ستيقون خاضعين لإرادته وأمره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ فهو سبحانه مهيمٌ على كُلِّ شيء وحافظٌ لكل شيء.

النهايات المظلمة

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وقام هود (ع) بمهمته الرسالية، ولم يجد من قومه أذناً صاغية، بل استمروا في طغيانهم، ولأنه تعالى أمهلهم وألقى عليهم الحجة ولم يستجيبوا جاءهم العذاب ونالوا ما يستحقون منه ﴿فَجِئْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ونفهم من هذه الآية أن عدداً من قومه آمن بالله فشملتهم الرحمة مع هود (ع) ﴿وَجِئْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ مما نزل على قومه الكافرين من عذاب اليم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هذه هي مشكلتهم تختصر في الجحود والنكران ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فاستهزؤا برسول الله، وساروا خلف الطواغيت والجبابرة.

ونتيجة لعصيانهم ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ بسبب كفرهم وشركهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وستلاحقهم هذه اللعنة في يوم القيامة أيضاً ﴿إِلَّا إِنْ عَادُوا﴾ كفروا ربهم إلا بعداً لعاد قوم هود! ابعدهم لكفرهم، وسيبعد كل من سار في طريقهم في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
 نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ
 إِنِّي لَأَرَانَكُمْ أَنَّ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
 إِنِ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
 فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ *
 فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَنَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ * فَلَمَّا
 جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
 دِيَارِهِمْ جَائِشِينَ * كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِينَهَا إِلَّا أَنْ تُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا

توالي النجارب النبوية

في الرحلة مع الأنبياء نلتقي في سورة هود مع النبي صالح (ع) ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وثمرود هم عائلة وعشيرة صالح (ع)، ويبدو من خلال الحديث عنهم في القرآن الكريم أنهم أصحاب مدينة وحضارة، فقد كانوا يبنون قصورهم في السهول، وينحتون قلاعاً لهم في الجبال، ومن الطبيعي أن يعملوا على استغلال المجتمع لحساب مصالحهم ولتنمية ثرواتهم ولتأكيد نفوذهم. وقد وجد هؤلاء في دعوة النبي صالح (ع) خطراً على مصالحهم، فوقفوا في وجهه يتحدثونه رافضين دعوته إلى الله. ونحن نحاول من خلال القرآن الكريم أن نجد التشابه بين المنطق الرافض للإيمان وللتغيير في العصور السابقة والعصور الحالية، وهذا ما يدفعنا لمعرفة في بعض ما نقرأه من الآيات الكريمة ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فكما أرسل الله إلى عاد نبياً من عشيرتهم هو هود (ع)، كذلك أرسل إلى ثمود، النبي صالحاً (ع) الذي ينتمي إلى قبيلتهم.. وكما كل الأنبياء ينطلقون في دعوتهم من التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، فإنه (ع) يسير في الخط نفسه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فالعبادة تمثل كل الأفعال والأقوال التي تعبّر عن الخضوع والإنسجام في التوجه للمعبود ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ خلقكم من هذه الأرض نفسها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ طلب منكم عمارتها. فصالح (ع) يريد أن يقول لهم بأن الله خلقكم، وهبى لكم الأرض، وطلب منكم عمارتها لتساهموا في بناء الحضارة. فيعمل (ع) على أن يقرب لهم فكرة علاقتهم الأساسية بالله سبحانه وتعالى، فدعاهم إلى عبادة الله الذي خلقهم وهباً لهم سبيل عمارة الأرض ليعيشوا في دار عمران لا خراب ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ﴾ إرجعوا إليه رجوع النادم على ما أسلف، فإنه

تعالى يتقبل رجوع التائبين ويغفر للمستغفرين ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ قريب من عباده الذين يطلبون القرب منه أو لا يطلبون، ولذا فهو يرزقهم وينعم عليهم، ويفتح لهم أبواب الحياة في أوسع مجالاتها، فالله قريب مجيب لمن دعاه، لأنه يعرف ما يحمله الإنسان في داخله من عناصر تدفعه إلى المعصية، فيفتح له باب التوبة والإنابة.. كان هذا منطق صالح (ع)، فما هو منطقهم؟

التمسك بالماضي

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ وبدل أن يجيبوه على ما يطرحه أمامهم، يلتفون عليه في محاولة للتقليل من أهمية ما يحمله إليهم من الله، فيجيبونه بأننا كنا نعتبرك إنساناً عاقلاً واعياً نأمل منه الخير، ونعدك لأن تكون مسؤولاً فينا، وهذا ما رجوناك فيه، فماذا أصابك؟ كنت عاقلاً، والعاقل هو الذي يلاحظ التوازنات ولا يثير الحساسيات وينسجم مع الجو العام، فلا يخلق المشاكل ولا يطرح الأفكار المستغربة والمستنكرة في المجتمع، ويبقى كل شيء على حاله ويرتب الأمور بهدوء، ولكن يبدو أنك لست على هذه الشاكلة، فأنت تبتئف فينا أفكاراً تختلف مع العناصر الحيوية لعقائدنا وتاريخنا وعاداتنا وتقاليدنا.

هذا المنطق ما زال قائماً حتى اليوم ويظال كثيراً من المجاهدين من علماء ومثقفين حيث نرى مجتمعهم يكيد لهم في محاولة لارباك حركتهم وتعطيل دورهم، مع التمسك بمفردات التخلف والإنغلاق على الذات من دون أي شعور بالمسؤولية تجاه الله تعالى.

ولم يكتفِ قوم صالح بذلك، بل انطلقوا يستنكرون عليه ما يدعوهم فيه إلى إسقاط ما عاشوه من تقليد أعمى، فكان ردُّهم ﴿أَنْتَهُنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لدينا

تاريخ عاش في عمقه أبائنا وأجدادنا، فهل من المعقول أن يكون هؤلاء الذين يمثلون مجدنا وعمقنا في التاريخ أن يكونوا مخطئين؟ وكأنهم يقولون له: إنَّ منطقتك غير قابل للمناقشة، فهو مرفوض لأنَّه يختلف مع منطق الآباء والأجداد. وهم لا يتحدثون عن عناصر الضعف في المنطق، بل يتحدثون عن أساس الرفض لمنطقه، وليس موقفهم موقفاً عقلياً، لأنَّ القرآن الكريم ردُّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وبهذا ندرك بأنَّ الله تعالى أراد للإنسان أن يتحمَّل مسؤولية فكره، فهو يملك فكراً وآبؤه وأجداده يملكون فكراً، وليس له أن يعتبر كلَّ فكره هو الحقيقة لمجرد أنهم آباؤه وأجداده، بل عليه أن يقتنع ما اقتنع به فكره، لأنَّ المسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية، أي أنَّ كلَّ إنسان مسؤولٌ عن عمله، وليس الأب أو الجد مسؤولاً عن ذلك.

ويسيروا في غيهم أكثر ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إنَّ طرح أفكارك يا صالح لا يعنينا، فنحن نفكر بدوافعك وخلفيات غاياتك، ولذا فنحن مرتابون مما تدعوننا إليه.

وضوحُ في الرؤية

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي﴾ إنَّكم تشكَّون وترتابون في موقفِي، وكأنَّ صالحاً (ع) يريد أن يفهمهم بأنَّه يملك وضوح الرؤية والبيِّنة في الخطِّ التوحيدي والإيمان بالله الواحد، ولذا فليس عنده شكٌّ في ذلك ولا ارتياب ﴿وَإِنِّي مِنْهُ رَحِمَةٌ﴾ ولأنَّني أملك الوضوح والبيِّنة، فإنَّ ما كلَّفني به سبحانه يُعتبر رحمةً لي، لأنَّه جعلني مسؤولاً عن حركة الرسالة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ لو

عصيت الله واتبعت أمرَ العشيرة وسبيلها، فهل لكم أن تنصروني منه سبحانه لو أراد أن يعذبني؟ ومن أنتم حتى تستطيعوا نصرتي أمام قوة الله ونصرته؟ النتيجة واضحة، إنهم لن يستطيعوا ذلك ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ إذا ما تركت أمرَ الله واتبعت أمركم، فإن ذلك لن يزيدني إلا خسارة.

ومن هنا نقول لكلِّ العاملين في سبيل الله: عليهم أن ينقلوا التجارب السابقة ومنطق الأنبياء في هذه التجارب إلى حياتهم، أي ألا يدرسوا قصص الأنبياء، كقصّة تاريخيّة لكي يتذكروها، ولكن ليعيشوها وهم يواجهون خطأ الإنحراف، وليخاطبوا مجتمعاتهم وأقوامهم بما خاطب به الأنبياء مجتمعاتهم وأقوامهم، وبذلك تكون قصص الأنبياء عبرة لنا، تكون ماثلة أمام عيوننا في التجارب الصعبة التي نخوضها ضدّ الواقع المنحرف.

وعودة إلى صالح (ع)، وفي محاولةٍ منه لإقناعهم بالإيمان، بطريقٍ غير طريق الإقناع الفكري، فقال لهم ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ لم يذكر لنا القرآن طبيعة هذه الناقة، وكلّ ما نعرفه أنها «ناقة عجائبية» ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا تقيّدوا حريتها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ لأنّ لها حرمة من خلال أنها آية يرى فيها الناس عظمة الله في خلقه ﴿فَبِأَخَذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ لأنّ قتلها، يمثل تمرداً على الله ورسوله ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ولم يهتموا بإنذار صالح (ع)، فكمن لها شخصٌ بالإتفاق مع القوم وقتلها. وجاء الإنذار الإلهي ﴿فَقَالَ تَمَنَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وحدّد القرار الحاسم بإنزال العذاب عليهم بعد ثلاثة أيام ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ لأنّه كتب على نفسه الرحمة لمن آمن به واتبع سبيله ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ فيما

يمثله العذاب من خزي وعار على مَنْ ينزل عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ السَّكِينُ الْعَزِيزُ﴾
فليس لأحد إلا الرضوخ أمام قوة الله وعزته. ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾
ارتعدت لها فرائصهم ووجلّت قلوبهم من شدتها وقوتها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَاثِمِينَ﴾ ساقطين على وجوههم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يكونوا
موجودين، وهذا كناية عن زوال أي أثر من آثار وجودهم ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا
رَبَّهُمْ﴾ فجحدوه وتمردوا عليه، ولهذا أنزل بهم العذاب والعقاب ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾
ونتيجةً لكفرهم أبعدوا عن رحمته تعالى، فأصابهم الخزي في الدنيا والآخرة.

«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ
أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ* فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ
فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ* قَالَتْ يَا وَيْلَتِي أَنَا
عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ
اللَّهِ رَحْمَةً لِلَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ
إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّاهٌ مُنِيبٌ* يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَاعَفٌ بِهَمِّ ذُرْعَا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ* وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي
ضَيْفِي الْيَسَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ* قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ
وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ* قَالَ لَوْ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ* قَالُوا
يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ الْيَسَّ
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ* مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ*

(٦٩ - ٨٣).

في هذا الفصل من سورة هود حديث عن زيارة الملائكة لإبراهيم (ع)، فما هي طبيعة هذه الزيارة؟ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ جاءوا ليلبغوه إرادة الله تعالى في إهلاك قوم لوط (ع) بسبب فسادهم وطغيانهم، ويبدو أن مسؤولية لوط كانت تتصل بمسؤولية النبوة الكبرى التي تحملها إبراهيم (ع)، مما كان من ناحية عملية أن يبلغ إبراهيم بالمسألة.. كما ليبشروه بسلام بعد أن بلغ وزوجته عمراً متقدماً. دخلوا عليه على شكل ضيوف ﴿قَالُوا سَلَاماً﴾ ألقوا التحية عليه ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ فبادرهم بتحية مثلها، ومباشرة أعد لهم الطعام ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وقدم لهم عجلًا مشويًا، ومن الطبيعي أن يطلب منهم المبادرة لتناول الطعام ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ إمتنعوا عن الأكل، وهذا مخالف لسلوك الضيف مع صاحب البيت، وكانت لا بد من مرور وقت معين حتى يعرف أنهم ملائكة لا يأكلون كما يأكل الناس العاديون ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وقد يكون قد تساءل: مَنْ هم هؤلاء الناس الذين قَدِمُوا إليه ولا يتقبلون الضيافة ولا يأكلون، ما هي خلفياتهم وما القضايا التي جاءوا من أجلها؟ مما جعله يشعر بشيء من القلق تجاههم بسبب غموض الوضع الذي يتمثل في سلوكهم. وهنا لم يترك الملائكة إبراهيم (ع) في حيرة من أمره ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ كشفوا عن شخصياتهم، لسنا بشراً، نحن رسل ربك، جئنا إليك لنبلغك طبيعة مهمتنا في إهلاك قوم لوط الذين تمردوا عليه ورفضوا الإنصياع لأمر الله تعالى.

ويستمر الملائكة في إبلاغ إبراهيم (ع) بطبيعة مهمتهم ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وأثناء الحوار بين إبراهيم والملائكة كانت زوجته واقفة تستمع للحوار،

فأبلغوه بأن الله تعالى سيرزقه ولداً، وعندما استمعت زوجته لأمر الله ضحكت، وفيما يختص بكلمة ضحكت، فإن طبيعة اللفظ المتعارف تعني ابتسمت، ولكن المراد من الضحك هنا الحياء الذي هو من معاني الكلمة في اللغة ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ إن الله تعالى سيرزقها إسحاق الذي سيرزقه يعقوب استمراراً للنسل والذرية. وعلى أثر هذه البشري اعترتها الدهشة ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَإِذَا بَلَغْتُ الْأُجُوزَ﴾ كيف لي ذلك وقد تقدمت في العمر ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وزوجي أيضاً في سن متقدمة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ما تبشرونني به خارج المألوف، ولا نفهم سره وطبيعته.

ويأتيها الجواب من الملائكة ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إن المسألة لا تسير وفق الوسائل العادية والمألوفة، إنها أمر الله الذي يلتقي بعظمته وقدرته وإرادته، وهذه رحمة وبركات أنزلها سبحانه وتعالى عليكم يا أهل بيت النبوة ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ فله الحمد والمجد لما يفيضه على عباده من نعم والطاق.

المهمة الملأكية

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ ذهبت الصدمة والقلق واطمأن إليهم كونهم ملائكة مقربين حاملين إليه البشري من ربهم، فزال كل غموض عنده وعرف طبيعة مهمتهم ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ فأخذ يجادل الملائكة، لو أخرتم تنفيذ عقوبة العذاب بقوم لوط، بأن تعطوهم فرصة جديدة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَكِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وهذه صفات لإبراهيم (ع)، فهو حليم واسع الصدر لا يحب العنف، بل ينفذ حتى على من أساء إليه، وهو أواه يناجي ربه، منيب يرجع إلى الله تعالى في كل أموره.

ولأن مسألة إنزال العقاب قد حُسمت ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ قد تمكن المجادلة في الأمور القابلة للأخذ والرد، أما فيما صدر فيه قرار حاسم من الله، فلا مجال للجدال فيه، خصوصاً أن نبي الله لوطاً (ع) قام بمهمته واستنفذ جميع الوسائل من أجل هداية قومه ولكنه لم يجد آذاناً صاغية، فحق عليهم العذاب، لذلك كان الطلب من إبراهيم أن يعرض عن الجدال في أمرهم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ صدر الأمر من الله بحقهم، ولا راد لأمره وقضائه ﴿وَأَنَّهُمْ أَتَوْهُم بِعَذَابٍ غَيْرِ هَؤُودٍ﴾ ولن يرد عنهم هذا العذاب شفاعاً متشفع، ولم يبق إلا التنفيذ السريع، ومن الطبيعي أن إبراهيم (ع) يرضى بما يرضاه الله تعالى.

في محاولة لحماية الضيوف

ويذهب الملائكة إلى لوط (ع) إكمالاً لتنفيذ ما أمرهم الله به ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ جاؤا إلى لوط ضيوفاً على شكل شباب حسان الوجوه، وبمجرد أن التقى بهم عاش حالة نفسية صعبة، لأن قومه كانت تجذبهم الوجوه الجميلة، وهم الذين اشتهروا بالشذوذ الجنسي (اللواط)، فخاف أن يعتدوا على ضيوفه خصوصاً وأن هؤلاء الملائكة لم يكشفوا عن أنفسهم، فاحتار كيف يقوم بحمايتهم ويمنع قومه من الإعتداء عليهم، فهو شخص واحد وهم عشيرة كبيرة ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ هذا يوم مزعج شديد، لأنه سيواجه فيه مشاكل ومصاعب لحماية ضيوفه من محاولة قومه بالإعتداء عليهم.

وبقي منتظراً ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ رأوا ضيوف لوط يدخلون عليه، وهم يتميزون بالجمال، جذبهم ذلك بسرعة وهم يعيشون تحت وطأة الشذوذ الجنسي، فجاءوا مسرعين للاعتداء عليهم ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾

يذكرنا القرآن بطبيعة قوم لوط الذين كانوا يقومون بالسيئات، ولا يتورعون عن ممارسة اللواط، ولم يخجلوا في الإعلان عن رغبتهم بممارسة الفحشاء مع ضيوفه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فإذا كنتم تريدون إشباع الغريزة، فإنني أزوجكم بناتي.. وهو (ع) لا يقدم لهم بناته من دون أساس شرعي ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي تزوجوهن بإسم الله، وعند ذلك تكون علاقتكم بهن علاقة الطهارة. ونلاحظ هنا كم كانت حالة لوط النفسية صعبة، فأراد حماية ضيوفه بتقديم بناته للزواج من بعض هؤلاء القوم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا من الله فيما تقدمون عليه من معصية ﴿وَلَا تَحْزُونِي فِي ضَيْفِي﴾ هؤلاء ضيوف، ولا بد للكريم من أن يحمي ضيوفه، فلا تعتدوا على أضيافي بفعل القبيح فينزل بي الخزي والعار عندما يقول الناس إن لوطاً لم يستطع حمايتهم من الإعتداء عليهم ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ وهنا نلاحظ حال التوتر التي اعترته (ع)، وكأنه يقول لهم، أليس بينكم شخص يملك رشد العقل والروح لأتفاهم معه في حل المشكلة؟

ولكن القوم عطلوا عقولهم ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ ليس لنا رغبة في بناتك ولن ننجذب إليهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ تعرف طبيعتنا وحركتنا في شهواتنا، ما نريد إلا الرجال.

ويقف أمامهم عاجزاً ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ يتمنى (ع) لو أن له قوة يدافع بها عن نفسه وأضيافه ﴿أَوْ أَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو احتتمي بعشيرة لي قوية تمنع عني ما اتعرض له، فتصدّ عدوانكم وبغيكم.

المدد الإلهي

الملائكة يسمعون كل هذا الحوار الدائر بين لوط (ع) وقومه، وفي لحظة همّة وحزنه وخوفه، يعلنون عن صفتهم الملائكية ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ جاء

العون من الله، لقد أرسلنا الله إليك للوقوف إلى جانبك ولإنزال العقاب بهؤلاء الذين طغوا وتمردوا.. وانفجرت أساريه (ع) فذهب عنه الغم والحرص والقلق مما حاول قومه أن يحاصروه في كُلِّ ذلك ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ إِنَّهُمْ أضعف من أن ينالوا منك أو يعتدوا عليك أو يخزوك في أضيافك.

وكتمهيد لإنزال العقاب بقوم لوط، طلبوا منه (ع) ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أَخْرِجْ أَهْلَكَ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ﴿وَلَا يَنْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ إِنِ انطلقوا بعزم لا مجال فيه للإلتفات إلى الوراء ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكْ﴾ إِنَّهَا الْوَحِيدَةُ مِنْ أَهْلِكَ الَّتِي سَتَبْقَى ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ سَيَنَالُهَا الْعَذَابُ لِأَنَّهَا مِنْهُمْ، وَعَلَى خَطِّ انحرافهم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ مَوْعِدُ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّبَاحِ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ الْمَهْمُ أَنْ تَخْرُجَ قَبْلَ الصَّبَاحِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَتَسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ لِنَزُولِ الْعَذَابِ.

ويخرج لوط (ع) بِأَهْلِهِ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وَنَزَلَ الْعَذَابُ عَلَى الْقَوْمِ، وَخَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضُ فَقَلْبَهَا، فَصَارَ الْأَعْلَى أَسْفَلَ، وَالْأَسْفَلَ أَعْلَى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ﴾ أَيِ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنَ الطِّينِ الْمَطْبُوعِ ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وَهَذِهِ الْحِجَارَةُ تَتَصَفَّ بِعَلَامَاتٍ مَعِينَةٍ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وَسَتَصِيبُ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا مِنَ الظَّالِمِينَ وَالْكَافِرِينَ.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَلْفُضُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ* قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مِمَّا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ* وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ* قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ* قَالَ يَا قَوْمِ ارْهَطِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْنَمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ* وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ* كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود، ٨٤ - ٩٥).

العنوان الموحد لكل دعوات الأنبياء

كان نبيُّ الله شعيب (ع) من بين الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إلى جماعة خاصة في مشكلة من مشاكل الانحراف البارزة في حياة تلك الجماعة ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أرسله الله إلى أهل مَدْيَنَ، حيث يبدو أنهم كانوا من التجار الذين يبيعون الطعام للناس من الحنطة والشعير وأنواع أخرى من الحبوب، وكانت المشكلة البارزة في حياتهم أنهم كانوا يُطْفِقُونَ في المكيال والميزان، فكانوا عندما يبيعون الناس يعطونهم أقل مما يستحقون، وعندما يشترون كانوا يأخذون من الناس أزيد مما لهم. وقد واجه شعيب (ع) هذه المسألة مع أهل مَدْيَنَ بالموعة والترغيب والترهيب وبالحوار المتحرّك بأكثر من أسلوب. فكيف خاطبهم (ع)، وكيف ردّوا عليه، وما هي النتيجة التي انتهت إليها أمرهم؟

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على طريقة كلِّ الأنبياء، فإنَّ شعيباً (ع) يطرح أمامهم العنوان الكبير والموحد لكلِّ رسالات السماء وهو التوحيد، وعبادة الله تعالى. وعلى هذا، فإنَّه (ع) أراد أن يعيشوا العبادة لله في وجدانهم، من حيث أنهم عبيد الله، فلا يشركون بعبادة ربِّهم أحداً. والعبادة كما أشرنا في الأبحاث السابقة تمثّل غاية الخضوع لله سواء في ذلك التعبد له سبحانه وتعالى من خلال الإتيان بالصلاة ونحوها، بالإضافة إلى الطاعة له فيما يأمر به وينهى عنه. لذلك فإنَّهم إذا عاشوا هذه الروح، روح العبادة لله والإنقياد لأوامره ونواهيه، فإنَّ ذلك سوف يتمثّل إيجاباً في كلِّ خطواتهم العملية في الواقع، على مستوى علاقاتهم الإقتصادية والاجتماعية وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بحياة النَّاسِ العامة أو الخاصة، لأنَّ قضية الإنسان في الحياة أن يتحسَّس في نفسه معنى المسؤولية، بحيث يرغب في الثواب ويخاف من العقاب، وإذا لم يعيش في نفسه روح المسؤولية

فإنه يخضع لحالة اللامبالاة، فلا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً، بل يطلق لنفسه كل هواها، ويتحرك فيها من خلال لذاتها وشهواتها، بعيداً عن مسألة النتائج السلبية أو الإيجابية.

ومن هنا، فإنَّ شعيباً (ع) رأى أنَّ طريق العلاج لهذا الانحراف الذي يعيشه قومه هو أن يذكرهم بالله ليرتبطوا به وليحذروا من عقوبته، وهم إذا ما استطاعوا أن يعيشوا المعاني التي طرحها أمامهم، فإنَّهم يستطيعون الانتصار على كلِّ عناصر الانحراف، وعلى وسائل الشيطان في إضلالهم وإبعادهم عن الخطَّ المستقيم.

فهو (ع) لم يحدثهم في البداية عن مشكلة الانحراف التي يعيشونها في تطفيف المكيال والميزان، بل حدثهم عن ضرورة عبادة الله وتوحيده، لأنَّهم إذا اقتنعوا بذلك، فسوف تكون قناعتهم بترك ما يمارسونه من انحراف أمراً سهلاً.

في مواجهة الانحراف الاقتصادي

وبعد ذلك طرح أمامهم سوء ما يفعلونه ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ لا تكن معاملاتكم مع النَّاس على أساس أن تنقصوا المكيال والميزان فتعطوهم أقلَّ من حقِّهم، وهذا الأمر يشكِّل ظلماً لهم وانحرافاً عن خطِّ الإستقامة في التعامل مع الناس، وبعداً عن الصدق والأمانة ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٌ﴾ لقد وسَّع الله عليكم برزقه، وفتح لكم أبواب ذلك، ولستم بحاجة للسرقة أو الغشِّ في القليل والكثير ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ فإذا بقيتم على هذا النهج المنحرف، فإنِّي أخاف أن ينالكم عذاب من الله، بحيث يُحيط بكم من بين أيديكم ومن خلفكم ومن فوقكم ومن تحتكم، وكما ينالكم هذا العذاب في الدنيا سينالكم في الآخرة أيضاً عندما تظلمون الناس في أموالهم وحقوقهم ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وليكن

نهجكم في المعاملات التي تديرونها نهج الوفاء، بحيث تعطون المكيال بتمامه وإفياً، والميزان وإفياً دون نقصان، وعند ذلك تسيرون في خط العدل في أعمالكم ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وإذا كان للناس عليكم حق في أي شيء من الأشياء، فإن عليكم أن توفوهم حقوقهم. وإذا كانت الآية تتحدث فقط عن مسألة المكيال والميزان، فإنها تشمل كل الحقوق التي للناس على الناس ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وإذا عشتم هذا الأسلوب في حياتكم، فإنكم تتحركون في الأرض حركة الفساد، لأن أخذكم لأكثر من حقكم، وإعطاءكم الأقل من حقوق الناس، وعدم وفائكم لحقوقهم يفتح باب الظلم والسرقة، ويفتح باب الخلل في التوازن الإقتصادي في حركة الناس بين بعضهم البعض. وإذا كان الظلم أساساً في العلاقات، فإن ذلك يعني فساد المجتمع وسقوط الحياة الاجتماعية بين الناس كافة ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن ما يبقى لكم من رأس مال تستحقونه بالحلال هو خير مما تستزيدونه بالحرام والباطل، وتأخذونه من دون وجه حق. وهذا هو ما يسير على نهجه المؤمنون الذين يخشون الله ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ لم يرسلني الله جباراً يأخذكم بالقوة، وإنما أرسلني سبحانه لأحملكم مسؤولية ما تمارسونه، لتستقيموا على نهجه، فإن وافقتم فهو الخير لكم، وإلا فقد أقمت عليكم الحجة في ذلك.

المنطق ذاته ما بين الماضي والحاضر

كان هذا حديث شعيب (ع) مع قومه، فما كانت ردة فعلهم؟ هل دخلوا معه في مناقشة فكرية حول عبادة الله وتوحيده، وحول ما هو وجه الفساد في العمل الذي يقومون به؟

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ هل هذه الصلاة التي تقومُ بها هي التي تدفعك لتمعنا من تطفيف الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم؟ وهل هي التي تُدخل في ذهنك هذه الأفكار؟ ما قيمة صلاتك هذه حتى تترك أوضاعنا وتبعنا عما كان يعبد آباؤنا؟ إن آباءنا يمثلون جذورنا، ولا بد أن تكون صورتنا ونهجنا على مثال صورتهم ونهجهم. فنحن الأبناء نمثل الإمتداد للآباء، نسير على خطهم ونعبد ما عبدوا، ونسير كما ساروا.. وعلى هذا ما قيمة صلاتك لتوحي إليك بهذه المفاهيم؟ فتمعنا عن عبادة ما عبده الآباء، وتقيد حركتنا في مسألة التصرف بأموالنا كيفما نشاء ونريد.

إن قوم شعيب ككثير من الناس في زمننا لا يفهمون من الصلاة إلا حركاتٍ شكلية، ولذلك فإنهم يستغربون قيمتها ولا يتحسسون معانيها، ولا يدركون ما تختزنه من انطلاقة روحية يعيشها الإنسان مع الله سبحانه فتزيده صفاءً ونقاءً وانفتاحاً وإحساساً بالخير، وتبعده عن الفحشاء والمنكر، وتجري به نحو الصراط المستقيم، ولكل ما فيه خير له وللناس والحياة.

إنهم لا يفهمون عمق الصلاة، ولكن يشاهدون شكلها، ولا يدركون أهميتها، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) ورسول الله (ص) يقول: «الصلاة عمود الدين، إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها»^(*). وفي الحديث أيضاً: «إن الصلاة معراج المؤمن» فالمؤمن يعرج إلى الله في كل صلاة يصليها ليقرب منه، ولينفتح من خلال هذه الصلاة على الله في مسؤولياته وواجباته وفي التزامه بأوامر الله ونواهيه.

(*) الكافي مجلد ٣ ص ٢٦٨ رواية ٤.

عندما تكون الحرية فساداً

ونعود إلى قوم شعيب في تمردهم عليه وإغلاق قلوبهم عن سماع كلمة الحق ﴿أَوْ
أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ وكأنهم يقولون له، أصلاتك هذه هي التي تأمرك
أن نترك الحرية التي نمارسها في تحريك أموالنا؟ أموالنا ملكنا، ومن حقنا أن نحرك
أموالنا في الطريق الذي يجلب لنا الربح، ويحقق لنا تنمية ثرواتنا، والحصول على
كل حاجات الترف فينا، فما الذي يفرض علينا أن نقيّد حركتنا في أموالنا، وللمال
دوره الكبير في حركة النمو الإقتصادي؟

هؤلاء يفكرون على الطريقة الرأسمالية الحديثة التي تنادي بالحرية الإقتصادية
بعيداً عن الأخلاقيات، فالأخلاق شيء والإقتصاد شيء آخر، ويمكن للإنسان من
موقع حرية رأس المال أن يُنتج ما يدمر البشرية، ويثير الحروب ليفسح في المجال
لنتوجاته أن تجد لها أسواقاً.. وعلى هذا، ومن موقع الحرية أيضاً، يمكن للرأسمال
الحر أن يتاجر بأعراض الناس، وبكلّ ما يمكن أن يدمر أخلاقهم وحياتهم، فله الحق
بفتح مبيعاً أو بيت للخمر وللقمار والعبث واللهو والفجور، وعندما نتحدث معهم عن
سلبية ذلك ومخاطره، فإنهم يتحدثون عن السياحة ومقتضياتها، وعن الثروة القومية
وضرورتها. ولذلك يعتبرون أن المسألة الإقتصادية ليست مرتبطة بالمسألة الإنسانية،
فلا مانع عند هذا الرأسمالي من أن يدمر البشرية في خطّه الإقتصادي إذا أوجد له
ذلك الراحة ونموّ ثروته.

وهكذا كان هذا التفكير ممتدّاً في التاريخ، وكان قوم شعيب يسيرون على المنهج
نفسه الذي يسير عليه الرأسماليون اليوم ﴿أَصْلَاتُكَ تَسَامُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ
أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ إنّ لنا الحرية في أن نفعل في أموالنا
ما نشاء، وأن نعبد ما نشاء، ونفعل بأجسادنا ما نشاء، وما إلى ذلك. وما موقفهم

هذا، إلاَّ لأنَّ أهواءهم وشهواتهم وتقاليدهم وعاداتهم هي الأساس في القاعدة التي تحكم حياتهم وتنظِّم سلوكهم. وكأنَّهم يقولون لا دَخَلُ لله في أمرنا، وإنَّما ننطلق في قضايانا وقناعاتنا من خلال ما نعيشه من حرية.

إنَّ الإسلام يرفض هذه الذهنية، ويؤكد على أنَّ للإنسان الحرية في تنمية ماله وثروته، ولكن على أساس ألاَّ يعتبر أنَّ الحياة وحدها هي حياته، بل هناك حياته وحياة الآخرين، وهناك حقُّه وحقُّ الآخرين، فكما أنَّ للإنسان الحقُّ في أن يعيش، فللآخرين الحقُّ في أن يعيشوا، وكما أنَّ له الحقُّ في حماية نفسه من الفساد، فللآخرين الحقُّ في حماية أنفسهم من الفساد. وبهذا فهو يجعل المسألة في خطأ التوازن، حيث جعل للإنسان الحرية في أن يتصرَّف بماله ولكن في دائرة الحلال، وأطلق له كلَّ الفرص في أن ينمِّي حركته الإقتصادية ولكن في دائرة الإصلاح، لا في دائرة الإفساد.

ولكنَّ قوم شعيب كانوا بعينين عن هذه الذهنية كلياً، وإنَّ كلمة ﴿ها نشاء﴾ الواردة في هذه الآية تعطي سرَّ الذهنية التي تحكم سيرتهم وحركتهم، فهم يعتبرون أنَّ مشيئتهم هي التي تعطي الشرعية لكلِّ ما يتصرَّفون فيه، فهم الذين يشاؤون، فالأنبياء لا يملكون حرية أن يشاؤوا لهم خطأ يريد الله سبحانه وتعالى. المسألة هي مشيئتهم فيما يريدون ويشتهون ويحبون ويرغبون.

ومن هنا تنطلق ذهنية بعض النَّاس الذين إذا حدَّثتهم عن تكاليف الله، قالوا إنَّنا أحرار في أن نلتزم أو لا نلتزم. وهذا المعنى يعبر عن أنَّ هوى النفس هو الأساس في حياتهم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)، فهدف هذا الإنسان في الحياة، إنَّما هو هواه، فهو القيمة عنده والأساس في كلِّ شيء.

أنت حلِيمٌ، ولكن...

وبعد أن يعلنوا رفضهم لما يطرحه شعيب، ويعلنوا عن مشيئتهم في قناعاتهم المنحرفة، يقولون ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نعرفك إنساناً طيباً حلِماً واسع الصدر غير انفعالي فكيف تتحدث بهذه المبادئ؟ إِنَّكَ حلِيمٌ، والحِلْمُ ينطلق من حالة هدوء النفس، وهدوء النفس ينطلق من خلال هدوء العقل ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ﴾ الرجل العاقل الذي يفكر بهدوء، ويحسب حسابات الأشياء، لا ينطلق نحوها بطريقة غير عقلانية، ولكن ما نسمعه منك وما نعرفه من شخصيتك هو شيء آخر ﴿الرَّشِيدُ﴾ أنت في نظرنا الشخص الذي يملك رشداً فكرياً وروحياً واجتماعياً، ولكن كلامك يدل على حالة سَفَهٍ، لأنك تتحدث عن واقع جديد تريد أن تربك به واقعنا، وهذا شأن السفهاء في محاولتك لتغيير مسارنا عن مسار تاريخ الآباء والأجداد، وإلغاء وضعنا الإقتصادي الذي بنينا عليه قوتنا وحياتنا، وكلُّ هذا يدل على سَفَهٍ في تفكيرك.

إن أريد إلا الإصلاح

وبخَلَقَ نبوي هادي يجيبهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إنكم تطلقون كلاماً انفعالياً وغرائزياً تبريراً للواقع الذي تعيشونه، فتعالجون الأمور من خلال السطح وليس من العمق. فكروا لماذا أتيتمكم بهذه الأفكار غير المألوفة عندكم؟. كان من الممكن أن أبقى معكم - وأنتم قومي - إنساناً مكرماً يملك بسبب موقعه عندكم عدة امتيازات خاصة. فكروا لماذا أخذت هذا الموقع الصعب، وسرت في هذا الطريق الذي سوف يكلفني الكثير؟ عندي بيّنة من ربي تعالى وقد فتح عليّ آفاق معرفته، فعرفت مواقع الخير والشر، وما يُصلح الحياة ويُفسدها، وما

يضرُّ الناس وينفعهم، ولذلك فإنني أنطلق من وضوح الرؤية والواقع المنفتح على كلِّ الخير والصالح والإصلاح فأرشدني تعالى ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أعطاني العقل والرشد والوعي والقوة والنبوة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ وعندما أنهاكم عن فساد التطفيف في المكيال والميزان، وحرمة أن تبخسوا الناس أشياءهم، أو أن تعثوا في الأرض مفسدين، أو عن عبادة الأوثان، فإنِّي أنهاكم عما أُلْزِمُ نفسي بالإنهاء عنه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ليس لي من مصلحة خاصة فيما أدعوكم إليه، فلا أطلب منكم مالا ولا جاهاً، فأنا نبيّ حملني الله رسالة الإصلاح في حياتكم. وإصلاح أموركم الفكرية والعبادية والإقتصادية والاجتماعية ما أمكنني ذلك بحسب قوتي وجهدي.

فما يملكه شعيب (ع) هو الكلمة والجهد والتحرُّك لتغيير الواقع الذي يعيشون فيه، أما أن يوفَّقَ بهدايتهم أم لا فهذا أمرٌ ليس بيده ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ التوفيق من الله وحده، أتوكَّل عليه في كلِّ ما يواجهني في الحياة، فهو المرجع والملاذ في الدنيا والآخرة.

نحذير

وبعد أن حدَّثهم عن طبيعة موقفه ودوره الرساليّ، وعن الأفق الذي يتحرَّك فيه، أطلق تحذيره لهم ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ إنَّ نزاعكم معي ورفضكم لما يريده الله ويرضاه، وما تثيرونه في وجهي سيؤدي كلُّ ذلك إلى ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوْطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ أنتم لستم بدعاً من الناس، حدِّقوا في التاريخ وانظروا ما أصاب قوم نوح وهود وصالح، فلماذا أصابهم من العذاب ما أصابهم؟ لأنهم نازعوا أنبياءهم واختلفوا

معهم، وتمردوا على الله، وأصرّوا على عبادة الأوثان والانحراف عن خطّ الله، فنزاعكم معي وتمردكم عليّ سيكون ذلك سبباً لنزول العذاب عليكم، كما نزل على الذين سبقوكم من أقوام نوح وهود وصالح ولوط ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ما زالت الفرصة أمامكم، عودوا إلى ربكم فاستغفروه، وتوبوا إليه، فهو سبحانه يرحم عباده ويتودّد إليهم.

ونعمى قلوبهم

ويستمرّون في طغيانهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ لا نفهم عليك، فلغتك غير لغتنا، وتفكيرك غير تفكيرنا، وعقليتك غير عقليتنا. نحن نريد أن نعيش كما نرغب ونشتهي، وأنت تريد أن تفرض علينا قيوداً ومناهج وأفكاراً، فأنت تملك ذهنية تختلف عن ذهنيّتنا. ورغم وضوح كلام شعيب معهم، فإنهم يدّعون أنهم لا يفهمون ما يقولون ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فأنت ضعيفٌ في قدراتك الجسميّة والشخصيّة ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لولا عشيرتك التي تنتمي إليها، لما احترمناك، ولكنّا رجمناك وأخرجناك وطردناك من أرضنا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فأنت لا تملك القوة الذاتية، وليس لك العزّة علينا.

سننظر وتنظرون

ومع كلّ استخفافهم به وتحديّهم له وتمردهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أنا أحدثكم عن الله ربّ العالمين، خالق السموات والأرضين، فلا تحسبون حسابي من خلال علاقتي بالله، فأنتم لا تخافون الله الذي أرسلني إليكم برسالاته، والذي يحذركم عذابه، أنتم خائفون من المشاكل التي قد تحدث بين قومي وبينكم

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ تركتم الله وراء ظهوركم - وهذا كناية - عن أنكم لم تحسبوا حسابه ولم تخافوا منه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إنه تعالى يعلم ما تعملون، وليس بحاجة لأن أخبره بمواقفكم.

ويطلق (ع) التحدي ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ إبقوا على ما أنتم فيه واحشدوا إمكاناتكم وجهودكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وسأبقى أنا في الخط الذي رسمه الله سائراً عليه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ ستعرفون مَنْ هو الكاذب أنا أم أنتم؟ ستعرفون ذلك عندما تسقطون في التجربة ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ إنتهت مهمتي في تبليغكم ما أمر الله، وسأنتظر وأراقب المستقبل، فراقبوا معي ذلك!!

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيًا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ لم يحتج إنزال العذاب عليهم زلزالاً أو حجارة من السماء ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس: ٢٩) ونالوا عقاب تمردهم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ كل واحد منهم جاثم لا يظهر فيه شيء من الحياة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يعيشوا في هذه الديار ولم يتقلبوا فيها، ولم يكن لهم من أثر وأثار ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ﴾ هذه القبيلة التي عاش فيها شعيب (ع) ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وهذه القبيلة الأخرى التي أبعدها الله عن رحمته وعن الحياة كلها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُخْسِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُخْسِ الرُّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٦ - ٩٩).

الحجة الواضحة والسلطان المبين

ونبقى في أجواء المسيرة النبوية التاريخية، حيث يصل بنا المطاف إلى الحديث عن الدور الرسالي الذي قام به نبيُّ الله موسى (ع).. وفي القرآن الكريم حديث متنوع عن قصة موسى (ع) واتباعه من المؤمنين، وعن فرعون وقومه، والقرآن يختصر الأحداث، تارةً ليشير إلى نقطة محدّدة في السياق العام للقصة القرآنية، وتارةً ليتوسّع في إلقاء الضوء على هذه الأحداث، لأنّه يريد للناس أن يعيشوا القصة في أكثر عناصرها الحيّة التي يمكن أن يستلهموها في قضاياهم وواقعهم من خلال الحدث البارز في القصة والأشخاص فيها، لأنّ الحدث ليس مجرد حالة تاريخيّة عابرة، والشخص أو الأشخاص يمثلون رمزاً لكلّ شخصية مماثلة فيما تشتمل عليه من العناصر الإيجابية أو السلبية.

وفي سورة هود، يتحدث القرآن عن أكثر من قصة من قصص الأنبياء، وقد تابعنا فيما مضى من الأبحاث قصة نوح وهود ولوط وشعيب، ونتوقف عند قصة موسى (ع). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ في هذه الآيات اختصار لقصة موسى (ع) وفرعون، فيقدّم القرآن لنا موسى وهو يواجه فرعون وقومه بالحجة الواضحة وبالسُلطان الذي يملك القوة في الضغط على كلّ مواقع فرعون فيما يعتبره من قوة لنفسه، وهي قوة السحر والعنفوان المادي والاجتماعي، فجاء موسى (ع) بعنفوان أكبر وقوة أكثر ثباتاً وتماسكاً فزلزل واقعه، ولم يكن منه إلّا أن لجأ إلى البغي والكلمات التي يخوّف بها قومه حتى لا يؤمنوا بدعوة موسى (ع). وقد كان قومه ساندين جاهلين لا يملكون الثقافة التي يستطيعون من خلالها أن يواجهوا الحجة بالحجة، والسلطان الفكري بالسلطان الفكري، فكانوا ككلّ الجاهلين في كلّ

زمانٍ ومكانٍ يتبعون زخارف الواقع وبهارجه، ويسيرون وراء الشعارات الزائفة، فقد قال لهم فرعون وهو يحذّرهم من خطر موسى وأخيه ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَاحِرٌ أَن يُرِيدَ أَن يُخْرِجَ أَكْم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (طه: ٦٣) وانطلقوا مع هذه الأكاذيب، ولم ينطلقوا إلى عمق الرسالة في دعوة موسى، كانت مشكلتهم كمشكلة الكثيرين من أقوام الأنبياء في التمرد والطغيان وعدم امتلاكهم للرشد، ولذلك لم يكتشفوا حقيقة مَنْ يتولّون أمورهم من الطغاة السفهاء الذين جعلوا من أنفسهم قادة.

وهذه مسألة تدفعنا لنؤكد على معنى القيادة وعن عمق مضمونها وخطّ حركتها، فلا تكون القيادة مجرد شخص يبهنا بطلعته أو ثروته أو نسبه أو موقعه السياسي والإجتماعي. ولذا لا بدّ من أن ندرس القيادة من خلال أهدافها والنتائج التي نحصل عليها من التزامنا بخطّها، وهل هي قيادة تقودنا إلى الجنة أم إلى النار؟ وهذا ما يجعلنا في مسؤولياتنا عن أنفسنا وأمتنا والحياة من حولنا، نواجه مسألة القيادة بوعي وحيوية وعمق.

ونتابع الآن الآيات المباركة في خطّ التفسير ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ لم نرسله ليطلق الكلمة من دون حجة، ولم نبعثه ليقدم الرسالة من غير دليل، بعثناه والحجة معه، ﴿فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الاعراف: ١٠٧) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾ (الاعراف: ١٠٨) أرسله الله تعالى بآياته التي دلّت على أنّه ليس مجرد شخص يقدم دعوة، ولكنه نبيّ يملك القوة من خلال ما أعطاه الله من قوة خارقة مما لا يستطيعه البشر ﴿وَسُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ فقد استطاع أن يواجه فرعون وجبروته بما أعطاه الله من قوة، فكان سلطانه المبين المسدّد من الله في اليد البيضاء والعصا الثعبان، واستطاع بهذا السلطان أن يهزم سلطة وقوة وسيطرة فرعون.

مَسْئُولِيَّتُنَا نَجَاهُ الْأُمَّةِ الْمَهْضِلَةُ

فأرسله الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لم يرسله إلى فرعون وحسب، بل إلى قومه الذين إذا اهتدى فرعون اهتدوا، وإذا ضلُّ ضلُّوا. ونلاحظ في القرآن نقطة مهمة، وهي أن الله تعالى عندما يرسل النبي، فإنه لا يغفل دور الناس حتى ولو كانوا تبعاً للطاغية، لذلك لم يقل القرآن بأن موسى (ع) أرسله الله بآياته وسلطان مبين إلى فرعون دون قومه، وإنما أرسله إلى فرعون ليواجهه بالرسالة، وإلى ملا فرعون ليواجههم بالرسالة أيضاً، وإذا كان فرعون يحجب جماعته وراءه، فإن موسى (ع) يطلق الكلمة لتصل إلى أسماع جماعته لتخترق قلوبهم وعقولهم في الدعوة إلى الله. ونلاحظ أن التحدي الذي أطلقه موسى في وجه السحرة كان تحدياً رسالياً أراد أن يهزُّ ملا فرعون بقوة الرسالة كما يهزُّ فرعون، ونحن نعرف أن السحرة كانوا طليعة جماعة فرعون، فاستطاع (ع) الدخول إلى عقولهم ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (الاعراف: ١٢٠ - ١٢٢) فتمردوا عليه، ولذلك ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (الاعراف: ١٢٣) حاول أن يذهب صورة الهزيمة، ولذلك عمل كما يعمل كثير من الطغاة في هذا العصر عندما يثور الشعب في وجه الطاغية، فيتهم الثوار بأنهم مرتبطون بدولة خارجية تحركهم للإخلال بالنظام العام، كذلك فعل فرعون، وهو يعرف أن لا علاقة لهم بموسى (ع) ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (طه: ٧١) وهكذا استطاع موسى (ع) بهذه الآيات وبالسلطان المبين أن يقتحم القوة الكبرى لدى فرعون والتي يعتمد عليها في السيطرة على الناس وهم السحرة الذين كانوا الفئة المميزة التي تضغط على مشاعر الناس وأحاسيسهم.

وهذا ما يجب أن يتحرك فيه الدعاة إلى الله عندما يقفون في وجه الطاغية، بحيث

لا يستغرقون في أوضاعه وحده، بل ينفذون إلى مواقع القوة التي يعتمد عليها الطاغية من أجل أن يفتحوا قلوبها على الإيمان، حتى يسقط الطاغية ويجعلوا قاعدة هذه الطاغية قاعدتهم. ومن هنا لا بد لنا في كل عملنا الثقافي والسياسي والإجتماعي أن نخاطب الأمة المخدوعة والمضللة والمنحرفة لنملأ قلبها إيماناً ووعياً وصدقاً وإخلاصاً وجهاداً حتى يلتفت الطاغية إلى مَنْ حوله فلا يجد أحداً معه. وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا قريبين إلى الأمة، وإلى الذين يستضعفهم الطغاة ليحولهم إلى جنودٍ لهم يحاربون الطغاة معهم. وهذا الحضور الدائم مع الناس هو ما نلاحظه في حركة رسول الله (ص) حيث كان ينجذب إلى الفقراء ليقتنعهم بدعوته، واستطاع (ص) من خلال هؤلاء الذين لا يملكون جاهاً ولا مالاً أن يقيم دولة الإسلام. وإننا عندما نتحدث عن القيادة أية قيادة لا نُغني دور الأمة وإنما نُبقي الأمة في دائرة الاهتمام، وقد كان من الصفات الرائعة في الإمام الخميني (قده) أنه كان يتحدث عن الله أولاً، وعن الأمة ثانياً، ولا يتحدث عن نفسه، لأنه كان يعرف ما معنى حضور الأمة في الساحة.

وهكذا عندما ننظر إلى الطاغية، فإننا ننظر إلى الأمة التي يحكمها الطاغية، باعتبار أن الطغاة لولا الأمة لم يستطيعوا أن يحكموا ويطلقوا، وبهذا نفد إلى الأمة حتى نفرغ عقلها وقلبها وحياتها من كل تأثيرات الطغاة النفسية عليها حتى نستطيع أن نُضعف علاقتها بالطاغية، ونقوي علاقتها بالذين يعملون على إسقاط الطاغية.. وهذه أمورٌ استيحائية من القرآن وإن لم تكن مذكورة بشكلٍ صريح.

القيادة الرشيدة

ونعود إلى جوِّ السورة، فأرسل الله موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وتركوا موسى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ إتبعوا أمرَ فرعون الذي لا يملك الرشَدَ الفكري والروحي والعملِيَّ في الحياة، لأنهم لم يكونوا الرّاشدين،

فاستطاع بنهجه غير الرشيد أن يسيطر عليهم، لأنهم لو كانوا راشدين لاكتشفوا عدم الرشد في أمره، ولكنهم ساروا في خطّ ضلاله، وهذا ما يُوحى إلينا بأن مشكلة سيطرة الطغاة على الأمة إنّما تنطلق من جهل الأمة وسذاجتها والإبتعاد عن الرشاد في وعيها لكلّ قضاياها، ولو كانت الأمة رشيدة، تعرف نهايات الأمور وبداياتها، وتعرف إيجابياتها وسلبياتها لم يستطع غير الرشيد أن يقود أمرها. ولذلك «كما تكونون يُولى عليكم» وهذا ما يحملنا مسؤولية ترشيد الأمة، دينياً وروحياً وسياسياً واجتماعياً، لأنه لا يمكن أن تحرك أمة للثورة ضدّ الطاغوت إذا لم تعرفها خطر سياسة الطاغوت، والإيجابيات الكبيرة لسياسة الصالحين والمصلحين.

وإنّني أتصوّر أنّ التوجيه الديني الذي عشناه في السنين الماضية والبعيد عن الرشد السياسي والاجتماعي، يتحمّل جزءاً من المسؤولية في سيطرة الطغاة على واقع الناس، لأنّ هذا الواقع أعطاهم صلاةً بدون عمق معنى الصلاة، وصوماً عن الطعام والشراب، من دون أن يعطيهم صوماً عن الطعام والشراب في الأزمات السياسية التي يضغط فيها العدو بسياسته الاقتصادية والتجويعية، وهكذا لم ترشد الأمة، فاستغلّها الطغاة والمستكبرون والظالمون، ولهذا كان أمر فرعون غير رشيد، وكانت الأمة غير رشيدة، فالتقى عدم الرشد هنا بعدم الرشد هناك، وكانت المصاعب والمصائب والنكسات.

المصير

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفرعون هذا إمامٌ قومه، إمامهم في الدنيا يطيعونه في حرب المستضعفين وظلم المحرومين وفي الكفر والانحراف، وعلى هذا فهو إمامهم في نهج النار في الدنيا، وإمامهم في المسير إلى النار يوم القيامة، فكانوا العطاشى الذين يُخِيلُ إليهم أنهم يذهبون إلى الينابيع الباردة الصافية، ولكنه ذهب بهم

﴿فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾ والورد تعبيرٌ عن المسير نحو ينبوع الذي يُروي الظمأ، أما التعبير هنا فيدلُّ على أنَّ فرعون ذهب بهم إلى النار الحارَّة، إلى الينابيع التي تغلي كغلي الحميم ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ﴾ فبئس ينبوع النار الذي يشتمل على الحميم الذي يغلي في البطون، والذي وردوا إليه ووقفوا وانتهوا عنده ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ إِنَّ هؤلاء الذين ساروا مع فرعون ينتظرون منه الجزاء والجوائز والثناء والمديح، اتبعتهم في هذه الدنيا لعنة الله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هؤلاء المنتظرون للجوائز، بانتظارهم جهنم، وما أدراك ما جهنم ﴿بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العطاء الذي سعوا إليه. وهذه الآية المباركة تدفعنا للقول: حاولوا عندما تنطلق الصيحات والكلمات والضوضاء والغوغاء حول فلان لتشيد به أو لتمدحه، والمسيرة تنطلق وفلان يتقدَّم المسيرة، أن تتذكروا أنَّ فرعون كان يتقدم قومه في الدنيا، وسيقدِّم قومه يوم القيامة ليوردَهم النَّارَ.. فكروا في كُلِّ مَنْ يمشي أمامكم وتمشون وراءه، هل يوردكم النار أم يوردكم الجنة؟ وهذه المسألة تحتاج إلى مزيدٍ من العقل والوعي والإيمان والحسابات الدقيقة في كُلِّ ما نسمع ونرى ونواجه من زخارف الدنيا وزينتها وأوضاعها، لأنَّ المسألة دقيقة دقيقة وعميقة عميقة كونها تتصل بالمصير، وما أدراك ما المصير، إمَّا جنة عرضها السموات والأرض، وإمَّا النار التي أُعدَّت للكافرين.

﴿ذَلِكَ مِنْ آدْبَاءِ الْقُرَى نَفِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
 وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ
 الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ
 الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ
 مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ
 شَقُوا فَبِالنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَبِ
 الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ
 مَجْدُودٍ ﴿١٠٠ - ١٠٨﴾.

زَمَرُوا فَظَلَمُوا

وتبقى العبرة في قصص الأنبياء التي حدث الله تعالى بها رسوله (ص)، وحدثنا بها من خلال رسوله، وهذا القصص هو ذلك التاريخ الذي تضمن مواقف الأنبياء ودعوتهم، ومواقف أممهم منهم، وما عذب الله به الذين عصوا ربهم وتمردوا عليه، وما أفاض الله من نعمه على الذين آمنوا بربهم وانطلقوا مع رسله في خط الإيمان ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ تلك القرى التي كانت ساحة من ساحات الدعوة، ومنطلقاً من منطلقات الهدى، عاش فيها أولئك الناس الذين انطلق الأنبياء من أجل هدايتهم للصراط المستقيم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ وهذا ما تلوناه عليك - يا محمد - من قصصهم حيث واجهوا دعوات الأنبياء بالكفر والتمرد ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ومن هذه القرى ما هو باقٍ على حاله، قائمٌ في بنيانه وفي كل ما تفرضه وتحركه الحياة، ومنها حصيد، والحصاد هو قطع الزرع من جذوره وأصوله. وهذا كناية عن القرى التي دُمِرَت بالعذاب، فحصدتها الله حصداً، حصد أهلها بأن أماتهم بالعذاب والعقاب، وحصد بنيانها بالدمار.

وما نزل بهم كان من صنع أيديهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لا يحتاج الله تعالى أن يظلم أحداً من عباده، فهو المالك لعباده ولما ملّكهم، وأفاض عليهم نعمه، ودعاهم إلى طاعته، وأقام عليهم الحجة بمعرفته في توحيده، ودلّهم على موارد الخير في معرفته، ورغبهم في رضوانه وجنته، وحذّره من النتائج السلبية القاسية المهلكة التي تُسقطهم.. ولكنهم تمردوا عليه، فركبوا رؤوسهم وأغلقوا أذانهم وعيونهم وعقولهم عن ذلك كله، ولقد أقام سبحانه في كل ذلك الحجة عليهم، وأعطاهم الخيار فيما يختارونه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨) ولكنهم اختاروا العذاب باختيارهم للكفر، واختاروا

الشرك والعصيان والتمرد، فظلموا أنفسهم عندما وجهوها في الإتجاه الذي يقودها إلى الهلاك ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم وشركهم وعصيانهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وينزل بهم العذاب في الدنيا أو الآخرة، فيتلّفون يميناً وشمالاً ويتساعلون، أين الزعيم والملك والرئيس والغني؟ يلتفتون وينادون فلا يرون هناك أيّ مظهر للقوة، بل يرون أولئك الذين كانوا يستظلّون بظلّهم وقوتهم ويحتمون بسلطانهم، ضعفاء أذلاء مهوورين لا يملكون لأنفسهم شيئاً ولا يُغنون عنها شيئاً، فكيف يُغنون عن هؤلاء الذين أطاعوهم وعبدوهم من دون الله سبحانه؟

الخسارة الكبرى

وتلك هي الحسرة الكبرى، حيث يجد الإنسان العاصي نفسه أمام الإستحقاق الكبير والمصير الصعب ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ سقطوا وسقطت معهم كل تلك الآلهة، ماتوا وماتت تلك الآلهة، ومن الطبيعي أن الآلهة فيما تخترنه من الضعف لا يمكن أن تُغني عنهم شيئاً مهما استظلّوا بظلّها واستقوا بقوتها إذا ما أتى أمر الله بعقابهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ هذه الآلهة لم تزد هؤلاء إلاّ خسارة على خسارة من خلال ما كانوا يحيطونهم به من أوضاع العبادة والتقديس، والإلتزام بأفكارهم المنحرفة والمتخلّفة والجاهلة. والقرآن لا يتحدّث عن ألّهتهم التي تتمثّل في أصنامهم وأوثانهم وحسب، بل إنّ الحديث عن ألّهتهم يشمل ألّهتهم التي كانت تتمثّل في الشخصيات التي تتدّعي لنفسها الربوبية، وتعتبر نفسها في مواقع القوة، وتقود الناس إلى الخط الذي ينحرف عن الله، كفرعون وغيره ممن كانوا يدعون لأنفسهم الربوبية.

ومن خلال ذلك نُظِّلُ على واقعنا الذي نرى فيه الرئاسات والزعامات والوجاهات الكبرى التي تعيش الإستكبار والكفر، وتملك القوة في مواقع المال والسياسة والحكم والسلطة والأمن والسلاح والكثرة العددية، ونرى أيضاً الذين ينسحقون أمامهم، ليسقطوا ويحطّموا قيمهم الصالحة في مقابل قيم هؤلاء الفاسدة ليتبعوهم ويطيعوهم ويعبدوهم من دون الله سبحانه فاستغرقوا فيهم، وغابوا عن مواقع قوة الله التي لا معنى لأي قوة أمامها. وهكذا نرى أمام مظاهر القوة في الكون التي يملكها المهيمنون على الأرض، كيف أن الناس تشعر بالإحباط والسقوط أمامهم، عندما يعمل هؤلاء المهيمنون على جعل سياسة الناس المستضعفين على هامش سياستهم، واقتصادهم على هامش اقتصادهم، فيقبلون ويخضعون لسياستهم واقتصادهم واستكبارهم. وهنا يمكن لنا أن ننطلق في واقعنا بهذه الآية، كما انطلق الواقع السابق ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عندما رضخوا للذلّ والانحطاط والإستكبار ولم يعملوا على تغيير واقعهم.

تنوع العذاب

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فهذه القرى التي ظلمت نفسها وكفرت بأنعم الله وخضعت للطواغيت وتمردت على الأنبياء، يُرسل الله عليها عذابه المتنوع من الخسف والزلازل والصيحة والطوفان وما إلى ذلك. فهذا العذاب الذي نالهم كان نتيجة حتمية لطبيعة فسادهم الإجتماعي والسياسي والإقتصادي والأخلاقي والروحي ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ بحسب طبيعة ألوان أخذه وعذابه وسخطه، فالله هو القادر والقاهر فوق عباده، وهو الغني عن كل خلقه، وكل خلقه فقير إليه، ولذلك فإن غضب الله على الظالمين لأنفسهم بالكفر أو الفسق لا يملكون مطلقاً أن يتحملوه، وهذا ما عبّر عنه إمام المتقين عليّ (ع) في دعاء كميل: «لأنّه لا

يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض» ما قيمة السموات والأرض أمام قدرة الله؟ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام: ٩١).

وهذا العذاب الذي يُنزلهُ الله تعالى في الدنيا على الذين ظلموا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ عندما يرى الإنسان عذاب الدنيا - والذي رغم هوله وقوته، فهو لا يمثل شيئاً أمام عذاب الآخرة - فسيُفكر في عذاب الآخرة ويستعدّ لكلّ الأوضاع التي تخلّص منه وتُبعدُ عنه. وهذه المسألة ينبغي لنا أن نعيشها لتدخل إلى قلوبنا ومشاعرنا وعقولنا، فنبتعد عن كلّ عملٍ توعّد الله بالعذاب على من يقوم به، فيحقّق لنا ذلك الانضباط والتوازن والثبات في خطّ الإستقامة والخوف من الله تعالى، وقد ورد في بعض الأحاديث «رأس الحكمة مخافة الله»، وعندما يخاف الإنسان من الله فإنّه يضع الأشياء في مواضعها والعمل في موضعه، ويتكلّم الكلمة في محلّها، ويتحرك الحركة في طريقها الطبيعي، ويتوازن في أموره، ولا يبادر إلى الخطأ خوفاً من عقاب الله.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل عليّ رقيبٌ

وفي الدعاء «وكنْتَ أنتَ الرقيبَ عليّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم»، ولذلك كان من صفات المؤمن أن يكون في قلبه «نار خيفة ونور رجاء»، وفي دعاء أبي حمزة الثمالي: «أدعوك يا ربّ راهباً راغباً، إذا رأيتُ مولاي ذنوبي فرزتُ، وإذا نظرتُ إلى كرمك طمعتُ» هذا المعنى لا بدّ أن نربّي أنفسنا عليه إستعداداً للوقوف بين يديه سبحانه ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ باختلاف لغاتهم وثقافتهم وألوانهم وقومياتهم ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يوم يحضره ويشهده جميع الخلق ولا يغيب عنه أحدٌ، إنّهُ يوم الحشر ﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ

تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ (الجاثية: ٢٨) هي اللحظة التي يلتقي فيها كُلُّ الخلق منذ آدم وحتى آخر مَنْ خلقه الله تعالى ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ فالله تعالى يؤخّر هذا اليوم لأجلِ حدّده في علمه، ولم يُطلع أحداً على هذا اليوم.

بين الشقاء والسعادة

﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هذا اليوم الذي يجمع الله فيه الناس لا سلطة فيه إلا لله، ويوم يأتي ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في يوم القيامة لا يملك فيه الناس الخيار في أن يتكلّموا أو لا يتكلّموا، فقد جعل لهم الحرية في الدنيا أن يتكلّموا بما يشاؤون وترك لهم أن يختاروا الخير في نتائج كلامهم، وحذّره من الشر أيضاً في نتائج كلامهم، ولكن ليس لهم الخيار في ذلك يوم القيامة، فهناك ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ: ٣٨) بحيث أن الله سبحانه يأذن بالكلام لمن يقول الصواب، وقد يأذن لبعض الناس بالكلام في الحالات التي يريد أن يُظهر حقيقة هؤلاء في كذبهم وزيفهم وفشلهم في الحياة الدنيا، ونجد أيضاً أنه لا يأذن لبعضهم عندما يريدون تبرير ما وقعوا فيه ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (المرسلات: ٣٥ - ٣٦) فالإعتذار عبث، لأنه سبحانه يعرف أن هؤلاء لا يملكون عذراً حقيقياً فيما قدّموه، ولذا فإنّ الإعتذار لا يمثل أيّ شيء، هو كلام لغو، والله لا يأذن به.

ونشير إلى أنه سبحانه عندما يأذن لبعضهم في الكلام، فلتحقيق معنى يريد تعالى للناس أن يعرفوه، إمّا للتعبير عن الحسرة كما في قوله تعالى ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦) وإمّا للتعبير عن تمنّي العودة إلى الدنيا بعد أن عرف الإنسان المذنب أن لا قيمة لكلّ عمله ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠).

وهؤلاء الذين يجتمعون في الآخرة ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالشقي هو الذي تحرك في حياته، في عقيدته وقوله وفعله وعلاقاته في الخط المنحرف الذي يؤدي إلى النار. أما السعيد فهو الذي عرف الله في توحيده، ووقف في حياته في كل فكره وإحساسه وعقله وحركته على أساس الإيمان بالله منطلقاً في خط الطاعة، ومبتعداً عن خط المعصية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَقِي النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فالأشقياء هم الذين اختاروا الكفر والتمرد على الله، لذلك فإن مصيرهم في الآخرة الدخول إلى النار، وإضافة إلى قوة زفيرهم وشهيقهم بسبب الخوف، هناك زفير وشهيق جهنم اللذان يضغطان على أنفاسهم، فيزيدانها قوة وعدم استقرار نتيجة للهب النار وأجوائها الضاغطة.

وفي موضوع الشقاء والسعادة يذهب البعض إلى أن هذه المسألة مخلوقة في الإنسان في ذاتياته، فالله خلق الشقي شقياً، وخلق السعيد سعيداً كما ورد في الحديث: «السعيد سعيدٌ في بطن أمه، والشقي شقيٌّ في بطن أمه» وكأن الشقاوة هي القضاء والقدر للشقي فلا يملك أن يتحرر منها في حياته، والسعادة هي القضاء والقدر للسعيد، فلا يملك أن ينحرف عن خط سعادته. ولكن الله سبحانه حدثنا في القرآن أن الإنسان بيده أمر سعادته وشقاوته، أي أنه هو الذي يختار السعادة أو الشقاوة، إنطلاقاً من قناعته واختياره ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣) فالله تعالى أوضح له طريق الخير وطريق الشر، فإما أن يشكر الله، شكر الكلمة، وشكر العمل في الطاعة والاستقامة فيكون سائراً في طريق الجنة، وإما أن يكفر بنعمة الله، فيعصيه ويجحد نعمة، فينطلق في خط النار.

وبهذا نرى بأن الله تعالى يؤكد على عنصر الإختيار في هذا المجال، ولم يرد
لأناس أن يكونوا سعداء، ولآخرين أن يكونوا أشقياء. نعم إنه تعالى يعرف السعيد
قبل أن يخلق، والشقي قبل أن يخلق، وعندما خلق الناس وقدر لهم حركتهم في
الحياة، وأطلق لهم إرادتهم في كل أقوالهم وأعمالهم وعلاقاتهم، فإنه سبحانه يعلم
بأن فلاناً سيختار الشر بإرادته والخير بإرادته. وإن علم الله لا يتدخل في المعلوم،
أي في القضية نفسها التي تعلق بها العلم.. فعلم الله بشقاء أو سعادة الإنسان ليس
معناه أن الإنسان يشقى أو يسعد لأنه سبحانه يعلم منه ذلك. وعلى هذا فإن السعادة
التي تمثل نجات الإنسان في الآخرة، والشقاوة التي تمثل هلاكه في الآخرة، ليست
أمراً خارجاً عن إرادة واختيار الإنسان.

فهؤلاء الأشقياء يدخلون إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ﴾ فلا يمكن الهروب والتخلص من عذابه، ويبقى ذلك مستمراً باستمرار
السموات والأرض، والظاهر أنها مستمرة بقريئة بعض الآيات القرآنية الدالة على
التأبيد والدوام ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولأن مشيئة الله تعالى تحكم الوجود كله، فإنها
إذا أرادت أن تحكم على الأشقياء بالخلود فلا راد لمشيئة الله، وإذا أرادت أن ترفع
عنهم العذاب في المستقبل، فذلك أيضاً خاضع للمشيئة الإلهية ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا
يُرِيدُ﴾ يفعل ما يشاء، فهو الخالق والمهيمن وكل شيء خاضع لإرادته ومشيئته
تعالى. وفي مقابل الأشقياء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ﴾ دخلوها لأنهم
تركوا طاعة الشيطان، والتزموا طاعة الرحمن، هؤلاء هم الذين عملوا في الدنيا
للآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ
غَيْرٌ مَّجْدُودٍ﴾ أي أن هذا العطاء غير مقطوع أبداً.

وهنا نتساءل: نعرف أن الله تعالى يُخرج أناساً من النار إذا اقتضت مشيئته ذلك، وهذا ما نفهمه من الآية السابقة التي تتحدث عن الأشقياء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ولكن هل يُخرج أناساً من الجنة بعد أن يدخلوا إليها؟ نجيب بأن كل شيء خاضع لمشيئته، فالأشياء عندما تبقى أو تفتنى، تبقى وتفتنى بمشيئته، فالسعداء يبقون في الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ كأن القرآن يريد أن يقول بأن هذا الخلود ليس شيئاً حتمياً ذاتياً ينطلق من طبيعة تكوينهم ووجودهم، وإنما هو منطلق بمشيئة الله في الإمتداد، كما هو منطلق بمشيئة الله في الحدوث، فالإنسان يولد ويعيش ويُبْعَث ويستمر في الجنة بمشيئة الله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني إذا شاء الله أن يُخرج الإنسان من الجنة، فإنه يخرج، وعلى هذا، فالخلود فيها متوقف على مشيئته، وهكذا في مسألة النار، فإذا شاء الله تعالى أن يُخرج الشقي من النار فإنه يخرج، ولكن هل شاء الله أن يُخرج السعداء من الجنة؟ إذا شاء الله قَطَعَ الإستمرار والبقاء في الجنة فإنه يقطعه، ولكن قد لا يشاء الله ذلك، وهو لم يشأ ذلك، وما يؤكد هذا ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ هذا العطاء الرباني الذي يناله السعيد من دخول الجنة، عطاءً مستمرٌ وغير منقطع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيرٌ——بَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ* وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ* وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ* وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ* وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١٠٩ - ١١٧).

تقليد الآباء ليس إرثاً

لا يزال الخطاب القرآني مُوجَّهاً للنبيّ (ص) ولكلِّ عاملٍ في سبيل الله، فالله سبحانه وتعالى يخاطب نبيّه (ص) في القرآن كداعية إلى الله، وما يلاقيه في دعوته من تحدّيات قد يلاقيها كلُّ داعٍ إلى الله وعاملٍ في سبيله، ومن هنا نستطيع أن نعتبر كلَّ خطابٍ موجَّه للرسول (ص) هو موجَّه إلينا، لأنَّه سبحانه يخاطب عباده من خلال خطابه للرسول.

وبعد أن تحدّث الله إلينا فيما تقدّم من آياته عن هؤلاء الذين شقّوا ودخلوا النار، يوجَّه الله خطابه للنبيّ (ص) عند مواجهته لهؤلاء المشركين المتمرّدين بأن يكون في وضوح من الرؤية بالنسبة إليهم فلا يشكُّ بأنهم في ضلال ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ لا تك في شكٍّ وريب مما يعبد هؤلاء من الأصنام والأوثان ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ساروا على الطريق الذي سار فيه مَنْ كان قبلهم من آبائهم، ولم يحاولوا أن يفكروا تفكيراً مستقلاً، فقلّدوهم من دون أن يملك آبائهم أساساً لقوة الفكر والموقف، وعلى هذا يكون تقليد الآباء منطقاً غير إنساني وغير إسلامي. فهو غير إنساني لأنَّ المسؤولية تعتبر أنَّ على الإنسان ألا يرث أفكاره، صحيح أنَّه يرث عن آبائه المال والأثاث والعمران بطبيعة قانون الإرث، ولكن لا يرث أفكار الآباء والأجداد، لأنَّ الفكر أمرٌ من الأمور التي لا تنتقل بموت إنسان وحياة إنسان، وعلى هذا، فعملية الفكر تنطلق من الذات والعقل والإرادة. ونحن آمنّا بالإسلام لأننا اقتنعنا به من خلال فكرنا ومسؤوليتنا أمام الله.

ولأنَّ تقليد الآباء مسألة استنكرها القرآن الكريم، فإنَّ هؤلاء الذين يعبدون ما عبد آبائهم من قبل ﴿وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾. سنعطيهما كلَّ نصيبهم من العذاب والعقاب على أساس أعمالهم.

تدريّف الكلم عن مواضعه

ثم يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى الخلافات التي كانت تحصل حول دين موسى (ع) ودين عيسى (ع)، فإله سبحانه أنزل الكتاب ليفرق ويفصل بين الحقّ والباطل، بين الصواب والخطأ، ولكن مشكلة الناس أنهم لم يفهموا الكتاب حق فهمه، ولم يتدبروه حق التدبر فيه، فحرفوا الكلم عن مواضعه، واختلفوا فيه، وحاول كل فريق أن يتخذ هذا الكتاب حجة على ما يقتنع به ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ لولا أن الله لم يجعل لكل أمة أجلاً فيما يريد أن يعذبها به، ﴿لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ لأنزل العذاب عليهم وأنهى أمرهم، ولكنه سبحانه جعل لكل أمة أجلاً، ولكل عذاب أجلاً، وإنه تعالى يمهّل ولا يمهّل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ عَرْيِبٌ﴾ لا يعيشون وضوح الفكرة ووضوح الحق في الكتاب، بل يعيشون الشك والريب لأنهم لم يستضيئوا بنور الحق، بل حاولوا أن يوظفوا الكتاب تبريراً لأوضاعهم المنحرفة وأطماعهم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لَيُوقِفْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ إنه تعالى يجعل النتائج على حسب المقدمات، فالإنسان يحصد ما يزرع، ولذا فإن الناس يُعاملون على أساس أعمالهم، فلكل عمل جزاء، ولكل عمل ثواب وعقاب، وسيوفي الله العاملين أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فالله تعالى عندما يريد أن يوفي الناس أعمالهم، فإنه لا يحتاج إلى من يعرفه أعمالهم ودوافعها وطبيعتها وحدودها، فهو خبير بما يفعلونه ويعملونه، من خلال النية التي ينوونها والدوافع التي تدفعهم للعمل، خبير بما يعملون في الخفاء أو العلن، ومن هنا، فعلى الإنسان أن يفكر دائماً أنه مكشوف لربه في كل أعماله وأقواله وأوضاعه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

خطُ النجاة

وبعد أن تجول هذه الآيات المباركة مع النبي (ص) فيما يريد أن يتحدث به القرآن عن الذين تحدوا الرسالة، ووقفوا في وجهه (ص) وانحرفوا عن الخط، يحدد الله تعالى للنبي (ص) ولن معه عنواناً من عناوين الدعوة ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ إنه نداء لكل داعية إلى الله، إذا ما حاولت الأوضاع والظروف أن تحرفه ذات اليمين وذات الشمال بأن يبقى مستقيماً في كلماته وأفعاله وعلاقاته ومواقفه، وثابتاً على النهج الذي حدده الله سبحانه وتعالى بحيث تكون البداية من الله، والنهاية مع الله، والسير فيما بين البداية والنهاية في خط الله، وهو خط شريعته التي أنزلها على رسوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

إنه خط الإستقامة الذي يطلب الله من رسوله أن يسلكه ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ كذلك هؤلاء الناس الذين آمنوا بك وساروا معك، وابتعدوا عن الشرك والضلال، هم مطالبون كذلك بالسير على الخط ذاته ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان هو التجاوز عن الحد.. أي لا تتجاوزوا حدود الله في العقيدة والشريعة والمفاهيم كلها، وابقوا في الحد الطبيعي الذي رسمه الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إنه تعالى يراقبكم ويُبصر من فوق عرشه ما تحت سبع أرضين، يراقبكم في كل شيء، وعلى هذا الأساس لا بد أن تدققوا في مواقفكم وقناعاتكم وكلماتكم، لتعرفوا إن كنتم تسيرون في الخط الذي رسمه الله أم أنكم تجاوزتم الحد الطبيعي في هذا الجانب أو ذاك.

وبعد ذلك يؤكد القرآن الكريم على مسألة أساسية في علاقة المؤمن الرسالي بالمحيط الذي يعيش فيه ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ في هذه الآية المباركة يحذر الله سبحانه الذي آمنوا من أن يقتربوا من الظالمين إقتراباً المحبة والمعاونة والمساعدة والمتابعة والنصرة ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تميلوا إليهم ولا تستسلموا لهم، فلا تحبّوهم ولا تساعدهم، ولا تقاتلوا معهم أعداءهم، وابتمدوا عن كلّ ما يمثل الركون والاطمئنان إليهم. وقضية الظلم من القضايا التي يريد الله اقتلاعها من أساسها، فلا يكفي ألا يكون الإنسان ظالماً، بل يجب ألا يتعاطف مع الظالم، وأن يغلق قلبه عن كل ظالم، ولو كان قريباً له بحيث لا ينفتح عليه أبداً، سواء كان ظالماً كبيراً أو صغيراً، والظلمة على أقسام، هناك ظالم صغير، يظلم زوجته وولده وجاره والعامل عنده، وهناك ظالم كبير، يظلم أمته وشعبه وبلده من خلال تصرفاته ومواقفه. والله في هذا يصدنا عن حبّ الظالمين ومساعدتهم وتبرير ظلمهم، ففي الحديث عن النبيّ (ص): «الظالم والراضي بالظلم والمعين عليه شركاء ثلاثة».

﴿فَتَمَسْكُمُ النَّارُ﴾ فالركون إلى هؤلاء الظالمين بمساعدتهم وتأييدهم يُوجب دخول النار، ففي يوم القيامة يُحشر المرء مع مَنْ أَحَبَّ، وفي الحديث: «إذا أردت أن تعرف نفسك فانظر قلبك، فإن كان قلبك يوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله ففبك خيرٌ والله يحبُّك، وإن كان قلبك يوالي أعداء الله ويعادي أولياء الله، فليس فبك خير، والله يبغضك، والمرء مع مَنْ أَحَبَّ» ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ الله تعالى وحده هو وليكم في الدنيا والآخرة، وهؤلاء الظالمون لن يفيدوكم بشيء يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَا تَنْصَرُونَ﴾ ولن ينصركم أحدٌ لأنكم قطعتم العلاقات مع الله وربطتم مصيركم وحياتكم وأهدافكم بالظالمين.

إنها البداية والنهاية

وبعد ذلك يركز القرآن الكريم على الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾

جعل الله تعالى النهارَ مشتملاً في طرفيه على الصلاة بحيث يبدأ النهار بالصلاة وينتهي بالصلاة. وفي هذه الآية يخاطب تعالى النبي (ص) ومن خلاله يخاطب الأمة بضرورة إقامة الصلاة التي تمثل مظهراً من مظاهر العبودية لله تعالى، وتختزن البُعدَ الروحي الذي يدفع بالإنسان نحو مسؤولياته أمام الله، وأمام الحياة من حوله، ولهذا كان وجوب إقامتها في أول النهار ونهايته ﴿وَرُلُفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي في الساعات الأولى القريبة من النهار ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فهذه الصلوات على ما جاء في بعض الأحاديث هي حسنات للإنسان تُذهب السيئات التي اقترفها، إذا ما أحسن في صلاته خشوعاً وتوجُّهاً وتدريباً للنفس على التوبة ﴿ذَلِكَ نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ ليعرفوا طريق خلاصهم ونجاتهم من خلال هذا التوجيه ﴿وَاصْبِرْ﴾ واصبر على مسؤولياتك وصلاتك وحجَّك وصومك وأمانتك وعفتك وعلى حركة العدالة في علاقاتك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يتحركون في خطِّ الإحسان، ويصبرون على ما يبذلونه من تضحيات في هذا الخط، لأنهم يتقربون إلى الله تعالى بذلك.

ظلموا وأفسدوا فأخذهم الله بذلك

وينتقل الحديث بعد ذلك عن تاريخ الأمم التي سبقت الدعوة الإسلامية ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فقد أرسل الله تعالى إلى هؤلاء رسلاً يدعوهم إلى الله، ويوجهونهم إلى الصلاح والإصلاح، وينهونهم عن الفساد، ويحكمونهم مسؤولية الدعوة إلى الله، ويتساءل القرآن هنا، هل كان من هؤلاء الناس الذين توفرت لهم وسائل الهداية، من يسير في خطِّ النهي عن الفساد؟ ومسؤولية النهي عن الفساد مسؤولية كُلِّ جيلٍ يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ومسؤوليته أن يواجه كُلَّ أنواع الفساد، سواء كان فساداً في العقيدة أو في الأخلاق، أو فساداً في حركة المجتمع، في السياسة والإقتصاد أو

فساداً اجتماعياً أو فردياً. ولذا، فإنَّ على المؤمنين الذين يحملون المسؤولية أمام الله، أن تكون حركتهم في الحياة حركة الناهين عن الفساد في الأرض، سواءً كان نهياً بالكلمة أو اليد، فهو سبحانه لا يريد للناس أن يقفوا متفرجين على الفساد وهو ينتشر في الأرض، أو أن يكونوا حياديين بين دعوة الصلاح ودعوة الفساد، لأنهم يحبون أن يرتاحوا، ويبتعدوا بأنفسهم عن المشاكل، ويتخفَّعوا من المسؤولية. وهذا ما يفعله الكثيرون، لأنهم لا يريدون مواجهة المشاكل التي تُثعب الرأس وتُثقل عليهم أمنهم واقتصادهم.

إنَّ الله تعالى أعطى الإنسان عقلاً ليستطيع أن يميِّز فيه الحقَّ من الباطل، وأعطاه إرادةً ليستطيع من خلالها أن يؤكِّد على مواقفه على أساس الحق، وأعطاه طاقةً ليثبت أقدامه في كلِّ مواقع الإحتزان، وإنَّه سبحانه عندما أعطاه كلَّ ذلك فليحمِّله مسؤولية نفسه، ومسؤولية بناء الحياة على الأسس التي يريدها سبحانه. وتكريم الله للإنسان في ذلك، ليس تكريماً وتشريفاً ذاتياً، وليس للإنسان أن يقف في الحياة وقفة الطاووس أمام كلِّ المخلوقات ليقول، إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء: ٧٠) ليزهو الإنسان بتكريم وتفضيل الله له، ليس له ذلك، فالله تعالى كرَّمه عندما حمَّله مسؤولية الحياة، ولذلك، فإنَّ الله يكرِّم الإنسان، عندما يكون في موقع كرامة الله، بمعنى أن يكون في موقع طاعة الله.

فكلُّ إنسانٍ يتحمَّل المسؤولية بقدر طاقاته وإمكاناته، ولا مجال للإبتعاد والحياد في خطِّ المسؤولية، والله تعالى يعاقب الذين يخذلون الحقَّ تماماً كمن يدعمون الباطل، لأنَّ مَنْ يخذل الحقَّ، فهو يقدِّم للباطل قوَّةً سلبيةً، وهذا ما عبَّر عنه أمير المؤمنين عليُّ (ع) عندما رأى إثنين من الذين وقفوا على الحياد بينه وبين معاوية، فقال (ع): «إِنَّهُمَا خَذَلَا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرَا الْبَاطِلَ» (*) هما لم ينصرا الباطل،

(*) نهج البلاغة، قصار الحكم ١٨.

صحيح، ولكنهما خذلا الحق، وخذلانهما للحق يعطي الباطل نصرةً سلبية. فالحياديون يُعتبرون فريقاً مؤيداً للباطل، وإن لم يدعموه بقوتهم بشكل مباشر، ولكنهم دعموه بخذلانهم للحق، وكلما حُيِّدَ النَّاسُ عن الحق، كلما فَقَدَ الحقُّ قوَّةَ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي جماعة من النَّاسِ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يحصل هذا النهي عن الفساد، ولأنه لم يحصل، فإنَّهم استحقوا عذابَ الله سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من العذاب، وهذه القلَّةُ القليلة التي اتَّبعَتِ الرِّسَالَاتِ وسارت مع الرسل وتحملت مسؤولياتها أمام الله، هي التي نجت بإيمانها من عذاب الله ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ الظالمون لأنفسهم هم هؤلاء الذين ضعفوا عن الوقوف في مواقف التحدي، وهم الذين خضعوا للمستكبرين فاتَّبَعُوهم في خط الكفر والضلال والظلم، والظالمون هم الذين عاشوا الترف المادي، ولذلك، فقد كانت كل أعمالهم وأهدافهم في الحياة محصورة في المحافظة على امتيازاتهم المادية والاجتماعية، فخافوا أن يسيروا في مواقع التحدي للفساد ومواجهة الظالمين والمستكبرين، فاختاروا أن يظلُّوا أنفسهم ليحوَّلُوها إلى طاقة للكفر والضلال والفسق، حفاظاً على ما أُتْرِفُوا فيه من مالٍ وشهواتٍ ولذاتٍ، وما إلى ذلك ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ لأنَّهم استكبروا وظلموا وبنوا حياتهم على أساس الإعتبارات المادية، وجعلوا أهدافهم في الحياة منطلقةً في سبيل الحصول على لذاتهم وشهواتهم ومطامعهم ومكاسبهم المحرَّمة، وبذلك كانوا مجرمين عندما عملوا على إبعاد النَّاسِ عن الله والرسل والرسالات، فتحركوا في ساحة الجريمة من دون خوف من الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ إِنَّ الله سبحانه وتعالى عندما يُنزل العذاب بأية قرية من القرى، أو أيِّ مجتمعٍ من المجتمعات، فإنه لا

يُنْزِلُهُ رَغْبَةً فِي الْعَذَابِ أَوْ مِنْ خِلَالِ عَقْدَةٍ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَكْبِرُونَ وَالظَّالِمُونَ الَّذِينَ يَتْلُوْنَ بَظْلَمِ النَّاسِ وَتَعْذِيبِهِمْ، بَلْ يَنْزِلُهُ بِهِذِهِ الْقَرْيَةِ أَوْ ذَاكَ الْمَجْتَمَعَ بِسَبَبِ مَا أَسْرَفُوا فِيهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١) لَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْفَسَادِ، وَلَأَنَّهُمْ زَرَعُوا الظلم والإستكبار والفساد في الحياة، فَإِنَّهُمْ يَتَحَمَّلُونَ كُلَّ النَّتَائِجِ السَّلْبِيَّةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢) إِنَّ هَذَا الْجُوعَ وَالْخَوْفَ كَانَ نَتِيجَةً حَتْمِيَّةً لِلْكَفْرِ الْعَقِيدِيِّ الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى كُفْرٍ عَمَلِيٍّ فِي الْإِنْحِرَافِ الْإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُثِيرُ الْآلَامَ فِي النَّاسِ، فَحَدَّثَ الْإِحْتِكَارَ وَانْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى الْجُوعِ، وَتَسَلَّطَ الظَّالِمُونَ بِظُلْمِهِمْ فَكَانَ الْخَوْفُ، وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ بِأَيْدِي النَّاسِ.

وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْمَجْتَمَعُ مَجْتَمَعًا صَالِحًا مِنْ نَاحِيَةِ فِكْرِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ، فَإِنَّ مِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ النَّتَائِجُ نَتَائِجَ طَيِّبَةٍ وَخَيْرَةٍ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْاقِبَ اللَّهُ مَجْتَمَعًا يَسُودُهُ الصَّلَاحُ، وَيَنْتَفِي مِنْهُ الظُّلْمُ وَالْفَسَادُ، بَلْ إِنَّ نَتَائِجَ أَعْمَالِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَوْ هَذَا الْمَجْتَمَعِ، سَتَكُونُ نَتَائِجَ سَلَامٍ فِي نَهَايَةِ الطَّرِيقِ، وَإِنْ عَاشَتْ بَعْضُ الصَّعَابِ وَالْآلَامِ وَالْمَشَاكِلِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ قُودَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١١٨ - ١٢٣).

بيده كل شيء وترك الخيار للإنسان

في الجزء الأخير من سورة هود (ع) المباركة حديثٌ عن قدرة الله تعالى بجعل الناس على رأي واحد، ﴿وَكَلَّ شَاءَ رَبِّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فكما خلق للإنسان عيينين وأذنين، يُمكن له تعالى أن يخلق له رأياً واحداً، فلا يختلف إنسانٌ عن إنسانٍ في الفكر، فلا يختار واحداً طريق الحق، وآخر طريق الباطل، ولا يختلف الناس حول الدين والأنبياء... لكن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يصل إلى الهدى باختياره وإرادته فيما يريد أن يلتزمه من فكر، وما يسير عليه من خط، إنطلاقاً من قناعته التي تتكون من الفكر والإرادة.

وإذا ما عرفنا أن الله تعالى خلق الحيوان بغريزة دون عقل، وخلق الملائكة بعقل دون غريزة، وخلق الإنسان بعقل وغريزة، فبالعقل وبما زُوِّد من وسائل، يختار الإنسان بإرادته ما فيه نجاته ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) وبالغريزة ينحرف من الخير إلى الشر، وبإرادته واختياره كذلك. ولذا، فإن الله حمّل الإنسان مسؤولية نفسه بعدما أعطاه العقل الذي يستطيع به أن يدرك حقائق الأشياء لو سار في الاتجاه الصحيح، ووضع إلى جانبه الغريزة ليكون الإنسان في حالة صراع مع الحياة من حوله. ومن هنا كان الناس مختلفين، مختلفين على الله والنبي والرسل والرسالات، وعلى الخطوط التي يتحركون فيها ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لا يزالون مختلفين في حركتهم في الحياة، بمعنى أنهم يتحركون في خطٍ مختلفٍ قد يؤدي بهم إلى الباطل والانحراف.

شمول الرحمة

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا هؤلاء الذين عاشوا العقل والغريزة بمسؤولية، فلم يكتبوا غرائزهم، وإنما حركوها باتجاه ما تفرضه شروط حياتهم في علاقتها

بالغرائز التي ضبطوها ولم يسمحوا لها أن تستولي على العقل لتتحرف به عن الخطّ الصحيح. هؤلاء الذين فهموا الفكرة كأساس للمسؤولية، وفهموا الإرادة التي أعطاهها الله للإنسان كقوة في حركة المسؤولية، وفهموا الحواس من السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس التي وهبها الله للإنسان على أنّها القوى التي تزود العقل بالمعلومات، ليتحرّك العقل من خلال هذه المعلومات إلى النتائج الإيجابية التي تنتهي بالإنسان إلى الحق والخير ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلاّ مَنْ أدركه الله برحمته فأفاض عليه من ذلك، فسار في طريق الحق، ولم يقع في قبضة الاختلاف الذي يؤدي به إلى الانحراف أو الباطل ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بعض المفسرين يقول بأنّ هذا الجزء من الآية عائد إلى ما قبله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي أنّ الناس لا يزالون مختلفين في الحياة ما استمرت الحياة، مختلفين في فهمهم لقضايا الحق والباطل ومتفرّقين في ذلك، ولذلك خلقهم للاختلاف، وليكونوا متفرّقين. هذا رأي. وهناك رأي آخر وهو أنّ قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ تعود إلى ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي أنه سبحانه خلقهم ليحصلوا على ثواب الله ورحمته، وخلقهم ليتقربوا إليه من خلال ما يرحم الله به عباده. والتفسير الثاني أقرب للصحة من التفسير الأول، لأنّه لا معنى لأن نقول، إنّ الله خلق النّاس ليختلفوا ويتفرّقوا، وخصوصاً إذا ما فهمنا بأنّ الآية في مقام تحذير النّاس من السير في خطّ الضلال، وتوجيههم إلى خطّ الهدى، ليبين تعالى للناس بأنّ الذين يتحركون في خطّ الاختلاف والتفرّق والانحراف، إنّما يدخلون جهنم. وهذا ما ينسجم مع الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) في مجال تفسير هذه الآية.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ صدرت الكلمة من الله وثبتت، وسيملأ جهنم من الجنّ والإنس من الذي عاشوا الاختلاف والتفرّق على الدين والبعد من رحمة الله.

تقوية العزيمة

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ إِنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ - قصص الأنبياء - التي وردت في سورة هود (ع) قصتها الله تعالى على نبيه (ص) ليعرف كيف واجه الأنبياء التحديات والمصاعب، وكيف ثبتوا وصبروا، فانتصر الله لهم وخذل أعداءهم من الطغاة والمستكبرين ﴿مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وما نقصه عليك - يا محمد - ما هو إلا تثبيت لقلبك، حتى لا تضعف إرادتك أمام العقبات والمشاكل والتحديات.

وإذا كان الله تعالى يثبت فؤاد النبي (ص) بهذه الآيات والقصص وأحاديث الأمم السابقة، فإنه تعالى يريد منا نحن الذين نعمل في سبيل الله، ونواجه تحديات الكفر والاستكبار والضلال ألا تضعف قلوبنا وتهتز مشاعرنا وتسقط مواقعنا ومواقفنا، فنبقى على الثبات في حالات الاهتزاز، لنعرف أن الله لا يخذل عباده المؤمنين، ولا يترك المجاهدين، وأنه سبحانه إذا ابتلانا في بعض المواقع، فإن ابتلاءه لنا يقوي فينا التجربة والطاقة التي نستطيع من خلالها أن نواجه المصاعب.

ونحن عندما نقرأ القرآن في كل قصص الأنبياء الذين نصرهم الله بعدما ابتلوا، وقصص الطغاة الذين خذلهم الله بعدما حكموا وبغوا وطمعوا، فإننا ندرك أن الحاضر والمستقبل كالماضي، فليس للطغاة انتصارات دائمة، وليس للعاملين في سبيل الله هزائم دائمة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) فالله قد ينصر العاملين في سبيله عندما تتوفر عوامل النصر، وقد لا يكتب لهم النصر، وعندها، فما لهم إلا أن يصبروا صبر الرسل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥) بأن نتابع المسيرة، فلا نسقط ولا نتجمد، لأن الله تعالى تكفل لنا بالنصر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠) وبعد أن ثبت الله تعالى قلب نبيه (ص) ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ جاءك من أنبياء الأنبياء ما فيه

الحق ﴿وَمَوْعِظُهُ وَذِكْرُى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ موعظةٌ تفتح القلب على ما يأمله الإنسان من ثواب الله، وما يحذره من عقابه، وحتى يخلص المؤمنون من الغفلة التي تطبق على العقل عند استغراقهم في الدنيا، أو عند استسلامهم لأوضاعهم التي قد تنسيهم ربهم وأخرتهم.. فإذا قرأوا بتدبر كل هذه القصص والأنباء والمواعظ فإنهم يتذكرون واقعهم، فيخرجون من الغفلة ويثبتون على خطِّ الوعي، وإذا عاشوا الوعي انفتحوا على الحق، وعلى ما يؤدي بهم إلى النجاة في الدنيا والآخرة.

مقابلة التحدي بالتحدي

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لهؤلاء الذين وعظتهم فلم يتعظوا، ودعوتهم إلى الإيمان ولم يؤمنوا، وحذرتهم فلم يحذروا، ونبهتهم فلم ينتبهوا، قل لهم ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ تحملوا مسؤوليتكم فيما أنتم عليه من المكانة والمنزلة، واعملوا ما تريدون على مستوى المواجهة والتحدي ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ فإذا لم تؤمنوا وتستجيبوا، لن نضعف أو نترك الدعوة والجهاد، أمنتُم أم لم تؤمنوا سنبقى في الساحة نجاهد في سبيل الله.

وكلمة ﴿قل﴾ تُوحي بمظهرٍ من مظاهر القوة، فالنبيُّ (ص)، أو الإنسان الداعية لا يضعف إذا تنكرَّ الناس له وتفرَّقوا من حوله أو كادوا له، وهذا ما عبر عنه أمير المؤمنين عليُّ (ع) في كلمتين، كلمة تتحدَّث عن تجربته، وأخرى يوجِّهها للناس الآخرين، يقول (ع): «لا تزيدني كثرةُ النَّاسِ حولي عِزَّةً ولا تفرِّقهم عني وحشةً» (*) إنَّه (ع) يملك الإيمان بالحقَّ بالمستوى الذي لو اجتمع الناس كلُّهم حوله لا تزيد ثقته بنفسه ثقته بالحق، ولو تفرَّق كلُّ الناس عنه، وبقي وحده في الساحة، فإنَّ ذلك لا يوحشه ما دام متمسكاً بالحق. ويقول لولده الإمام الحسن (ع): «يا بُنَيَّ لا

(*) نهج البلاغة الكتاب ٣٦.

يُؤْتِسْنُكَ إِلَّا الْحَقَّ، وَلَا يُوَحِّشُكَ إِلَّا الْبَاطِلُ»(*) أي لا يكون أنسك باجتماع الناس حولك، بل أن يكون الحقّ خير أنيس لك، ولا مكان للباطل عندك. ويقول (ع) أيضاً: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهَدْيِ لِقَلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةِ شَبْعُهَا قَصِيرٌ وَجُوعُهَا طَوِيلٌ»(**) إِذَا، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ سائرون في طريق العمل ﴿وَأَنْتَظِرُوا﴾ ما وعدتكم وهددتكم به ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ إنَّ عليكم أن تنتظروا عذاب الله، ونحن سننتظر ثواب الله.

وفي نهاية السورة يوجّه الله تعالى نبيه (ص) والمؤمنين للإنتفاع عليه سبحانه ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو تعالى يعرف خفايا الأمور كما يعرف ظواهرها، ويعرف خفايا النفوس كما يعرف علانياتها ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ كُلُّ شيء في الكون خاضع له ومتحرك بواسطة إرادته ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده تعالى الذي يستحق العبادّة، لأنّه الخالق والمحيط بكلّ شيء ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ انطلق في حياتك دون خوف أو وجل، متوكلاً على الله، فهو وكيلك في أمورك كلّها ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عليكم أن تضعوا هذه الحقيقة في عقولكم وقلوبكم، وهي أن الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ويرجع إليه الأمر كلّهُ، ليس غافلاً عما تعملون في سرّكم وعلانياتكم، فهو يطّلع على ذلك كلّهُ، ولكلّ شيء عنده حساب فيما فعلتم من الخير أو من الشر.

(*) نهج البلاغة الخطبة ١٣٠.

(**) نهج البلاغة الخطبة ٢٠١.

سورة يوسف

آيات للأجيال في كل مرحلة وكل موقع

الحديث عن سورة يوسف، حديثٌ عن نبيٍّ عاش حياته في أكثر من تجربةٍ صعبة، استطاع اجتيازها بوعيٍّ وصلابة وإيمان، بحيث تخطَّى كلَّ التحديات التي تحاول عادةً إرباك الإنسان في إيمانه ووجوده. وكان من نتائج ذلك أن فتح الله له أبواب الحياة، وجعله في القمة من مواقعها، فانطلق من خلال ذلك ليؤدي رسالته من موقع قوة. وعندما نعيش أجواء هذه السورة ونتلمَّس معالم قصتها، فإننا نستطيع أن نستوحي منها ما يمكن أن يُغني حياتنا بكثيرٍ من الأفكار والتجارب.

في البداية، لا بد لنا من أن نتوقف أمام الشخصيات التي طغى حضورها في هذه السورة، فالشخصية الأساس، يوسف(ع) الذي تنطلق القصة في بداياتها بحركته في الحياة، لتصل في نهاياتها إلى الجوّ الذي عاشه(ع) كثرمن لكلّ تضحياته. أما الشخصية الثانية، فنبيّ الله يعقوب(ع) والد يوسف.

وتتوالى الشخصيات، أولاد يعقوب إخوة يوسف، ثم العزيز وزوجته وبقية النسوة اللاتي جمعتن امرأة العزيز من أجل أن تبرّر موقفها أمامهن تطويقاً للإشاعات التي حاولت أن تهزم مكانتها في المجتمع. ثم نطلّ على شخصيتي صاحبي السجن الذي دخله يوسف(ع)، وما شكّل حوارهما في السجن من فرصة مهمة له في عملية التوعية والدعوة إلى الله.

هذه الشخصيات الأساسية أثّرت في حركة أحداث القصة، بدءً من رؤيا يوسف ونصيحة أبيه(ع) له بكتمان ما رأى، وانتقالاً إلى رميه في البئر بمكيدة من إخوته،

والمعاناة التي ربضت على صدر أبيه بسببها، إلى استقرار يوسف في القصر وسقوط زوجة العزيز أمام جماله الذي كان من آثاره أن يدفع بيوسف ظلماً إلى السجن، حيث كان لرؤيا صاحبيه اللذين خرجا قبله من السجن، ولرؤيا العزيز أثرٌ في سير مجمل الأحداث، ليخرج بعد ذلك حاكماً على اقتصاد مصر، ومن ثمّ مواجهته لإخوته بعد طول غياب، محتاجين لإحسانه وكرمه، إلى أن يبوأ أخيراً أبويه على العرش مكانه احتراماً وتقديراً لهما.

الشخصية الفدّة

إننا عندما ندرس شخصية يوسف(ع)، نجد أن الله يحدثنا عن شاب وديع طيّب، كان أثيراً عند أبيه، ونعرف من خلال السورة المباركة أنه بلغ من الحُسن درجة عالية، لم تستطع امرأة العزيز أن تخفي انفعالها وانجذابها تجاهه، حتى أن بقية النسوة انسحقن أمام هذا الحُسن ﴿وَقُلْنَ حَاشَآ لِلّٰهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١)، صُعِقْنَ أمامَ هذا الجمال، فهو جمال ملائكي وليس جمالاً بشرياً. ومع ذلك كان(ع) يخاف الله تعالى، وارتقى بإيمانه إلى الدرجة العليا التي تثبت أمام التحديات مهما كانت قاسية، وأمام المغريات مهما كانت حارة، والإهتزازات مهما بلغت قوتها وتأثيرها في الزلزال النفسي، وهذا ما يبرز جلياً عندما راودته امرأة العزيز عن نفسه ﴿مَعَاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣)، يستعيز بالله، مستجيراً به، ومعبراً عن حالة الفرار النفسي من هذا الموقف، متحدثاً عن الوفاء تجاه مَنْ حضنه ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ عن العزيز ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ رافضاً الإساءة إليه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وتبرز صورة يوسف(ع) الرساليّة بشكل أوضح لحظة الإنجذاب النفسي الذي يحدث عندما تُستثار الغريزة، ولكنها تكبت انفعالها وجموحها عندما تواجه الحقيقة

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤)، ورأينا هنا يختلف عن بعض التفسير التي تقول بأن يوسف هم بضربها، لأننا نقبى التفسير الآخر في احتمال قوي. والذي لا ينافي العصمة أبداً - وهو أن يوسف(ع) انجذب إليها، تماماً كما ينجذب الجائع إلى رائحة الطعام الطيبة، أو كما ينجذب العطشان إلى الماء، وهذا الإنجذاب إنجذاب غريزي إنفعالي وليس اختياريًا.. فالإنسان ينجذب غريزيًا للأشياء، ولكن الحقيقة الإيمانية الواضحة تضبط له خطواته، وتخفف من هوى الإنجذاب ومنزلاته ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: ٢٤)، وهكذا فإن يوسف(ع) يعيش برهان ربّه في الحقائق التي يطلّ بها من خلال وعيه وإيمانه على الله، فلا ينسى ربّه، لأنّه يواجه الحجة منه، وعليه أن ينضبط ويتحرّك في الخط المستقيم (وهذا ما بحثناه مفصلاً في تفسيرنا من وحي القرآن).

تجربة جديدة

وتجربة جديدة صعبة، تضع يوسف أمام امتحان عسير آخر، ندرك من خلاله عنفوان الشخصية المؤمنة، فبعد أن كان يواجه امرأة واحدة، هي امرأة العزيز، صار يواجه أكثر من مشكلة مع أكثر من امرأة في المدينة، لأن تأثيره الجمالي طوّق واقعه عندما جمعت امرأة العزيز نسوة أشرف مصر في محاولة منها لتبرير شغفها به(ع)، وتسجيل انتصار عليهنّ من خلال انبهارهنّ بجماله الأخاذ، عندها شعر بالضغط يزداد عليه، وبالإثارة تتوجه صوبه، فما كان منه إلا أن ﴿قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ (يوسف: ٢٣)، قال(ع) ذلك خوفاً من أن تسيطر عليه بشريّته التي كانت تتحرّك بشكل عاديّ. ولذلك التجأ إلى الله مستعيناً به على الموقف الصعب، مختاراً السجن كخيار يُنجيه من سخط الله. ولذلك كان دعاؤه حركة في استنفار طاقته الإيمانية ليقبل السجن عن رضى، وليكون هذا السجن طموحاً يسعى إليه فراراً من نداء الشهوة.

ثم نلاحظ رسالتيه في السجن، فالإنسان عندما يدخل السجن، فإنه يستغرق في ذاته ويعيش ألامه ومشاكله وأحلامه في الخروج من السجن، أما هو(ع) فقد استفاد من فرصة السجن، بأن جعله ساحة للدعوة إلى الله، ولهداية المساجين الذين يعبدون غير الله، مستفيداً من خبرته في تأويل الأحاديث التي ألهمه الله معرفتها.

ونحن عندما ندرس شخصية يوسف(ع)، في كل هذه اللوحات الخاطفة فإننا نجد الشخصية الرسالية المؤمنة المنفتحة على الله والحياة من موقع الرسالة، ومن موقع القوة التي تبدأ من الله وتنتهي إليه، ونستطيع أن نقدم صورة يوسف إلى كل جيل كشخصية تتمرد على الإغراء في الوقت الذي يتحدى الإغراء كل كيانه وظروفها، وكشخصية لا تنسى الله في جميع المواقع، وتعيش الرسالة في مختلف الظروف، سواء كانت ظروفاً صعبة أم سهلة، خلافاً للذين يعتقدون أن الله لا يكلفهم أمر الرسالة إذا كانوا يعيشون ظروفاً قاسية، وأنهم يتحركون بالرسالة عندما تكون ظروفهم ظروفاً رخيصة سهلة ليئة.

قصة يوسف(ع) من أحسن القصص، وفيها آيات للسائلين، وهي آيات للأجيال في كل مرحلة وفي كل موقع.

القوحي في أخلاقه وعفته ، الطاهر في روحه وجسده

الروحانية المنفتحة على الله

تحدثنا فيما سبق عن أن شخصية يوسف كانت تتمثل بعناصر جمالية وروحية تميزه عن بقية إخوته، وأن حسنه دفع بامرأة العزيز أن تراوده عن نفسه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُباً﴾ (يوسف: ٣٠)، ولم يكن هذا الأمر من ناحية الإنجذاب لجماله محصوراً بامرأة العزيز، بل انسحب على نساء المدينة ﴿فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٣١)، جرحن أيديهن من شدة الدهول ببهاء وجهه ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١). وهنا نحاول أن نركز على المقومات التي صاغت شخصية يوسف، وكان لها أثرها الكبير في حركة النبوة، وفي الدعوة إلى عبادة الله تعالى.

نبدأ مع يوسف (ع) من رؤياه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)، بطيبة قلب وطهارة نفس جاء يقصُّ هذا المنام على أبيه، وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وهبه ثقافة تفسير الرؤيا من خلال رؤياه هذه التي هزت كيانه، وأثارت اهتمامه مدركاً أن الله أيقظ في قلبه وعقله أمراً عظيماً بانته آثاره لاحقاً عندما استطاع بما أوتي من علم أن يفسر لصاحبيه في السجن حلم كل واحد منهما ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦)، وكان تفسيره (ع): ﴿يَا

صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿يوسف: ٤١﴾، وكان هذا
التفسير مدخلاً للمركز المتقدم الذي وصل إليه في توليه خزائن مصر، بعد أن أدرك
العزیز منه قدرته على تفسير الرؤيا. وهذه واحدة من الألفاظ الإلهية التي صقلت
شخصية يوسف (ع).

وننتقل إلى الجوِّ النظيف الذي عاشه (ع) لنرى تأثيراته الإيجابية على شخصيته،
فبيت أبيه، بيت نبوة، فالأب يعقوب نبي، ووالده إسحاق نبي، وجدّه إبراهيم نبي،
وكان يعقوب (ع) يتقّف أولاده على توحيد الله وعبادته والإنفتاح عليه، وكان من
الطبيعي أن يتأثر يوسف بهذا، وقد أدرك فيه أبوه دلائل الطهارة النفسية والروحية
المنفتحة على الله، ولذا قرّبه إليه أكثر من إخوته لهذا السبب، لا بسبب جماله
وحسنه.

في قلب التجربة

وبرزت هذه الطهارة في أول تجربة خاضها (ع)، وهي تجربة مراودة امرأة العزيز
لها عن نفسه. فهو (ع) في بيت عزيز مصر، وقدمه عبداً مملوكاً بعد أن انتشلتها
القافلة من البئر وباعته للقصر، ونحن نعرف ما معنى أن يكون الإنسان عبداً في
نظام الرّق والعبيد الذي قد يلغي للعبيد إنسانيتهم وشخصيتهم.. فقد دخل قصر
العزيز خادماً، ليس له من حقوق الإنسانية شيء، ومع ذلك نلاحظ في تجربة
يوسف (ع) العملية في حركته الإنسانية أن آيات القرآن والأحاديث التي تتناول قصة
يوسف، لم تُشر إلى أنه صدرت منه أيّة حركة أو مبادرة نحو امرأة العزيز التي كان
يعيش معها في بيت واحد، هذه المرأة التي كانت تتبدّل في بيتها، ولا تشعر بأنّ عليها
أن تحتشم من خادمها الذي كان (ع) في قمة الشباب الذي تستيقظ فيه الغرائز، ومع

ذلك لم يَقم بما يقوم به الشباب عادة بطريقة لا شعورية أحياناً، من النظرة الخائنة، أو اللفتة المريبة وما شابه ذلك، وهذه النقطة تدلُّنا على أن يوسف كان متين الأخلاق، وقوياً في عفته. وقد قامت بالدور المريب زوجة العزيز، فهي المسكة بزمام المبادرة، وهو عبدٌ، فما عليه إلا أن يُطيع، فحاولت أن تستعمل سيطرتها مستغلةً عبوديته أمام نسوة المدينة طالبةً إليه أن يقوم بفعل القبيح معها بعد محاولتها في المرة الأولى ومهددةً: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: ٢٢)، وكيف له أن يفعل وهو الذي تربى على العفة، وعلى الوفاء؟ ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ (يوسف: ٢٣)، والربُّ هنا، مَنْ يملك أمره، وهو عزيزُ مصر، فكيف له أن يخون سيده الذي أواه في بيته؟

وفي هذه التجربة التي عاشها يوسف (ع)، لا بُدَّ من ملاحظة نقطتين، الأولى، نقطة الضغط، حيث أن امرأة العزيز كانت تملك يوسف ملكاً قانونياً حسب نظام الرق، فلو فرضنا أنه انجذب إليها ولبى رغبتها، لكان له العذر عند الناس، لأنه عبدٌ مملوك، ما عليه إلا أن يطيع أوامر سيده القصر، ولن يجد بالتأكيد مَنْ يلومه على فعلته.

أما النقطة الثانية، فهي اجتماع الضغط والإغراء عليه، ومع ذلك واجه الموقف بكل خوف من الله، وبكل جرأة وصلابة.

ولو عدنا إلى نقطة الإغراء، لوجدنا أن هذا الأمر لم يتوقف عند إغراء وميول وشهوات زوجة العزيز، بل تعدى ذلك إلى نسوة المدينة، وذلك عندما دعتهن لتبين عذرها فيما أقدمت عليه، ولتظهر لهنَّ بأنهنَّ غيرُ قادرات على الصمود أمام جمال يوسف، وكان لها ما أرادت ﴿فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٣١)، انجذبن إليه وشغفن به، وصارت كُلُّ واحدةٍ منهنَّ تجرح يدها بالسكين التي سلمتها لهنَّ امرأة العزيز. وهنا لم يعد الكيد محصوراً بامرأةٍ واحدة، بل تعدى إلى مجتمع

النسوة كُلُّهن، وسيطر الهيام والغرام عليهن جميعاً، فما كان منه، وهو الذي يملك الثبات والقوة في موقفه إلا أن يلجأ إلى الله ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٢٣)، فأنا يا رب أحب أن أبقى طاهراً وعفيفاً في روحانيتي ونقاء جسدي، وفي قربي إليك، لهذا فأنا أطلب السجن وأنا بكامل الحرية في ذلك، وهذه الحياة مفتوحة أمامي، ولو استجبت لنداءاتها فيما تريد لحصلتُ على اللذة والشهوة والمال وعلى كُلِّ الإمتيازات، لكنِّي يا رب فأنا أقف بين معصيتك وبين أن أفقد طهارتي، وأقف بين نقائي وروحيتي، وبين أن أسجن، فأنا أفضل السجن.

ربما نقرأ هذه المسألة كتاريخ فحسب، ولكن لو تمثَّل الإنسان هذا الموقف فيما يمكن أن يعيشه من تجربة مماثلة، لرأى صعوبة المسألة، بحيث لو دار الأمر بين خطيئتين، إما أن يندفع إلى الحياة وينطلق صوب شهواتها ولا يلومه أحد، ويحصل من خلال الإستجابة لشهوات مَنْ يدعوه إلى الشهوات، على كُلِّ الإمتيازات مع كامل التغطية القانونية إلى جانب الحرية في الحركة، وإما أن يساق إلى السجن عبداً ذليلاً صاغراً، فليس من السهل أن يقول: ربِّ السجن أحبُّ إليّ.. إذا لم يكن على درجة عالية من التقوى والروحانية، ومن صلابة الإرادة. ولذا فإنَّ القرآن الكريم قدَّم تجربة يوسف(ع) للشباب حتى يجدوا فيها النموذج للحالات المماثلة، والتي يمكن أن ينتصروا فيها على أنفسهم وغرائزهم ولذاتهم.

في ساحة المسؤولية

كُلَّ ما ذكرناه عن يوسف(ع) يعرفنا عناصر شخصيته الرسالية، فلو تتبعنا مجمل الأحداث التي مرت عليه لأدركنا عظمة هذه العناصر التي طبعت شخصيته.. يوسفٌ بعيدٌ عن أمه وأبيه، وكان قد جاء به إخوته ليقتلوه، واستبدلوا قتله بأن وضعوه في ظلمة البئر، مرَّت قافلة، وانتهزوها فرصة لبيعوه لها كعبد مملوك وصار

سلعة بيعت لعزیز مصر، وفي قصر العزیز تعرّض لمشكلة الإغراء، هذه المشكلة دفعتها إلى السجن، وفي السجن، كان لا يدري ما سيكون عليه المستقبل، هل يُخلّد فيه، أم يخرج منه، أم يُقتل فيه؟ لا يدري، ووضع كلّ التساؤلات جانباً، وبمجرد أن وصل السجن إعتبره ساحة دعوةٍ إلى الله، صادف شخصين، فشعر مباشرةً أنّه مسؤولٌ عن هدايتهما ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩)، ومن خلال تفسيره حلّم كلّ واحدٍ منهما اتخذ لنفسه موقعاً متقدماً في نفسيهما. ويخرج الرجلان من السجن أحدهما يُقتل ﴿فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ (يوسف: ٤١)، ويبقى الآخر حراً، ويصبح ساقياً للملك ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمراً﴾ (يوسف: ٤١)، ويهزُّ الملك طيفٌ يأتيه في منامه ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣)، ويُخبر الساقى، صاحبُ يوسف في السجن مليكته أنّ في السجن من أوتي علم تفسير الأحلام ويستطيع أن يخبره بما سيكون عليه حال البلاد، ويُستدعى (ع)، بطلب من الملك ﴿اأْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٤)، ولكنه يرفض أن يخرج من السجن قبل أن تُعلن براءته للناس، لأنّه لا يريد أن يتحمّل مسؤوليته في الحكم والسلطة، وخصوصاً في إدارة شؤون البلاد الإقتصادية، وهناك ذرّة من غبار على شخصيته من ناحية السمعة الأخلاقية، لذلك استدعى الملك زوجته وبقية النسوة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

ويستلم (ع) أمور البلاد وخزائن الأرض.. وتمر الأيام، ويأتيه إخوته ويجري بينه وبينهم ما حدثت السورة المباركة عنه، إلى أن يصل أبواه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (يوسف: ١٠٠) وهنا نلاحظ أن يوسف (ع) أصبح الأمر الناهي، حتى أن عزيز مصر لا نجد له أي دور، وعلى الرغم من امتلاكه (ع) للملك والقوة والسلطة والغنى، لم يكن يملك إلا أن يتواضع لله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١)، ويعبر بذلك عن إحساسه المنفتح على الله، بأنني لا أمثل شيئاً أمامك، لأنك الذي خلقت السموات والأرض، فمهما كنت كبيراً، وكنت أملك من ثروة، فأنا يا رب أحتاج إلى ولايتك ونصرتك ورعايتك ولطفك ورحمتك، أنت وليّ لأنني لا أملك لنفسي شيئاً، أنا كالطفل الصغير الذي يحتاج إلى الولي ليرعى أموره ويدبرها، وأنا كالإنسان الذي لا يملك أي قوة، فيحتاج إلى من يقويه ويرعى له حياته وينصره على أعدائه ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ولي طلب منك يا رب، أنت أعطيتني الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، وأنا أعترف لك بالولاية، وطلبي أن ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، وما أطلب يا رب عندما تتوفاني، والوفاة هي سنتك في كل عبادك، لأنك قضيت الموت على خلقك، وكل ذائقه وصائر إليه، ما أطلبه يا رب، هو أن أموت مسلماً ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء والشهداء والصديقين.

هذه هي صورة يوسف (ع)، صورة الإنسان الرسالي، القوي في أخلاقه وعفته، الطاهر في روحه وجسده، المنفتح على ربه في خط المسؤولية، الذي يريد أن تكون حياته كلها لله، وموته بين يدي الله وفي سبيل الله.

الثبات والصبر في مواجهة الشدائد

بيت النبوة و آفاق التربية

نتوقف في هذا البحث عند الجوّ الأبوي الذي عاش فيه يوسف (ع)، ونُظّل على شخصية أبيه النبيّ يعقوب(ع)، وعلى أسلوبه في علاقته بأولاده، وبعض الملامح الروحية التي كانت تمثّل العنصر الأصيل في شخصيته. ونحن نعرف من خلال القرآن أنّ يعقوب كان نبياً، كما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد حدّثنا الله تعالى عن الإنطلاقة التي انطلق بها هذا البيت من خلال إبراهيم(ع) التي هي انطلاقة الإسلام، الإسلام بالمعنى المنفتح الذي يشمل كلّ أوضاع الإنسان في أقواله وأفعاله، وفي علاقاته أمام الله، حيث لا بدّ لهذا الإنسان أن يُسلم أمره إلى الله، وذلك بأن لا يكون له قولٌ يخالف قول الله، ولا عملٌ يبتعد عن الخطّ الذي يريده الله في السلوك الإنساني، ولا تكون له علاقات تنفصل عن برنامج العلاقات الإنسانية الذي يرضاه الله.

وهذا ما سار عليه يعقوب(ع) وعاشه يوسف، وذلك عندما كان يوصي أولاده في حياته ليقول لهم: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢)، وكانت وصيته(ع) عندما حضرته الوفاة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ (البقرة: ١٣٣)، أريد أن اطمئنّ على مستقبلكم فيما تنطلقون به في حياتكم من سلوك والتزام، من الذي تعبدونه؟ هل تعبدون الأصنام، كما يعبدوها المحيط الذي تعيشون فيه، أم

تعبدون الله؟ قال(ع) هذا، وكان صرف عمره في سبيل تربيتهم على خط الإسلام، ولذلك أراد أن يطمئن عليهم قبل أن يفارق الحياة.. ويطمنون والدّهم بأنهم على خط الإسلام ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَا وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

ومن الطبيعي أن خط الإسلام الذي تمثله يعقوب وبنوه، هو خطٌ يمثل البرنامج العملي للإنسان، أما تفاصيله فهي أوامر الله ونواهيه.. ومعنى أن نكون مسلمين، أن نُسلم أمرنا لله، وأن نطيع إذا أمرنا بشيء، وأن ننتهي إذا نهانا، وهذا ما عبّر الله عنه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، عندما يقضي الله، ويقضي رسوله بأمر منه، وبأي أمرٍ من الأمور، وفي أيِّ شأنٍ من شؤون الحياة، فليس للإنسان حرية في الاختيار، لأنه عبدٌ لله.

بين الأب والابن

سورة يوسف تحدثت عن يعقوب الأب، ولم تتحدث عنه(ع) في النطاق العام، أي كيف كان يدعو مجتمعه، وكيف كان يتعامل مع واقعه، إنها فقط تحدثت عن شخصية يعقوب الأب، وعن الأحداث التي تمحورت حول أولاده وخصوصاً حول ولده يوسف(ع)، فانطلقت هذه السورة المباركة من رؤيا عاشها يوسف في نومه: ﴿إِذْ قَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)، وفهم يعقوب إحياءات هذه الرؤيا.. فالكواكب مخلوقات عظيمة، وهي في أعلى المواقع التي يتطلع إليها الناس، فالشمس تملأ الكون نوراً، وهي تعطي الحياة والدفء والإشراق، والقمر يعطي الضياء الهاديء الوداع الحالم.. فما معنى ذلك؟ معناه أنه سيكون ليوسف شأنٌ عظيم، وسوف يتواضع وينحني له كُلُّ

هؤلاء الذين يحتلون المواقع المتقدّمة في المجتمع. ويزداد حُبّه له، لا من خلال جماله وبهاء وجهه، ولكن لصلاحه الذي تبدّى من خلال سلوكه في الواقع الذي عاشه، والذي كان يعمل له يعقوب نفسه من أجل الصلاح والإصلاح، وهذا ما جذبته إلى ولده وجعله مقرباً منه، مما ولد في داخل نفوس إخوته الحسد والغيرة..

وربما يقول أحدنا، كيف للأب أن يغلب عاطفته على ولد دون ولد، لأنّ التمييز في العاطفة قد يؤدي إلى عقدة في أنفس الأولاد ضدّ بعضهم البعض، فيحقدون على بعضهم، وربما تطوّر هذا الحقد إلى الأب نفسه، فكم من أولاد تعقدوا من آبائهم أو أمّاتهم، لأنّهم يؤثرون بعض الأولاد على البعض الآخر لمميزات في هؤلاء تجذب الآباء والأمّهات إليهم؟ وفي جوابنا على هذا الإشكال نقول: نحن نعرف أنّ مقتضى الأخلاق الدينية الرسالية ألاّ يميّز الأب بعض أولاده على بعض آخر، حيث يُنقل عن النبيّ (ص) أنّه كان في مجلسه رجلٌ وبجانبه ولده، فقبّل أحدهما وترك الآخر. وإذا رأى النبيّ (ص) ذلك أمره بتقبيل الآخر حتى لا يتعقّد من أخيه... وعلى هذا كيف يمكن أن نفسّر إثارة يعقوب ليوسف؟ يعقوب (ع) نبيّ، ويتمتع بأعلى أخلاق الرسالة، ويعرف تماماً أنّ على الأب أن يساوي بين أولاده في النظرة والقبلة والعاطفة والرعاية والإحتضان، ولكن ما يعرفه أيضاً، أنّه إذا كان أحد أولاده أصلح من الأولاد الآخرين، من ناحية الدين والعلم والبرّ بوالديه، فإنّه لا مانع من أن يقدمه عليهم، لا من ناحية طبيعة صفاته الجسدية أو الذاتية، ولكن من خلال أنّه يشجّع الصلاح في تقديره لولده، وكأنّه يقول لأولاده الآخرين أن كونوا صالحين، كما أنّ أخاكم صالح حتى أعطيكم ما أعطيه من تقدير.

إذاً، لا مانع من أن يغلب الإنسان أحد أولاده على الآخرين، أو أحد إخوته على بقية الإخوة، أو أحد تلاميذه على بقية التلاميذ، إذا كان يتمتع بالصفات العالية التي

يتفاضل الناس فيها عادةً، فيكون هذا الإيثار تشجيعاً له على أن يستمر ويسمو في طريق الكمال، ويكون للآخرين توجيهاً لهم بأن يسيروا كما سار حتى يحصلوا على ما حصل. ونحن نقرأ في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، وفي آية أخرى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة: ١٨)، ونقرأ في وصية أمير المؤمنين علي(ع): «ولا يكوننَّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان»(*).. إذاً، لم يبتعد يعقوب(ع) عن الخطِّ الأخلاقي.

عندما يقتل الحسد الروح

ونعود إلى ما كنا قد بدأناه في الحديث عن رؤيا يوسف(ع). فعندما سمع يعقوب ما قصه عليه ولده، أدركته عاطفة الأبوة بالخوف عليه، فَشَعَرَ بأنَّ هذا الولد سوف يكون له شأنٌ عظيم في مستقبل أيامه، وربما يشعر إخوته تجاهه بمشاعر عدائية فيما لو حدثهم بهذا المنام الذي رآه، فيكيّدون له ويمكرون به بطريقة يمكن أن تنهي حياته، لذلك طلب منه أن يكتُم ما رأى حتى لا يثير حسدهم أكثر: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (يوسف: ٥).

وهنا نقطة يجدر التوقف عندها، وهي مسألة الحسد، فليس الحسد كما يتصور البعض، بل الكثير من الناس، أن عين الحاسد تقتل الناجحين في الحياة، أو مَنْ يملكون جمالاً، أو صفاتٍ معيّنة، بمجرد أن تنظر العين الحاسدة إليهم، ويُشيعون بأنَّ عيون الحساد رصاص ينطلق ليقتل مَنْ يتميزون بصفات جسدية أو اخلاقية أو اجتماعية، مع أننا نرى أنَّ الناجحين لا يسقطون كلُّهم، وإذا سقط بعضهم فبفعل بعض الأوضاع المحيطة بهم.

(*) نهج البلاغة - الكتاب ٥٣.

المسألة ليست على هذا النحو أبداً، بل إن مشكلة الحسد أنها تخلق عقدة لدى الحاسد داخل نفسه، فيؤدي ذلك إلى التحرك للبغي على المحسود، ولذا جاء في المأثور «إذا حسدت فلا تبغ»، أي إذا حصل لديك الحسد فلا تعتد ولا تمكر ولا تكيد لمن حسدته ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفرق: ٥)، أي من شره الذي يمكن أن يحركه في حياته العملية ضد المحسود. وهذا ما نلاحظه في حسد إخوة يوسف، فهم عندما حسدوه على جماله وصلاحه ومقامه من أبيه تحركوا على أساس أن يقتلوه ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَمِنْهُمْ أَنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يوسف: ٨)، وهنا لا بد أن نذكر أن إخوة يوسف كانوا مؤمنين، ولم يكونوا جاحدين أو منكرين، ومعنى هذا أن الحسد يمكن أن يسيطر على المؤمنين فضلاً عن غيرهم، فإذا كان الإنسان مؤمناً لا يعني هذا أنه معصوم، لأن الشيطان قد يقتحم عليه إيمانه.

ولذا، فإن الشيطان زين لأخوة يوسف الكيد له من خلال ما شعروا بأنفسهم بأن يكونوا هم المقدمين عند أبيهم، لأن أباهم (ع) يتميز بشخصية رسالية جعلت له مركزاً اجتماعياً متقدماً، وعندما يكونون مقدمين فسيحصلون على مكانة اجتماعية مرموقة من خلال إدارتهم لأوضاع وشؤون أبيهم، فكان التخطيط ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف: ٩)، ولكن كان لبعضهم رأي آخر ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف: ١٠)، فضضية القتل قاسية، ومن الأفضل أن نلقيه في البئر، فربما تمر بعض القوافل فيؤخذ ويبعد ويضيع عن أنظارنا وأنظار أبينا، وحتى لا نعيش أزمة القتل.

وبعد تدبير الخطة، جاءوا إلى أبيهم وطرحوا عليه فكرة اصطحاب يوسف معهم إلى البرية، ليلعب ويرتاح ويتنفس الهواء الطلق وخصوصاً أنه ما زال في أوائل الصبا، استمع إليهم يعقوب (ع)، ولكنه تردد، فكونه صبيّاً، فربما - وأثناء لهوكم - قد يأتي الذئب ويأكله ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف: ١٣)، ونلاحظ هنا أسلوب يعقوب (ع) في التربية والتعامل مع أبنائه، فهو لم يواجههم بحقيقة أنفسهم وبالتعقيدات التي كانت تعيش في داخلهم، وإنما ترك القضية تتحرك بشكل طبيعي جداً ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ﴾ (يوسف: ١٣)، ولكنهم مُصمّمون على خطتهم، فعملوا على إسقاط تردد والدهم ﴿قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (يوسف: ١٤)، وكان لهم ما أرادوا. وذهبوا بيوسف إلى البرية، وهناك رُمي في ظلمة البئر.. وعادوا إلى أبيهم مساءً، ليخبروه بأنّ خوفه من أكل الذئب له قد حصل ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨)، وتبرز هنا ردة فعل يعقوب (ع)، فهو لم يقل لهم بأنكم كاذبون، إما من جهة الإحساس النفسي، وإما من جهة الإيحاء الإلهي - كما يقول بعض المفسرين - ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ (يوسف: ١٨)، وهذا ما يعطينا صورة واضحة عن الروحية الرسالية العالية التي يعيشها نبيُّ الله يعقوب (ع)، يعاتبهم عتاب الأب الحنون، أنتم عشرة أخوة وكيف للذئب أن يأكله؟ أين يقظتكم واهتمامكم بأخيك؟ وأين تنفيذكم لوصيتي بالاهتمام به؟ لفت نظرهم لذلك بشكل هادئ ورزين، وسلّم الأمر لله ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨).

سيد خزان الأرض

وتتوالى السنوات، ويوسف غائب عن ناظري أبيه ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ (يوسف: ٨٤)، ويبقى متماسكاً وهو يأمل بعودة ولده (ع). وفي مصر يصبح

الولد الغائب عن أنظار والده سيد خزائن الأرض، فقد استطاع أن يحل المشكلة الإقتصادية للناس حلاً دقيقاً، لذلك توجه الناس إلى مصر من البلاد والمناطق التي تحيط بها ليَقُوا أنفسهم شرَّ الحاجة والعوز، وليقدّم لهم يوسف حلاً عملياً لأوضاعهم.. ويتناهى إلى سمع يعقوب (ع) خبرُ هذا السيد العادل في مصر، فيأمر أولاده بالتوجه إليه لشراء غذائهم.. وإلى مصر يتوجهون، وكان قد مرَّ على غياب يوسف ثمانية عشر عاماً إلى أن تغيّر شكله ومنظره، فيدخلون عليه فيعرفهم دون أن يعرفوه، فيعطيههم طلبهم ويجهّزهم بجهازهم ويزيد لهم في عطائهم، ومن ثمَّ يسألهم إذا كان عندهم إخوة آخرون، وعندما ردّوا بالإيجاب، وبأن أخاً آخر لهم بقي مع أبيه في بلده، إشتراط عليهم عندما يأتون في المرة القادمة لأخذ غذائهم أن يأتي معهم وإلاً حُرِّموا من غذائهم، فوعدوه بأن ينقلوا الطلب إلى والدهم.. وهنا يعود بارزاً دور يعقوب (ع) من جديد، يستقبلهم بعد غيابهم، ويطمئن قلبه لما عادوا به من خيارات وفيرة، ولكن يفاجئونه بما طلبه منهم سيد خزائن الأرض، وأن لا حنطة ولا مواد غذائية في المرة القادمة، إذا لم يكن معهم أخوهم، فما كان من يعقوب إلا أن يقول: ﴿هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ، إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يوسف: ٦٤)، ليس أمامه مجال للرفض، لأنّه عرف أن القضية تصل إلى الطريق المسدود من ناحية الحاجة للحنطة والغذاء، التي لن تلبّى إذا لم يُرسل معهم أخاهم من جديد إلى مصر.. وحتى لا يقع في تجربة جديدة كالتّي حصلت ليوسف، وخوفاً من أن تتكرّر مع أخيه، وافق على إرسال أخيه معهم ولكن بشرط أن يُعطوا موثقاً من الله بأن يحفظوا أخاهم ويتعهّدوه بالرعاية والحفظ والحماية، فأعطوا عهداً بذلك ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف: ٦٦)، وتستيقظ عاطفة الأبوة في يعقوب من جديد ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ (يوسف: ٦٧) لماذا؟ ربما من جهة الحسد، فلما كانوا عشرة أولاد أو أحد عشر ولداً، وسيراهم

الآخرون فسيحسدونهم ليس بلحاظ «الإصابة بالعين» بل بلحاظ التفكير بالإضرار بهم وإضعافهم والنيل منهم.. فعاطفة الأب تجعله يحتاط لوضع أولاده، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

ويصل إخوة يوسف إلى مصر، وبمجرد أن رأى (ع) أخاه الشقيق، - لأن إخوته الباقين من أمٍّ أخرى كما يقول المؤرخون، ضمه إليه وعرفه بنفسه، وحتى يحتفظ به، إتهمه بالسرقة - وسيأتي الحديث مفصلاً حول هذا الموضوع في الأبحاث اللاحقة إن شاء الله - وكانت الشريعة يومها تقضي بأن الذي يسرق يصبح عبداً، ولكن أخاه الأكبر رجاء بأن يأخذ أحداً من إخوته مكانه، لأن أباهم شيخ كبير، ولكن يوسف أصرَّ على موقفه، وعادوا إلى أبيهم من دون أخيه.

وكم كان وقع الصدمة قاسياً على يعقوب (ع)، واجه الصدمة فأنثرت به تأثيراً مؤلماً، لأنها أيقظت أحزانه وأثارت أشجانه وذكرياته، فتولَّى عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤). وهنا ربما يتساءل البعض ويقول، كيف يجزع يعقوب، وهو نبيٌّ؟ نجيب عن ذلك بأنه (ع) لم يفعل أي شيء يؤذي جسده، ولكن كان يعيش الحزن الهادئ حيث ابيضَّت عيناه من البكاء كنتيجة طبيعية للعوارض التي أوجبَّت فقدان بصره، لذلك عندما قالوا له ﴿تَاللَّهِ تَفَنَّا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥)، أجابهم بأنه لا يشكو لهم، ولا يسبب أي مشكلة معهم ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)، فلست إنساناً يشكو أمره للعباد، فالقادر على قضاء حاجتي وتفريج همِّي وكربي هو الله، فيعقوب (ع) كان يملك الإحساس العميق بعدم اليأس، فوهبه الله معرفة أن يُطلَّ على المستقبل، لذلك على الرغم من مرور السنوات الطوال على غياب يوسف ومحاصرته بكثيرٍ من المشاكل بقي منفتحاً على

اللَّهُ، وَبَقِيَ الْأَمَلُ نَابِضاً فِي رُوحِهِ ﴿يَا بَنِيَّ انْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ
وَآخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧). وبهذا نلاحظ أن يعقوب (ع) لم يبتعد عن الروحانية ولم
يسقط، حتى أنه بقي الأبّ الحنون على أولاده منبهاً لهم ومذكراً بأخطائهم من دون
أن يواجههم فيما فعلوا بشكل مباشر، يريد بذلك أن يجعلهم يتفاعلون مع التجربة
حتى يكتشفوا أخطاءهم بأنفسهم من خلال تجاربهم، وهذا يمثل أرقى وسائل
التربية.

فكي مواجهة الأحقاد

معصية ونسويف

فيما مضى من بحثنا تناولنا الحديث عن شخصية الأب، النبي يعقوب، وشخصية الإبن، النبي يوسف، أما الآن فنتناول الملامح الأساسية التي طبعت نفسية وحركة أبناء النبي يعقوب (ع).

مر معنا فيما تناولناه من حديث عن سورة يوسف أن إخوته كانوا معقدين منه، ممّا دفعهم إلى أن يتآمروا عليه ويكيدوا له، وعندما نبّه يعقوب ولده يوسف أن يخفي عن إخوته أمر الرؤيا التي تبشّر بمستقبله المشرق، فلكي لا يقفوا حجر عثرة أمام هذا المستقبل بما يعطّل حركته ويربك الدور الرسالي الذي سيكرّس وجوده لأجله.

انطلاقاً مما بحثناه فإننا نجد أن اولاد يعقوب ونتيجة إثباره (ع) ليوسف وأخيه الشقيق ولد في داخلهم عقدة دفعتهم للقول ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨)، أي أنه ابتعد عن خط الهدى والعدل ولم يسر في الإتجاه الصحيح، لذلك وقعوا في المعصية.. وعلى عادة الكثيرين من الناس عندما يوسوس لهم الشيطان، حتى إذا ما رأى منهم تردداً أو خوفاً من الله زين لهم المعصية ومنأهم بالتوبة، تماماً كمن يقول لبعض الشباب: إنكم ما زلتم شباباً، فالدنيا واللذات والشهوات أمامكم، والشباب هو ربيع العمر، فاغرفوا ما شئتم من الهوى واللذات، وبعد ذلك توبوا إلى الله.. هذا منطق قد يسمعه الواحد من أمه وأبيه وأقاربه ومحيطه، هذا منطق عمر بن سعد عندما حذّروه من مغبة قتاله ضد الإمام الحسين (ع) أنشد قائلاً:

يقولون إنَّ الله خالق جنَّةٍ ونارٍ وتعذيبٌ وغِلٌّ يدين
فإنَّ صدقوا فيما يقولون إنَّني أتوب إلى الرحمن من سنتين

وهذا ما عاشه أولاد يعقوب ﴿اَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف: ٩)، فعقليتهم عقلية تستعجل المعصية وتسوِّف التوبة.

ونعود لنسلط الضوء على النفسية التي كانت تعيش داخل أولاد يعقوب، فاتهام أبيهم بالضلال ناشيءٌ كما عرفنا من إيثار ومحبة يعقوب ليوسف لما امتاز به من خصال إيمانية ورسالية، وهذا ما دفعهم إلى التخطيط للتخلص من يوسف، حيث كان قرارهم النهائي بأن يلقوه في البئر، وعادوا إلى أبيهم بخدعة أكل الذئب له، وهذا ما كنا عرضناه من قبل. أما الآن وبعد أن كبر يوسف وصار ملكاً على خزائن الأرض، هل تخلوا عن عقدتهم تجاهه بعد مرور كلِّ هذا السنين الطويلة التي تقارب الثمانية عشر عاماً حسب بعض الروايات، وسقوط يوسف من ذاكرتهم لأنهم اعتبروا أن لا أثر له على وجه الأرض؟

تناهي العقدة

للإجابة على ذلك لا بدُّ أن نتوقف عند بعض الأحداث التي مرَّت معنا في الأبحاث الماضية.. فقد عرفنا أن القحط حلَّ في الأرض، وانطلق أولاد يعقوب إلى مصر للحصول على الغذاء، وهناك التقوا بيوسف ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨)، فلم يعرفوه لأنهم تركوه صغيراً منذ ثمانية عشر عاماً - على بعض الأقوال - أما هو فعندما تركهم كانوا كباراً وبقيت

صورهم في ذهنه لذلك عرفهم. وهنا استفاد(ع) من وجودهم فطلب منهم أن يأتوا بأخٍ لهم من أبيهم، الذي هو أخوه الشقيق، وهددهم، كونه مسيطراً على خزائن مصر ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾ (يوسف: ٦٠)، ومع ذلك، زودهم بالغذاء والقمح ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف: ٦٢)، عندما عادوا إلى أبيهم فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم، فطلبوا من أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف: ٦٣)، فكان جوابه(ع): ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٦٤)، ولكنهم بعد أن رأوا أن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم صار ذلك حجةً قويةً أمام أبيهم فضغطوا وألحوا عليه أكثر، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (يوسف: ٦٥)، ونتيجةً للإلحاح وافق(ع) ولكن بشرط ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ (يوسف: ٦٦)، فأعطوه موثقهم، وزودهم بوصاياهم، وهذا ما كنا شرحناه بالتفصيل في البحث السابق.

وتوجهوا إلى مصر برفقة أخيههم ودخلوا على يوسف، فما كان منه(ع). إلا أن ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف: ٦٩)، ولأنهم نفذوا وعدهم بمجيء أخيههم معهم أعطاهم من الغذاء ما يريدون، وحتى يبقى أخاه عنده وضع وعاء الملك في رحل أخيه.. وعندما تهيأت القافلة للمسير نادى المنادي ﴿أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (يوسف: ٧٠)، طبعاً هم لم يسرقوا، ولكن هي خطة وضعها يوسف ليطلع على حقيقة مشاعرهم تجاهه بعد مرور كل هذه السنوات.. فبدأ التفتيش ووجد الوعاء في رحل أخيه. وهنا سألهم ما جزاء السارق؟

وكان الجواب، أن السارق يصبح عبداً مملوكاً - كان هذا حسب طبيعة قوانين ذلك العصر - ولم تقف المسألة عند هذا الحد، بل أعلنوا بكل وضوح عقدهم من يوسف وحسدهم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (يوسف: ٧٧)، غاب عنهم أكثر من ثمانية عشر عاماً وبقيت العقدة حية في نفوسهم ولم تستطع السنوات أن تزيلها من داخلهم، ولكنه (ع) أبقى ذلك في نفسه، ولم يقل لهم إنه عرفهم، بل ﴿قَالَ أَأَنْتُمْ سَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ٧٧)، وعلى أي حال، كان القرار بإبقاء أخيه عنده، ولم تنفع كل توسلاتهم بإبقاء أحد مكانه لأن ﴿لَهُ أَبٌ شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، ودب الخلاف بينهم وذلك عندما رفض كبيرهم العودة معهم إلى أبيهم دون أخيههم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يوسف: ٨٠)، ويعودون إلى أبيهم الذي رفض تبريراتهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٣ - ٨٤)، ومع ذلك فإنهم لم يحترموا حزن أبيهم، ووقفوا أمامه موقف اللائم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥)، وأغاظهم أن يبقى حب يوسف في قلبه فلاموه على ذكره له وحسرتة عليه، وهذا ما زاد في عقدهم من يوسف.

ظهور الحقيقة

وعلى الرغم من كل الآلام التي سببها غياب يوسف وأخيه لم ييأس يعقوب وطلب من أبنائه أن يجدوا في البحث عنهما ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ

وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ (يوسف: ٨٧). رضخوا للأمر وعادوا إلى مصر من جديد، يقفون أمام أخيهم يوسف متوسلين ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ (يوسف: ٨٨)، وهنا تنتهي خطة يوسف ويكشف لهم ما أخفاه عنهم ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف: ٨٩)، وسريعاً تساءلوا: ما يدري هذا الملك بيوسف وقصته؟ نظروا في وجهه ملياً، دققوا في ملامحه ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠) ويعترفون بخطئهم، وبأنهم رغم كل مكائدهم لم يستطيعوا أن يبعدوه عن طريقهم ليخلو لهم قلب أبيهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١)، ويعفو نبويّ يجيبهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢).

هنا نلاحظ بعد أن استقرأنا هذه الآيات المباركة طبيعة نفسية أولاد يعقوب، ومعالـم العقدة التي اخترنتها قلوبهم تجاه يوسف (ع) منذ صغره وأثناء غيابه الطويل عنهم، حتى انفتح قلبه لهم ووهبهم محبته، واقرؤا بذنبهم طالـين من أبيهم ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧)، فما كان منه (ع) إلا أن ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: ٩٨).

رؤى تربوية

من خلال صورة هؤلاء الأبناء الذين تعقدوا من صلاح أخويهما وإيثـار أبيهما لهما، وتنامي عقدة الحسد في نفوسهم التي دفعتهم إلى تدبير المكائد التي أرادوا منها شراً وأراد الله منها خيراً، يمكن لنا أن نستفيد من ذلك في المجال التربوي مع ملاحظة عدة أمور:

إنَّ الجوّ العائلي لا يترك دائماً تأثيراً إيجابياً في نفوس الأبناء، فليست قاعدة ثابتة أن يكون الأبناء صالحين عندما يكون الآباء والأمهات صالحين، لأنَّ تأثير الآباء والأمهات يبقى محدوداً في ظلّ جملة من العوامل والآفاق الأخرى، فهناك تأثير الجيران والأصحاب والأقرباء.. فالأم والأب يمكن أن يزرعا البذرة الأولى الطيبة، ولكن قد تتراكم التأثيرات الخارجية فتمنع هذه البذرة عن النمو، تماماً كما تفعل الأتربة والأحجار والأوساخ بالنبع فتصدُّ ماءه عن التفجّر والإنسياب. فالأصالة في التربة العميقة الأولى قد تترك في قلب الطفل بعض العناصر الحيّة والقويّة، ولكن من الممكن أن تتجمّع عناصر أخرى فوق العناصر الأصلية، وبالتالي فقد يضلّ الطفل وينحرف، وأفضل شاهد على ذلك ابن نوح(ع) ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: ٤٥)، وكان الرد ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦)، فبيئة نوح الصالحة لم تترك تأثيرها في ولده الذي نصحه والده(ع): ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَأُوتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٢ - ٤٣) وبيئة صالحة أخرى لم تستفد من جوّها امرأتان لنبيين كريمين ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (التحریم: ١٠)، وفي المقابل كانت هناك بيئة فاسدة، ورغم فسادها عاشت فيها امرأة الصلاح ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم: ١١).

وهنا نقطة لا بُدَّ أن نثيرها، وهي أن البعض يقول لاحظوا العالم الفلاني وصلاحه ولاحظوا أولاده وفسادهم، أو لاحظوا المجاهد الفلاني، ولاحظوا أولاده الذين يسيرون في خط معاكس لجهاده، نقول: أولاده ليسوا هو، هم مخلوقات بشرية يملك بعض التأثير عليهم، ولا يملك كُلُّ التأثير عليهم. نعم، قد يكون بعض الآباء مقصّرين في رعاية أولادهم وتربيتهم، وفي كثيرٍ من الحالات قد لا يكونون مقصّرين، ولكن تكون الظروف والأوضاع والضغوط الأخرى أقوى منهم. فالبيئة الصالحة تهَيِّءُ جَوْاً صالحاً لكنّها لا تفرض الصلاح، والبيئة الفاسدة تهَيِّءُ جَوْاً فاسداً لكنّها لا تُثبِّلُ قدرة الإنسان على الصلاح، فإرادة الإنسان واختياره يبقيان له.. وهذا ما تتضح معالمة من خلال قصة اولاد يعقوب مع أبيهم وأخيهم يوسف.

وهناك مسألة مهمة كذلك في المجال التربوي لا بُدَّ من التوقف عندها، وهي المساواة بين الأبناء، مستفيدين من أحداث سورة يوسف. صحيح أن يعقوب (ع) كان يحبُّ يوسف وأخاه، لكن كان لا يحرم الحبُّ لأولاده الآخرين، وهو وإن كان يُؤثر يوسف وأخاه فلكي يشجّع أولاده للسير في خط الصلاح الذي كان عليه يوسف وأخوه، لكنهم كانوا يريدون الاستئثار وحدهم بحبِّ أبيهم. وحبُّ يعقوب لأولاده كان بارزاً من خلال تفكيره بمستقبلهم هل يبقون على خط الإسلام لله أم لا؟ وهذا ما كان يشغله ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

من هنا نخرج بفكرة مفادها أن على الإنسان أن يقوم بواجبه في الحفاظ على خطِّ التوازن في محبته لأولاده، حتى إذا أراد أن يؤثر ولداً على آخر لصلاحه، عليه ألاَّ يُظهر ذلك بالطريقة التي يُعقِّد بها أولاده.

فالكثيرون يعقدون أولادهم نتيجة تصرفاتهم واستغراقهم في الجانب العاطفي وذلك عندما يفضلون ولداً على آخر، وهذا ما يولد كثيراً من الأمور السلبية التي تنعكس على علاقات الأبناء فيما بينهم.

وتبقى نقطة أخيرة نستفيد منها، وهي أن باب التوبة لا يُغلق بوجه أحد، فآية جريمة أكبر من تلك الجريمة، بأن يلقي أولاد يعقوب أحاهم يوسف في غيابت الجب ويهملوه ويشعروا بالراحة لغيابه؟ ومع ذلك رأيناهم كيف تراجعوا عن خطئهم، وكيف قبل يوسف ذلك منهم ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢).

ونحن في تعامل الآخرين معنا فيما لو تراجعوا عن أخطائهم، علينا ألا نغلق باب العذر لهم. فبعضنا قد يكون معقداً من أوضاع معينة أوجدها له البعض ولا سيما الأقرباء، فإنهم وإن تراجعوا وقدموا الأعذار، فإنه لا يمكن أن يقبل منهم، ويعتبر فعلهم ذنباً لا يُغتفر.. هذا خطأ، لأن القاعدة الإسلامية تقول: «تَحَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣)، وأكثر من هذا فإن الله علمنا أنه لا يغفر ذنوبنا ويقبل توبتنا وحسب، بل إنه يعطينا محبته على توبتنا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى: ٢٥) ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وهذه مسألة لو فكر فيها الإنسان تفكيراً هادئاً وعقلانياً وإيمانياً وموضوعياً لا يمكن أن يبقى في نفسه ذرة حقد على أحد، فماذا ينفع الإنسان إذا ما جاء أخوه معتذراً ولم يقبل عذره ورحل عن الدنيا، فهل يربح شيئاً سوى شفاء الغيظ؟ بينما إذا

غَفَرَ لَهُ وَقَبِلَ عَذْرَهُ فَإِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَى اللَّهِ، لِيَقُولَ لَهُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (ع):
«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ فِي كِتَابِكَ الْعَفْوَ وَأَمَرْتَنَا أَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمْنَا، وَقَدْ ظَلَمْنَا
أَنْفُسَنَا فَأَعْفُ عَنَّا فَإِنَّكَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا» وهذا ما يحثُ عليه القرآن ﴿وَلْيَعْفُوا
وَلْيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢)، إغفر لغيرك، لأنك إذا
غفرت لغيرك ذنبه، فإنَّ اللهَ سيغفر ذنبك.. وهذا درسٌ نتعلَّمُه من خلال سورة يوسف،
خاصة إذا أيقنَّا أنَّ الدنيا فانية ونحن راحلون عنها.

الصبر الرسالي

بين صبر وصبر

قبل أن نشرع في التفسير العام لهذه السورة المباركة، يجدر التوقف عند أمرٍ يتصل بشخصية النبي يوسف(ع)، وهو صبره في مختلف مواقع الحياة التي تتنوع ضغوطها ومشاكلها. فقضية الصبر في حياة كُلِّ واحدٍ منا قضيةٌ نسبيةٌ في أغلب الأحيان، فقد نصبر على الحرمان في جانب وقد لا نصبر عليه في جانب آخر، بعضنا قد يصبر على الجوع، ولكنه لا يصبر على العطش، أو ربما يصبر على الضغط العائلي من أقربائه، ولكنه لا يصبر على ضغط الشهوة في جسده، أو يصبر على كثير من الضغوطات والمشاكل، ولكنه لا يصبر على السجن مثلاً. وربما نجد أن بعضنا لا يصبر على مستلزمات أو على نتائج الجاه والسلطة، فقد يكون مطيعاً لله في عباداته، ولكنه لا يطيع الله في جاهه وسلطته، فقد يكون وهو في موقع السلطة غير صابر، بمعنى أنه قد يظلم الناس، ويسرق أموالهم ولا يساوي بينهم، في الوقت الذي قد يكون أميناً فيما لو لم يكن في مركز السلطة والقوة.

لذلك، فإن الصبر يمثل تماسك الإنسان أمام الضغوط والمشاكل والمغريات في حال الرخاء أو في حال الشدة، وفي حال السلطة التي هي قوة، وفي حال الضعف.

التماسك والثبات

ونحن عندما ندرس شخصية النبي يوسف(ع) في كُلِّ المراحل التي قصّها علينا

القرآن الكريم، نجده أنه الصابر في جميع حياته، ويتجلى صبره في بداية حياته ضمن الأجواء العائلية مع أبيه (ع) وإخوته الذين كانوا يحسدونه ويعملون على إيذائه والبغى عليه، تماماً كما يحصل داخل كل عائلة يحسد فيها الإخوة أخاهم المميز والمقرب من أبيه وأمه، فيحاولون الإيقاع والإضرار به، وإيذائه بطريقة وبأخرى. وهذا ما حدث لـ يوسف نفسه ولكن لم يُنقل لنا في تاريخه (ع) في صباه أنه تأفف أو توجع أو مارس أي عمل سلبي ضد إخوته وهو في بيت أبيه، حتى عندما تأمروا عليه وقرروا أن يلقوه في غيابات الجب لم يحدثنا القرآن عن أي عمل سلبي فيما يكون من الطبيعي أن يقوم به أي إنسان.. ولنتصور أن إخوة يريدون أن يلقوا أخاً لهم صغيراً في بئر عميقة، فإنه لا شك يصرخ ويحاول الهرب والإفلات منهم، وهذا ما لم تحدثنا القصة القرآنية أبداً عنه (ع). أُلقي في البئر، وجاءت القافلة السيّارة واكتشفوه عندما أدلوا دلوهم في البئر، فتعلق به وأخرج منه، وأخذ هؤلاء عبداً، فصبر على العبودية، عبودية الأسر لجماعة اعتبروه بضاعة، لبيعوه كما يبيع الإنسان أية بضاعة عادية ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف: ٢٠)، غير مرغوب فيه، فهو فتى صغير وليس قوياً، ولا يستفيدون منه في العمل وحمل الأثقال والخدمة وما إلى ذلك.

صبر عن الحرام واختيار السجن

ثم يدخل (ع) في تجربة صبر أخرى وذلك عندما يشتريه عزيز مصر، ويتجلى قوياً هنا صبره، فيتمرد على ضغط الشهوة وإحاحها، فهو شاب، والشهوات تتفجر داخل جسده، وهذه امرأة العزيز تراوده عن نفسه، وتقدم له المعصية على طبق من ذهب، وهو عندما يستجيب، فسيصبح عشيقها وهو في بيتها، وستعطيه الكثير مما يرغب فيه الشباب، ولكنه أبى ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظالمون﴾ (يوسف: ٢٣)، وكان قد رأى برهان ربه ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، وضغطت امرأة العزيز أكثر
عندما جمعت نسوة المدينة حتى تبرئ نفسها، وكان الضغط عليه ضغط امرأة
واحدة، فأصبح ضغط جميع نسوة المدينة اللاتي جمعتهن في بيتها وراودنه عن
نفسه بكل قوة وإصرار، فيتوجه صابراً إلى الله ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ﴾ (يوسف: ٢٣)، ويتجلى صبره أكثر بالطلب منه سبحانه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، ويخلصه الله تعالى منهم، وهو
عندما تمرّد وصبر صبر الأحرار المؤمنين الأتقياء هددته ﴿وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ
لِيُسْجَنَ وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢).

ودخل السجن، وينتقل من واقع إلى آخر. فبعد أن كان حراً في أوسع مجال
للحرية، حرية الحركة والشهوة وحرية المال، وما إلى ذلك، يصبح داخل السجن ذليلاً
صاغراً. ولا شك أن ضغط السجن، هو ضغط يتناول حالة الإنسان النفسية، كما
يتناول حالة الإنسان الجسدية وذلك عندما تُمنع حريته، ولكنه (ع) صبر على السجن
واعتبره فرصة طيبة منفتحة على طاعة الله، وعلى الدعوة إليه سبحانه، بعد أن
استطاع أن يجد في هذا السجن الملاذ والمهرب من معصية الله.

الإرادة والعزيمة في مسار الأنبياء

كل هذه المواقف وغيرها هي سر شخصية يوسف، وهذا هو الدرس الذي نحتاج
أن نتعلّمه منه (ع)، هو درس الصبر فيما لاقاه من عداوة إخوته وحسدكم، وفيما لاقاه
من الأسر والقهر والاستعباد، وفيما واجهه من ضغط الشهوة التي رفض أن تسيطر
عليه، وفيما عاشه من السجن، حتى وجدناه في كل ذلك الإنسان المؤمن الذي لم
تطغى السلطة، ولم تجعله في خط الانحراف، وهذا هو أيضاً ما يريد القرآن أن يقدمه

كدرس لرسول الله(ص) عندما كان يعيش المشاكل الصعبة في مكة خاصةً إذا ما عرفنا أن سورة يوسف، هي سورة مكية نزلت على النبي(ص) حيث كانت الصعاب تحاصره وتتحداه في دعوته. ولهذا فإن سورة يوسف، هي السورة التي تعطي الإنسان دروس الصبر، الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، والصبر على كل ما يُبتلى به الإنسان.

وقد استشهد الإمام الصادق(ع) بقصة يوسف عندما تحدّث عن الحرية، والعلاقة بين الحرية وبين الصبر حيث يقول(*) : «إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ صَبَرَ لَهَا وَإِنْ تَدَاكَتْ(**) عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ، وَإِنْ أُسِرَ وَقُهِرَ وَاسْتَبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْرًا، كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ الْأَمِينُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمْ يَضُرَّ حَرِيْقُهُ أَنْ اسْتَعْبَدَ وَقُهِرَ وَأُسِرَ، وَلَمْ تَضُرَّهُ ظِلْمَةُ الْجَبِّ وَوَحْشَتُهُ، وَمَا نَالَهُ أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الْجَبَّارَ(***)، الْعَاتِي لَهُ عَبْدًا بَعْدَ إِذْ كَانَ لَهُ مَالِكًا، فَأَرْسَلَهُ وَرَحِمَ بِهِ أُمَّةٌ، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يَعْقِبُ خَيْرًا، فَاصْبِرُوا وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تَوْجَرُوا»، فأن نصبر في حالات الإغراء، وأمام الضغوط والمشاكل، وأمام البلاء والمصيبة، معناه أن ينطلق الإنسان منا على أساس الإرادة القويّة الصامدة التي تتحرّك في خط العزيمة. وهذا هو ما يجب أن نستوحيه من هذه السورة، التي يجب أن نعي أهدافها، وأن نعي شخصيات الأنبياء الذين حدثنا الله عنهم في القرآن الكريم، بحيث ندرس شخصياتهم من الداخل والخارج، وفي كلّ حركة الدعوة والجهاد والطاعة لله سبحانه وتعالى.

(*) الكافي، ج ٢، ص ٩٦.

(**) اجتمعت.

(***) عزيز مصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحسن القصص

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ
قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى
إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا
أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١ - ٦).

بعد أن اطلعنا على الجو العام الذي يحكم مسار هذه السورة المباركة، لا بدُّ لنا أن نعيش التفاصيل التي تحركت بها آياتها

القرآن من هذه الحروف فأتوا بمثله

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿الر﴾ هذه ليست كلمة، وإنما هي حروفٌ مقطّعةٌ كُتِبَتْ بشكلٍ متصل، وهي تُقرأ: ألف - لام - راء. وقد اختلف المفسّرون حول معنى هذه الأحرف، فبعضهم يعتبر أنها مما استأثر الله بعلمه، وآخرون قالوا، إنها أسماءٌ للسور. ولكن أقرب تفسير معقول لهذه الحروف، هو ما ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (ع)، من أنها ذُكرت في أوائل بعض هذه السور لزيادة التحدي. فكان الله سبحانه يريد أن يقول للناس: إن كتاب الله الذي أنزله على رسوله ليس مؤلفاً من عناصر سرية خفية، حتى إذا عجزتم عن محاكاته، قلتم لا ندري كيف أُلّف هذا الكتاب حتى نجري على مجراه ونتحدّاه. ولكن هذا الكتاب مؤلف من هذه الحروف (ألم، ألر، كهيعص، طسم، حم). فهو من هذه الحروف، وهذه الحروف بين أيديكم، وأنتم تعرفون اللغة العربية، فإذا كنتم تعتبرون أن القرآن كلام بشر فحاولوا أن تأتوا بسورة من مثله، والمادة الخام - وهي هذه الحروف - موجودة بين أيديكم. ولعل هذا هو أقرب التفاسير إلى المعقول.

دعوة للإفتاح على المسؤولية

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذه الآيات التي تتلى عليكم هي آيات الكتاب الواضح الموضّح، الذي يطرح عليكم الفكرة في أي جانب من جوانب العقيدة أو

الشريعة، أو الكون والحياة.. إنه يطرحها عليكم بشكل واضح ظاهر لا تعقيد فيه ولا غموض، حيث كل إنسان يعرف اللغة العربية يستطيع أن يفهم القرآن بالشكل الطبيعي.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الله تعالى يريد للعرب الذين بعث فيهم محمداً (ص) أن يكونوا أول قاعدة إنسانية لحركة الرسالة، لأن كل رسالة لا بد أن تنطلق من موقع وقاعدة، ومن مجتمع يمثل البداية لحركة الرسالة إلى المجتمعات الأخرى، ومن الطبيعي أيضاً أن يرسل الله أي نبي بلسان قومه حتى يستطيع أن يخاطبهم بلغتهم، وأن يبين لهم ما يريد بيانه من خلال اللغة التي يفهمون مفرداتها وأساليبها حتى يؤمنوا ويقتنعوا، ولينطلقوا من خلال قناعتهم وإيمانهم في خط الدعوة إلى الله، وليدعوا الناس إلى هذا الدين. والله حدثنا أن كل نبي أرسله بلسان قومه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ باللغة العربية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمون وتفكرون فيه وتتوصلون إلى القاعدة العقلية التي ترون فيها أن القرآن لم يأتكم إلا بما يغني عقولكم، وبما يوصل هذه العقول إلى النتائج السليمة المستقيمة. وهذا ما يدفعنا إلى أن نتعقل هذا القرآن بحيث نتفهمه ونبني عقولنا بناءً جديداً على أساس مفاهيمه وتشريعاته.

ومن هنا نفهم أن الله سبحانه لا يريدنا أن نقرأ القرآن قراءةً لسانية، دون أن تكون هذه القراءة طريقاً إلى العقل، ولذلك نلاحظ أن الله سبحانه كان يشير للنبي (ص) عندما كان (ص) يستعجل جبرائيل (ع) بتلاوة القرآن ليحفظه خشية أن يغيب عنه شيء ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩)، وهذا توجيه رباني للإنسان بتدبر القرآن وعدم الاستعجال بقراءته، ولذا فإن قراءة الذين يقرأون القرآن

في شهر رمضان استعجلاً ليسجلوا أعلى رقم بختمه، ليست هي القراءة القرآنية التي يريدّها الله والتي جعل الثواب عليها. فالله تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، على الإنسان أن يتدبّر القرآن حتى يستطيع أن يعرف من خلال وعيه لمفاهيم القرآن أن القرآن لا تناقض ولا اختلاف فيه.. وكيف له أن يدرك ذلك إذا لم يدقّق في معنى كلّ آية؟ ولذلك فإنّ إنزال القرآن للمسلمين ينطلق من خلال هدفٍ إلهي، يرمي إلى رفع مستواهم بالحدّ الذي يستطيعون فيه أن يملكوا عقولهم ويغنوها، ليكونوا الأمة العاقلة التي تتحرّك من خلال العقل في دراسة أمورها لتزيد العقل عقلاً فيما تسمعه وتقرأه، ولتزيد العقل عقلاً فيما تفكّر فيه وتستوحيه.

قصص التوعية والعبرة

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ يخاطب الله رسوله بأننا نقصّ عليك أحسن القصص من خلال ما نوحيه إليك من القرآن. وقد أبرز القرآن الجانب القصصي فيه لأنّه يمثّل أسلوباً من أساليب التربية والتوعية والعبرة، وما ذلك إلّا لأنّ القصة تجتذب الإنسان من خلال طبيعة حركيّة الأحداث وحركية الأشخاص فيها، وهذا ما نلاحظه في حياتنا العامة عندما نستمع إلى حديث معين، فإذا كان هذا الحديث يتضمّن قصة يختلف فيها الأشخاص، وتتنوّع الأشكال والألوان والمواقع، فإننا ننجذب إليه انجذاباً يأخذ كلّ فكرنا لنلاحق الأحداث ونعرف النهايات. ولهذا نرى أنّ أسلوب القصة طغى على كثير من الوسائل الإعلامية، حيث تتابع القصص إلى العدد القادم، أو الحلقة القادمة حتى يربطوا المشاهد أو القارئ، أو المستمع بالجهاز الإعلامي، وذلك من

خلال ارتباطه بالقصة ورغبته في معرفة وقائعها وأحداثها. ومن هنا كانت خطورة الأسلوب القصصي باعتبار أنه قد يُستعمل للإضلال، وقد يُستعمل للهداية.

وعندما حدث الله تعالى رسوله (ص) بأحسن القصص، أتت الأحسن من خلال ما تُبرزه القصة القرآنية من نتائج فكرية وعملية في حياة الإنسان. والقصة، كالطعام، هناك طعام يملأ المعدة، ولكنه لا ينفع الأجهزة الموجودة في الجسم والتي تبحث عن عناصر الغذاء المفيدة، صحيح أنه يسكت صراخ الجوع، ولكنه يُثقل الجسد، ولذلك قال أمير المؤمنين علي (ع): «فإنَّ النَّاسَ قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل» (*) فالجسد قد يمتلأ بالطعام الخالي من المغذيات، وقد يشعر بالشبع، ولكن لا يشعر بالقوة حيث كلُّ الأجهزة الباحثة عن الحياة تُستنفذ لتصرخ من جديد، فالأعصاب تبحث عما يُعطيها القوة، وهكذا الدم، وبقية عناصر وأجهزة الجسد.

وفي المقابل، هناك طعام قد يكون قليلاً ولا يُثقل الجسد، ولكنه يكون مغذياً ومفيداً، وقد يشعر الإنسان بالشبع إذا تناوله من دون أن يأكل الكثير. لذا، فإنَّ عملية الجوع والشبع في الجسم لا تُقاس بمقياس الكمية، وإنما بمقياس النوعية، باعتبار أنَّ الإنسان يجوع عندما تجوع أجهزة جسمه باحثاً عن الطاقة، ويشبع عندما تشبع أجهزة جسمه من الطاقة.

وهكذا في القصص، فهناك سلاسل من القصص تُباع، يقرأها الإنسان من أولها إلى آخرها وتجذبها أحداثها ويشعر بشيء من اللهو والمتعة، ولكنه يخرج من القصة كما دخل من دون أن يضيف إلى معلوماته علماً جديداً، أو إلى تجربته تجربة جديدة، لأنَّ أحداث القصة لا تُعدو كونها تسلية لا تخدم الفكر بشيء، ولا الإحساس ولا

(*) نهج البلاغة الخطبة ٢٠١.

الحياة. وشبيه هذه القصص، قصص العشق والغرام وما شاكل ذلك. بينما نرى في قصص اجتماعية معينة تعالج مشكلة ما، أن حركة الأحداث مرتبطة بهذه المشكلة، فنقرأ أسبابها وحلولها والنتائج، لنخلص إلى أن نحس بهذه المشكلة فنبحث عنها في الواقع. وهكذا في جميع القصص التي تتناول قضية فكرية أو سياسية أو أخلاقية. لذلك ينبغي أن يختار الإنسان القصص الهادفة التي توجه العقل نحو فكرة، وتثير الانتباه والإحساس نحو قضية من القضايا لها ارتباط بواقعنا وقضايانا، وهذا أحسن القصص.

وهكذا نلاحظ قصص القرآن فيما قصه الله على أنبيائه (ع) على طريقة ضرب المثل، أو على طريقة إبراز حياة الأنبياء، بأنه ما من قصة قرآنية إلا ولها هدف، حتى أن القرآن يكرر القصة أكثر من مرة، ولكن في كل مرة تعطينا القصة وفي أي موقع من المواقع فكرة تختلف عن الفكرة التي تعطيها القصة نفسها، من خلال مشهد آخر، أو خصوصية أخرى.

فالمقصود إذاً بأحسن القصص، هو الذي يحمل إليك عبرة وفكرة، ويحل لك مشكلة، أو يثير قضية من أجل البحث فيها.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ قبل أن نبحث في هذه الفقرة من الآية لا بد أن نشير إلى أن الله سبحانه ينمي ثقافة أنبيائه، والنبي يعيش روحية الكمال. لذلك فإن الله يربيّه ويؤدّبه، لذلك، رسول الله (ص): «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وعدم معرفة الرسول (ص) بتفاصيل التاريخ والأحداث قبل أن ينزلها الله عليه لا تضر بعصمته ومقامه على الإطلاق، لذلك يحدثنا الله تعالى عن أولئك الذين قالوا: ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢)، ويحدثنا عن الذين رفضوا الإيمان به ﴿حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَاهُ﴾ (الإسراء: ٩٣)، فهؤلاء كانوا يعجبون

لماذا كان ينزل القرآن آيةً آيةً أو سورةً سورةً، ولكن الله يقول لنبيه في رده عليه ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢)، وعلى هذا الأساس فإن هذه الآية ﴿وَإِنْ كُنْتُ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ تعني أن النبي (ص) المنفتح على الله سبحانه لم تكن التفاصيل قبل الوحي موجودةً بين يديه، فالقرآن يشير إلى ذلك بقوله: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى: ٥٢)، ففي البداية لم يكن عندك معرفة بكتاب الله وبتفاصيله ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)، وهذا لا يضر بعصمة النبي، لأنه (ص) وبحسب عقيدتنا، كان مثال العصمة قبل النبوة وبعدها، وكان المنفتح على الله، ولكن النبي بشر، والإنسان ينطلق في معرفته إما من خلال فكره بما يتسع له فكره، أو من خلال قراءاته، أو من خلال إلهام الله له بالوحي. ولم يكن هناك ضرورة قبل النبوة أن يعرف الله نبيه كل شيء، كما عرفه بعد النبوة، حتى إذا ما أرسله نبياً عرفه آفاق السماء والأرض وكل تفاصيل التاريخ، باعتبار أن هذه المعرفة أصبحت حاجة أساسية للرسالة. وهذا يعرفه الله تعالى قصة يوسف (ع).

الرؤيا والمستقبل المشرق

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ وتبدأ القصة بإخبار يوسف لأبيه يعقوب بما رآه في منامه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ويدرك يعقوب بحسه النبوي بأن هذا المنام يُعبّر عن حقيقة مستقبلية تمثل رفعة شأن لهذا الغلام، ولكنه لا يعرف ما هي طبيعة هذه الكواكب، وما تعني رؤية الشمس والقمر، قد لا يعرف ذلك الآن، لكنه عرف أن هذا المنام يوحي بمستقبل كريم وكبير له، وكان يدرك (ع) لو أن يوسف أخبر إخوته الذين يحسدونه بهذا المنام،

فإنه سيثير غيرتهم، وعند ذلك سيعملون على منع هذا المستقبل من أن يتحقق، لذلك كانت وصيته له:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ لأن هذه الرؤيا تعطيك امتيازاً وتمثل مجداً مستقبلياً لك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فسيتآمرون عليك من أجل منع تحقق هذا المجد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فالشيطان يطغيهم ويثير في أنفسهم الحقد الذي يدفعهم إلى البغي وبالتالي يؤدي بهم إلى الضلال والانحراف ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ من بين إخوتك، أو من بين خلقه ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إنك من خلال هذه الرؤيا ستقفجر في قلبك ينابيع المعرفة بتفسير كل رؤيا في المستقبل، وتفسير كل حديث يُعرض عليك ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إنك ستتحرك في الاتجاه النبوي الذي بدأه الله في آل يعقوب، عندما أتم نعمته عليهم بالنبوة كما أتمها على إبراهيم وإسحاق، وسيتم تعالى نعمته على آل يعقوب من خلال إتمامها عليك.

العقدة والمؤامرة

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ* إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَإِخْوَهُ أَحَبُّ إِلَى آبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾* قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ* أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ* قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾* قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ* فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ* قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَـأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ* وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾* (١٨ - ٧).

قبل أن نتوقف عند معاني الآيات المباركة لا بد أن نشير إلى أن الإنسان لو درس قصة يوسف بعناية وتأمل ووعي وبكل تفاصيلها لرأى فيها آيات تدلُّه على رعاية الله لعباده المؤمنين، وعلى أن الله سبحانه يجعل لهم من بعد عسرهم يسراً، وينقذهم من الأخطار في الحالات الصعبة، ويخرجهم من كل سوء، ويقودهم إلى كل خير.. وهذا ما نلاحظه في كل مراحل حياة النبي يوسف (ع) من تأمر إخوته عليه، إلى المرات الأخرى التي عاشها، وإلى النهاية السعيدة لحياته.. لذلك لو درس كل إنسان مؤمن ابتلي ببعض أنواع البلاء حياة يوسف (ع) لأدرك بأن ابتلاء الله للإنسان لا يعني بالضرورة أنه عقوبة من الله، بل قد يكون هذا الابتلاء للإنسان زيادةً في اختباره، وتقوية لإيمانه، ليصل به المولى سبحانه إلى الدرجات العليا، وليعطيه أجر الصابرين. لذلك يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسَائِلِينَ﴾ الذين كانوا يسألون النبي (ص) عما كانوا يسمعون من قصص الأمم السالفة، ولذلك أكد القرآن الكريم أن على الإنسان الذي يستمع إلى تاريخ من سبقوه، أن يجعله طريقاً لمعرفة سنن الله في خلقه، وطريقاً لمعرفة تدبير الله سبحانه، ليزداد من خلال قصص التاريخ إيماناً بربه ووثوقاً بحكمته وانفتاحاً عليه في كل أموره.

للعقدة أسبابها

ولهؤلاء السائلين يوضح القرآن ما جرى في تاريخ يوسف وإخوته ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُبَيِّنَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اجتمعوا فيما بينهم وكانوا عشرة إخوة من أم واحدة كما يقول المؤرخون، وكان يوسف وأخوه الذي يطلق عليه اسم بنيامين من أم أخرى، وكانت عقدتهم أن يوسف وأخاه كانا مقربين من أبيهما، وكانا في أوائل صباهما، وربما كانا في سن الطفولة المتقدمة، حيث كان يعقوب (ع) يؤثرهما ويحبهما، تماماً كما يحب كل أب أبناءه الصغار، وذلك عندما ينشغل الكبار

بشؤونهم، فينشغلون عنه وينشغل عنهم، فتتحرك تعبيرات العاطفة باتجاه الصغار الذين يحتاجون إلى مَنْ يرعاهم ويغذيهم بالحنان كي ينشأوا نشأةً طبيعيةً، باعتبار أن الطفل يتغذى بحنان أبويه تماماً كما يتغذى بالطعام والشراب.

وهكذا كان يعقوب (ع) يحب ولديه اللذين كان يرى فيهما من علائم الطهر والطيبة والنقاوة والصفاء والنجابة والانفتاح على الله أكثر مما كان يراه في إخوتهما، ولذا، فإنَّ يعقوب النبي الذي يتحرك من أجل أن يؤكّد الصلاح والطهارة والصفاء لا بدَّ له من أن ينفّث على ولديه اللذين رأى فيهما مثلَ هذه الصفات الطيبة التي يدعو النَّاس إليها.. ولا بدَّ أن يكون قد أثر ذلك في نفسه، ورأى أنَّ أولاده الآخرين لا يحتاجون إلى مثل هذه الرعاية كونهم كباراً، كما يحتاجها هذان الطفلان الصغيران، ولذلك انشغل بهما عنهم.

وقد ضاقوا بهذين الصغيرين ذرعاً، وشعروا بأنَّهما يمثِّلان حاجزاً بينهم وبين أبيهم، فأبوهم مشغول بهما ولا يعطيهم عاطفة كما يحبون لأنفسهم، ومن الطبيعي أنَّ مثلَ هذه القضايا عندما تلتقي بالجانب الذاتي للإنسان فإنَّها تتحوَّل إلى حالة حسد، والحسد يتحوَّل إلى عقدة، والعقدة تتحوَّل إلى حالة بغى. وعلى هذا تشاوروا فيما بينهم، فيوسف وأخوه ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ هما إثنان، ونحن عشرة، نحن أولاده، وهما طفلاه ولا يستطيعان أن يفيداه بشيء، بل إنَّهما يُلقيان بثقلهما عليه، أما نحن الكبار، فإننا ندير أموره ونرعى شؤونَه ونتدبَّر أوضاعه، ونقوم بكلِّ ما يحتاجه في شيخوخته، فما الذي جعله يميِّز هذين الطفلين الصغيرين اللذين لا ينفعانه شيئاً عن أبنائه العشرة الذين يديرون كلَّ أموره؟ لا شكَّ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وليس مقصودهم أنَّ أباهم في ضلال من الناحية الإيمانية، لأنَّهم يعرفون أنَّ أباهم (ع) نبيٌّ، وهم ليسوا بعيدين عن الله تعالى، ولكنَّ

الشیطان استولى على عقولهم، فعاشوا الغفلة عن الله سبحانه في أن أباهم ضلّ وابتعد عن حالة التوازن في السلوك العائلي، فغلب الجانب العاطفي في شخصيته على جانب الحكمة حيث أثر يوسف وبنیامن عليهم.

المكيدة

وإزاء هذه الحالة النفسیة، كان قرارهم: ﴿اقتُلُوا یُوسُفَ﴾ لننتهي منه، والظاهر أن قرار قتل يوسف دون أخيه بنیامن، فلأنه (ع) كانت له المكانة العليا في قلب أبيه، أكثر من بنیامن ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ألقوا به في الصحراء حتى يتيه ويضيع فيُنسى ونرتاح منه. وبهذا نفهم كيف وصلت بهم العقدة النفسیة من ناحية الحسد والبغی إلى أن يشعروا بأنه لا مجال للتنفیس عن هذه العقدة إلا بأن يقتلوا يوسف أو أن يضيّعوه في مجاهل الأرض، وذلك هو فعل الحسد كما شرحنا في مقدمة هذه الأبحاث الذي ليس فيما يتصوره الناس بأنه «صیبة العين»، بل بما يتفاعل في الذات ويتحول إلى عقدة، وبذلك يصبح الحاسد شخصية عدوانیة باغیة على الآخرين، ولذا ورد في الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ» فلا يتحول حسدك إلى بغی وعدوان على المحسود. وهذا ما تعنيه الآية المباركة ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥)، أي من شره في سلوكه ضد المحسود، لا من شره في نظرتة بعينه إلى المحسود.

إذا ﴿اقتُلُوا یُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا یَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فبعد أن تقتلوه، فإن الحاجز يرتفع بینكم و بین أبیکم وينفتح علیکم. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، وإذا كنا نخاف من الله في ذلك، فإننا نقوم بفعلتنا ثم نتوب إلى الله تعالى. وهذه عادة من یرتکب المعصية عامداً متعمداً، ثم یُمنی النفس بالتوبة لاحقاً، تماماً كما تحدثنا سابقاً عن عمر بن سعد في هذا المجال. والواقع أن الإنسان

الذي يفكر بهذه الطريقة لا يفكر كإنسان مؤمن بالله بالمطلق، خاضع له ومنقاد إليه، كأنه يريد أن يخادع الله، والله يقول عن هؤلاء المخادعين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ٩)، فالبعض يُزَيِّنُ لنفسه المعصية، ثم يعتذر ويستغفر ويبكي وتنتهي القضية برأيه، هذا البعض لا تمثل التوبة عنده في هذه الحالة، حالة خضوع لله سبحانه، وحالة انقياد، لأنه لو كان خاضعاً لله لما عصى، ولو كان منقاداً له تعالى لما أجرم.

خطوات على طريق تنفيذ الجريمة

ونعود إلى أخوة يوسف، فإنهم أجمعوا بدايةً على القتل، ولكن ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فواحدٌ منهم أخذته الرأفة، لأن يوسف أخونا مهما صدر من أبينا تجاهنا بسببه، فأنا لا أوافق على قتله، ولكنني معكم في التخلص منه، وليس الحل بأن نتركه في البيداء فربما يأكله الذئب، فالأفضل أن نلقيه في أعماق البئر - والظاهر أن الآبار في ذلك الزمن لم تكن عميقة بحيث لو أُلقي (ع) لما غرق - فربما تمرَّ بعض السيَّارة (*) ويأخذونه معهم فيضيع ونرتاح. وهذا هو الرأي الذي استقروا عليه. ولتنفيذ مخططهم، جاءوا إلى أبيهم، وهذا هو الفصل الثاني من القصة ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ كأن يعقوب (ع) كان حذراً منهم في المرات الماضية ولم يرسله معهم، ويجددون الطلب من جديد، فنحن شباب نحتاج إلى أن نلعب ونرتع وقد حصل على الرزق أثناء مرحنا، فلماذا لا ترسل معنا أخانا يوسف؟ فإذا كنت غير راغب بذلك، فمعنى هذا أنك تشكُّ بنا وتحذر منا وهذا ما يُثقل

(*) القوافل.

صدورنا خاصةً أننا سنكون ناصحين له، لذلك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ
وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فهو طفل وبحاجة إلى أن يخرج للبيداء حتى يتنقل كيفما شاء
ويأخذ حريته بالحركة ونحن سنحفظه، لأننا كبار ومن غير الممكن أن ندعه يضيع
﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فكان رده (ع)، أنا لا أحب أن أفارق هذا
الولد، فلقد أخذ بمجامع قلبي، وإني أحزن لبُعده عني ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾
فالصحراء تسرح فيها الذئاب، وأخاف أن يأتي الذئب ويأخذه ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ﴾ فربما أخذتكم الغفلة أثناء لهوكم ولعبكم، لذلك أخاف أن أرسله معكم.
ولكنهم لم يخضعوا لمنطق أبيهم وأصرّوا ﴿قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ
إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ فنحن عشرة شباب أقوىاء أشداء، وسوف نجعله بيننا ونحميه
من أيّ عدوان مُحتمل، فهل يُعقل أن نتركه للذئاب؟ وإذا حدث ذلك، فنحن خاسرون،
لا نسأوي ولا نمثل شيئاً ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ
الْجَبِّ﴾ شدّوا وثاقه، ولم يَأْبَهُوا لتوسلاته الهادئة، وانزلوه إلى أعماق البئر
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد جاء في بعض
التفاسير أن الله أراد ليعقوب (ع) أن يوحى إليهم بما أقدموا عليه وذلك ببعض
الإشارات الخفية، وهذا ما ندركه عندما قال لهم: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وذلك من قبيل إخبارهم بمعرفته وإحساسه بما
أقدموا عليه.

دموع التماسيح

وبعد أن ألقوا يوسف في البئر ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ متسلّحين
بدموع التماسيح، هذا يندب، وذاك يتحسّر ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ إن الشيء الذي خِفْتَ

من وقوعه حدث ولم تكن نتوقع ذلك ﴿إِنَّا نَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ
 مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ فأنت لن تصدقنا لأنك لا تثق بنا
 ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ لذلك كيف يمكن أن تثبت لك صدق أمرنا ﴿وَجَاءُوا عَلَى
 قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وقد نزعوا عن يوسف قميصه ولطخوه بدم شاة، وقدموه لأبيهم
 كإثبات على ما يقولون ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ هناك شيء دفعتمكم
 إليه نفوسكم الأمارة بالسوء ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾
 أسلم أمري لله تعالى، وهو سبحانه سيكشف ما فعلتم.

تسديد إلهي ورعاية

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ* وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ
مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ* وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ
أَكْرِمِي مِثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ* وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ
هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٩) -

(٢٣)

واقعٌ جديد

وتنتقل القصة إلى فصل جديد، حيث سينتقل يوسف إلى مرحلة جديدة في حياته ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ مرّت قافلة على طريق البئر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يطلب لهم الماء ﴿فَادْلَى دَلْوَهُ﴾ في البئر على أمل الحصول على الماء ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ وإذ بيوسف (ع) يخرج متعلقاً بالدلو، أو أنّ الرجل رآه فأخرجه مستبشراً إلى قومه ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً﴾ أخفوه داخل بضاعتهم معتبرين أنّه متاع من أمتعتهم سيعود عليهم بريح ما عندما يبيعونه في سوق العبيد. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فإن كانوا قد أخفوه عن الناس، فإنّه لن يخفي عن عين الله، وسيرعاه ويحفظه وسيوصله إلى النتائج الطيبة التي أراد سبحانه أن يصل إليها ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وباعوه كما يبيعون أية بضاعة بالعدد القليل من الدراهم ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ﴾ فهو لا يفيدهم للخدمة لأنّه صغير، ورضوا بالثمن البخس على أساس زهدهم فيه حتى لا يشكّل أيّ عبء عليهم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ فالذي اشتراه شخصية اجتماعية مرموقة في مصر، طلب من زوجته أن تعطيه الحنان والعاطفة وأن ترعاه، لمّا رآه في يوسف (ع) من وداعة وبراءة وطهارة لا تجتمع عادةً في العبيد الذين يُعرضون للبيع في سوق النخاسة ﴿عَسَى أَنْ يَفْقَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فقد يكون وجوده بيننا فيه منفعة لنا، نستعين به على أمورنا الخاصة.

بدايات النجاح في الموقع الكبير

في كلّ الذي مرّ في حياة يوسف (ع) وإلى أن اشتراه عزيز مصر، تتضح لنا القضية التي أراد الله له من خلالها أن يفتح له أبواب الفرّج، وينطلق به إلى آفاق

العزة والكرامة والسلطة والتقدم. وهكذا اشتراه شخصٌ مميزٌ في موقعه الاجتماعي، الذي قد يكون أحدَ ملوكِ مصر، أو أحدَ التجار الكبار، والأغلب أنه كان من الشخصيات الاجتماعية الإقتصادية التي تحتل موقعاً متقدماً في المجتمع، وذلك من خلال ما نلاحظه من سيطرة امرأته على الواقع الاجتماعي من حولها، مما يوحي بأن لهذا الرجل سيطرة وقوة تجعلانه في موقع التأثير على السلطة التي تعطيه صلاحية سجن من يريد، وتحرير من يشاء.

ووقع يوسف من نفسه موقعاً حسناً، وذلك يظهر من خلال ما طلبه من زوجته بتكريمه على أمل أن يُعينهما أو أن يتخذه ولداً لهما.

﴿وكَذَلِكَ مَكَّنًا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهنا تنفصل الآية عن أجواء الحوار بين الرجل وامرأته في شأن يوسف، لينطلق القرآن في قول الله تعالى، ليبين لنا أن الله قدر له أن يكون في هذا الموقع، بحيث أن الذي اشتراه لم يكن من عامة الناس، أو من الذين يمكن أن تكون حياة يوسف معهم، حياةً تُبقيه في الهامش، وتجعله إنساناً منسياً، ولا تندفع به في قلب التجربة الصعبة ليعيش في ذاكرة المجتمع، مما يهيئ له أن يقفز إلى المواقع المتقدمة.

ونحن نلاحظ أن كثيراً من الحالات التي يتقدم فيها بعض المميزين في المجتمع، قد تنشأ من خلال الظروف المميّزة التي يجعلها الله في دائرة هذه الحالات، بحيث يمكن لطاقت وإمكانات هؤلاء أن تنمو نمواً سريعاً. فلا يكفي لإنسان ما لكي يتقدم في المجتمع أن يكون صاحب إمكانات ثقافية أو روحية، فكم في المجتمع من علماء كبار مُهمَلين ومنسيين، في مقابلهم أشخاص أقل منهم علماً يتصدرون الواجهة، لأن قضية التقدم الاجتماعي لا تخضع دائماً للكفاءة، بل تخضع في أحيان كثيرة للظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالواقع.. وقد ورد في الحديث عن الإمام

عليّ(ع): «إِذَا أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنُ غَيْرِهِ»(*) من خلال التفاف الناس حوله، أو من خلال وضع الإمكانيات التي يملكها الآخرون تحت تصرفه. ثم يقول(ع): «وَإِذَا أَدْبَرْتَ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنُ نَفْسِهِ»(**) فالكفاءات التي يتميز بها لا تكون نافعةً له، ولا تقف في الواجهة.

ولذلك أراد الله ليوسف(ع) أن يضعه في الموقع الكبير من خلال وصوله إلى بيت هذا الرجل الذي يملك الإمكانيات الضخمة، وتعهده تعالى برعايات أخرى هيأته لأن يكون في الواجهة ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأن جعلناه في موقع اجتماعي صلب ثابت، يمكن له من خلاله، أن يواجه أوضاع الناس وتعقيداتهم، ويكون لهم بمثابة القادر على حلّ مشاكلهم، ومواجهة أوضاعهم المعقدة بكثيرٍ من الوعي والمسؤولية ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد أفاض سبحانه على عقله وقلبه علماً من علمه، فعلم تأويل الأحداث، وإرجاع كلّ حديث يعيش في وعي الإنسان وفي أحلامه إلى أساسه الواضح في عمق حياة هذا الإنسان. فآلهمه سبحانه ما يمكن أن يستوحي من الأطياف التي يراها الناس، ومما لها عمق وتأثير في حياتهم، وذلك بالطريقة التي ترفع مكانته عندهم، عندما يرون صدق تأويله وسلامة تفسيره لهذه الأطياف وهذه الأحلام ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ فإذا أراد الله شيئاً فإن الله يغلب كلّ الذين يحاولون أن يسيروا الأمور عكس الاتجاه الصحيح، حيث تحطّم قدرته تعالى كلّ الحواجز التي تُنصب ويهيئ الظروف التي يريدها حتى يتحقّق ما يريد وما يشاء. وهذا ما يُماثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣). لذا أراد ليوسف(ع) خلافاً لما أراده له إخوته، فوضعه في الواجهة الاجتماعية والاقتصادية

(*) نهج البلاغة قصار الحكم ٩.

(**) المصدر نفسه.

في مصر، فأخضعهم له بعد أن تأمروا عليه، وانحنى له أبواه، وتوجت قصته بالنهايات الطيبة التي أراد الله لها أن تنتهي لما انتهت إليه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم ينظرون إلى القضايا في بداياتها، وإلى الأمور في أسبابها العادية، ولا ينظرون إلى نهايات الأمور، وإلى المتغيرات التي يمكن أن تحصل في الواقع، كما أنهم لا ينظرون إلى غيب الله في الأمور الخفية التي يهيئها الله للإنسان فيما يعود عليه بالخير.

وإن آية ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تتكرر في كثير من نهايات الآيات القرآنية، ونحن نستوحي من ذلك أن الحق ليس دائماً في جانب الأكثرية، ولا نقول دائماً إنه في جانب الأقلية، لكن الأكثرية العددية لا تعني أن فكرها هو الفكر الحق، فقد يجتمع أكثر الناس على الباطل نتيجة للعوامل والمؤثرات التي تجمعهم على هذا الباطل من خلال طبيعة الإنفعالات التي تسيطر عليهم.

فإن المبدأ القائل: بأن الأكثرية تمثل الحق، هو مبدأ غير قرآني وغير واقعي، بدليل أن الذين يتحدثون عن الديمقراطية فيما تمثل من أكثرية، لا يقولون: إنها أفضل الأنظمة، لأن الديمقراطية لا تتحرك من موقع عمق في الفكر، وإنما تتحرك من موقع القضايا التي تطوف على السطح. من هنا، فإن أكثرية ما، قد تفرض واقعاً معيناً، ثم تأتي بعد ذلك لتفرض واقعاً آخر مغايراً لذلك الواقع على اعتبار أنها لم تتعمق في تقرير هذا الواقع. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣). فإذا الأكثرية تنطلق غالباً في دراسة أمورها من السطح، ويبقى أن الأقلية العاقلة والعامة والواعية تدرس الأمور في العمق بعيداً عن التأثير بالإنفعال، وهذا ما يجعلها تملك رشد القضايا من خلال إدراكها ووعيتها لهذه القضايا في العمق.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ فعندما بلغ (ع) مبلغ الرجال واستطاع امتلاك القوة ﴿أَتَيْنَاهُ

حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿﴾ آتاه الله وعيَ الحكم على الأشياء، فامتلك المؤهلات التي جعلته في موقع إصدار القرار بطريقة متوازنة حكيمة وبأسلوبٍ ينمُّ عن إحاطة بالعلم ومعارفه. ومن الطبيعي أن هذا الحكم وهذا العلم اللذين وهبهما الله ليوسف لم ينطلقا من خلال توجيه وتعليم أحد له، إنما كان ذلك بطريقة الإلهام، وبتوجيه طاقاته نحو التفكير، وملاحظة ومتابعة الأشياء، ونجد الاستفادة من الواقع الذي يعيش فيه بالطريقة التي يستطيع من خلالها أن يستنتج الحكم والعلم من أقرب طريق وبأسرع وقت.

﴿وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ نفهم من هذه الآية أن الله يفجّر الحكمة والعلم في قلب الإنسان، كلما أحسنَ هذا الإنسان في إيمانه بالله، عبر طاعته له سبحانه، وفي حركته مع الناس في خطأ الله. فهو تعالى لا يجزي المحسنين المال الذي يهبهم إياه وحسب أو الجاه الذي يهيئ لهم ظروفه فقط، بل يعطيهم العلم والحكمة والحكم فيما يفجّره في قلوبهم من ينابيع ذلك، أو بما يكملهم من المعلومات، وما يوجّه به طاقاتهم في الإتجاه السليم الذي يأخذ بهم إلى المعرفة وإلى الإبداع.

من هنا نعرف أن على الإنسان إذا أراد أن يزيد الله في طاقاته العقلية والروحية، عليه أن يفتح على الله في خطأ الإحسان، وقد قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، والإحسان قد يكون في الدنيا من خلال ما يمنحه الله للإنسان من الطاقات، وفي الآخرة من خلال ما يمنحه للإنسان من ثواب ودرجات.

التحدّي

ونعود إلى تجربة يوسف (ع)، فبعد أن بلغ سنّ الشباب وبدت محاسنه، وصار يجتذب النساء بجماله، برزت التجربة أمامه كأصعب ما يكون. فهو «عبدٌ» في هذا

البيت الذي عاش فيه، والعبد لا يملك من أمره شيئاً، بل هو سلعة تُباع وتُشترى، وهذا ما أكدته القوانين والواقع حينها، لذا، عليه أن يطيع عندما يُؤمر ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ دعته إلى نفسها، وطلبت منه تقديم نفسه لها في خط الغريزة ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ حتى لا يدخل عليهما أحد، وليشعر بالأمن إذا امتنع عن ذلك خوفاً من أن يُضبط متلبساً بهذا الفعل مع سيده ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ طلبته إلى نفسها تماماً كما لو قالت: تعال، وهي تعتبر أن لا حواجز تمنعه عن ذلك، لأنه كما يُؤمر يطيع فيما تكلفه به من حاجات، فهو سوف يُلبّي ما تطلبه منه من هذه الحاجة التي تفترض أنها محببة إلى نفسه ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ إنني أستهين بالله من هذا الطلب ومن هذه الدعوة ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ أنتِ امرأةٌ ليست خلية، أنتِ زوجة رب البيت الذي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فأولاني التربية والرعاية، فكيف لي أن أخون مَنْ رَبَّانِي ورعاني؟

بعض المفسرين يعتبر أن مقصود يوسف بقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ أي الله تعالى. ولكن الظاهر من الآية كما يقول كثير من المفسرين وكما نستقر به نحن، أنه يقصد صاحب البيت، وذلك بقرينة ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. والحديث عن الله تعالى في هذا المجال يتم بأسلوب آخر، وهو (ع) تحدث لحظة دعته إلى نفسها قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ فأعوذ بالله وأستجير منه مما تطلبين مني تنفيذه لأن الله تعالى لا يرضى بذلك. ثم أراد (ع) أن يتكلم معها بمنطقها إذا كانت هي لا تعيش الإحساس بالله وبمخافته ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إنني عندما أقوم بهذا العمل فسأظلم هذا الإنسان الذي ربَّاني وسأظلم نفسي من خلال الخيانة، خيانة مبادئ وخيانة هذا الإنسان.

ويوعى الله عباده المخلصين

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ* وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيِّدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ* يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٤ - ٢٩).

ويواجه يوسف(ع) ضغطاً من نوع لم يعهده في حياته، ولم تكن له أيُّ تجربة سابقة في هذا المجال ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ الأظهر في هذه الآية هو أن جملة ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ تمثل معنى اندفاعها إليه من أجل الوصول إلى ما هي مُصَمِّمةٌ عليه من الإتصال به اتصالاً غير شرعيّ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾(*) انجذب إليها انجذاباً غريزياً، ولكنه ليس إرادياً. فالإنسان بما رُكِبَ فيه من غرائز ينجذب إلى ما يستجيب لغريزته بشكل لا شعوريّ. فالجائع ينجذب إلى الطعام بشكل طبيعيّ حالَ رؤيته لهذا الطعام، وكذلك العطشان ينجذب إلى الماء، وهكذا في الشهوة، فإنَّ جسده يستجيب فيما لو ظهر ما يثير هذا الجسد. ففي الإنسان حالةٌ غريزيةٌ تمثلُ انفتاحَ الجسد على كُلِّ ما يثيره ويحركه.

فما صدر من يوسف(ع) في الأجواء المعقّدة خلال اندفاعها إليه، وربما ملامستها له عند إمساكها به، هو الإنجذاب الغريزي. وهناك نقطةٌ لا بدُّ من إثارتها، وهي الفرق

(*) ذكر الشيخ الطوسي (ره) في تفسيره «التبيان في تفسير القرآن» (ج٦، ص ١٢٠ - ١٢١) في تفسيره

للآية الكريمة: «ولقد همت به ...» (بتصرف)

أن معنى الهم على وجوه، منها:

- العزم على الفعل

- خطور الشيء في البال وإن لم يعزم عليه، كقوله تعالى: «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما».

- الشهوة وميل الطباع، كأن يقول القائل فيما يشتهي ويميل طبعه إليه هذا من همّي وهذا أهم الأشياء إلي..

وروي هذا التأويل في الآية عن الحسن البصري، قال: أما همّها فكان أخبث الهم، وأما همّة فما طبع عليه

الرجال من شهوة النساء.

وقد ذكر السيد المرتضى (ره) في كتابه «تنزيه الأنبياء» هذه الوجوه وزيادة، وعقب بقوله، (والعبرة للشيخ

أيضاً):

فإذا كانت وجوه هذه اللفظة (أي الهم) مختلفة متسعة على ما ذكرناه، نفينا عن نبي الله ما لا يليق به وهو

العزم على القبيح، وأجزنا باقي الوجوه، لأن كل واحدٍ منها يليق بحاله» (راجع: تنزيه الأنبياء ص ٧٣ - ٧٥).

ما بين المؤمن عندما تُثار غريزته وتتحرّك فيه حالة الإنجذاب وبين غير المؤمن، فالمؤمن يقف أمام انفعالات ونداءات الغريزة متماسكاً، فلا يضعف ولا يسقط، حتى وإن استنفرت غريزته. والله تعالى عبّر عن هذه الحالة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

فالتقيُّ قد تطوف في ذهنه خيالات السوء والشرِّ، وقد يُثير الشيطان غرائزه، ويلهب مشاعره، ولكنَّ الشيطان لا يستقرُّ في قلبه، لأنَّ هذا التقيُّ عندما يشعر أنه اندفع نحو وساوس الشيطان تأتي التقوى لتعصمه عن هذه الوسواس. فغفلة التقي ليست غفلة مستقرة، وإنما هي غفلة طارئة. ولذا عبّر سبحانه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني أن الشيطان يأتي المؤمن وهو مسرع فلا يستطيع أن يثبت أو يستقر، وصحيح أنه يحرك الوسوسة ويمضي، ولكنَّ التقيَّ ينطلق بتقواه ليجعل هذه الوسوسة حالة طارئة ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

ونعود إلى جوِّ السورة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ انطلاقاً من مشروعها في أن تقود يوسف (ع) إلى السوء والفحشاء ﴿وَهُمْ بِهَا﴾. إنجذب إليها إنجذاباً لا إرادياً ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بعض المفسرين يحاول أن يوجد حالة مادية صدته عن ذلك، من قبيل أن يعقوب (ع) جاءه واضعاً إصبعه على فمه في حالة المؤنّب له، أو من قبيل أن جبرائيل (ع) نزل ليصده ويمنعه عن ذلك، والواقع أنَّ القضية في هذا لا دليل عليها. فالمسألة واضحة ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فهو رأى حجة الله عليه، من خلال ما أراه سبحانه برهان الحقِّ والعفة والعصمة الذي يجعله يمتنع عن فعل الحرام امتناعاً ذاتياً يُبعده عن الوقوع في الخطيئة. فهو (ع) يمتنع عن ذلك بعد أن لمعت في ذهنه ووعيه الإيمانِي الحجة من الله عليه فتذكّر الله سبحانه وأدرك النتائج السلبية لهذا الفعل الذي تريد غريزته أن تأخذه إليه، وتبغى امرأة العزيز أن تقوده

نحوه، فهو عندما رأى برهان ربّه ابتعد عن ذلك. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ فجعلنا له هذه اليقظة الروحية والعقلية، وركزنا في عمقه الحساب الداخلي لكلّ قضايا الطاعة والمعصية، وقضايا الخير والشرّ حتى لا يخضع لضعف بشريته، ويخرج من حالة الإنجذاب الشعوري، وليندفع في خطّ إيمانه ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فهو من العباد الذين أخلصوا لله، وإنّ إيمانه وإخلاصه يمثلان برهان ربّه في عقله، لأنّ لله تعالى برهاناً في عقل كلّ مؤمن يقوده إلى أن يبتعد عن المعصية، وإلى أن يتحرّك في الطاعة.

فإذاً هو(ع) من عباد الله المخلصين الذين أراد لهم الله أن يعيشوا العصمة من خلال أنّه استخلصهم لنفسه، فلم ينساقوا وراء معصية.. وإذا حدثت لديهم أيّة أحاسيس ومشاعر معينة في داخلهم، فإنهم يطردون ذلك من خلال تماسك الموقف المنطلق من قوة الإيمان والوعي. وعلى هذا، فليس من مشكلة تتصل بحياة يوسف(ع) على هذا الأساس، لأنّه(ع) بشر يعيش جسده الأحاسيس والمشاعر والغرائز، ولكنّه لا يندفع إليها اندفاعاً عملياً، بل إنّهُ يوقفها عند حدّها حتى لا تخرج عن دور المشاعر الطبيعية.

هروب من الخطيئة وكيد وعدوان

ويزداد الضغط على يوسف أكثر ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وتجري عملية سباق بينها وبينه، هي تريد الوصول إلى الباب لتمنعه من فتحه، وهو يريد الوصول إليه ليهرب مما تدعوه إليه.. وعند الباب، كانت المفاجأة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فالسيد كلمة في عرفهم تُطلق على الزوج الذي فتح الباب وفُوجيء بما رأى. وهنا تسلّمت المبادرة، فهي السيدة في البيت، والأثيرة عند زوجها، وهو(ع) عبد الثّقَط من القافلة واشتري بثمن بخس، لذلك لا يمكن أن يتقبّل سيدها

أيُّ كلامٍ يقوله، فبادرت لتؤكد لزوجها بأنَّ جريمة يوسف جريمة واضحة، ومن الطبيعي أن الذي يعتدي في مثل هذه الأمور هو الرجل وليست المرأة، ومن هنا فإنَّ يوسف في موقع الاتِّهام، و«جريمته» بيَّنة ولا تحتاجُ إلى نقاش أو إثبات، وليس مطلوباً منها أن تقف في مقام الاعتذار أو تبرير موقفها، لأنَّه - وحسب هذا المنطق - هي مَنْ اعتَدِي عليها، ويوسف هو المعتدي. وبادرت للحديث بلباقة وحنكة مع زوجها تُثير فيه حمية الزوج المحافظ على كرامة زوجته: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على هذا، فهي ليست في مورد الاتِّهام لتدافع عن نفسها أو لتوضح موقفها، فهي في موقف المعتدى عليه الذي رأى الفرصة للتخلُّص من عدوان الآخر عليه أمام شخص يملك القوة في أن يعاقب المعتدي على عدوانه. وبكلِّ هدوء وبساطة بادر يوسف (ع) للدفاع عن نفسه ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ هي الجلاد وأنا الضحية، وهي التي استغلت موقعها كونها سيدة البيت، بأن اتهمتني مما لست أنا فيه، فأنا العبدُ الضعيف الذي راودتني عن نفسي، فكانت في موقع المهاجم، وكنت في موقع المدافع.

وكان لا بُدَّ للرجل أن يترَيَّث في الحكم، فواجه الموقف بطريقة هادئة، إمَّا من جهة أنَّهم كانوا يواجهون مثل هذه القضايا ببرودة أعصاب، وإمَّا أنه لا غيره عنده، أو أنه كان حكيماً، أو أنه كان يعرف أن زوجته امرأة سيئة الخُلُق. وبين قولها له: بأنَّه أراد بأهلك سوءاً، وقول يوسف (ع): بأنَّها هي مَنْ بادرت لفعل الحرام معه، كان هناك قول ثالث: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾. وتباينت آراء المفسِّرين حول هذا الشاهد، منهم مَنْ قال بأنَّه كان هناك صبيٌّ في المهد ونطق بالشهادة لصالح يوسف، وبعضهم يقول بأنَّه ابن عمِّ لزوجة العزيز رأى حقيقة ما حدث. ونحن لا يهمنا مَنْ الذي شهد، لكننا نفهم أن هناك شاهداً. والشهادة هنا لا تعني أن أحداً رأى شيئاً وأخبر عنه، بل

الشهادة، شهادة فكرية، بمعنى الحكم على أمر وتحليل لهذا الأمر، وليس بمعنى الإخبار عن واقعٍ رآه. وتُطلق كلمة الشهادة عادةً على الكلام الذي ينطقه إنسان عما رآه، كمن يشهد أن فلاناً عمل كذا، أو أنه يشهد أن هذه الدار اشتراها فلانٌ من فلان. والشهادة في هذا المقام مغايرة لهذا الفهم. فهذا الشاهد من أهلها لا يخبر عما رأى بقدر ما يُحلّل الأمر، حيث يأتي هذا التحليل مُنبأً براءة يوسف.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وخاصة بعد أن مُرِّت قميصه من الخلف، يفيد أن زوجة العزيز هي مَنْ كانت تلاحقه وهو هاربٌ أمامها، فلو كان هو المعتدي لاندفع إليها وجهاً لوجه، ومن الطبيعي أن تدافع عن نفسها وتُمسك بقميصه من الأمام وليس من الخلف. ثم يبرز جلياً الافتراض العلمي ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فإذا تمزّق القميص من الأمام يثبت الجرم على يوسف (ع) وبالتالي يصدق عليه الكذب فيما ادعاه، وتبرأ ساحة المرأة ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإن كان القميص تمزّق من الأمام، فالمسألة معكوسة تماماً، فهي في قفص الإتهام، وهو بريء الساحة. ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ انكشفت الحقيقة وتبين أن يوسف هو المُعتدَى عليه وهي المعتدية. وهنا يبرز موقف العزيز تجاه زوجته ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فبحسب منطق، إن ما جرى هو من حيل بعض النساء ومكرهن باعتبار أن زوجته هي التي رتبت الأمور لتُقدم على فعلتها ولتجذب يوسف إلى نفسها. وعندما انكشف أمرها غرقت بدموعها في محاولة لاستدرا العاطفة، مستعينة بموقعها من زوجها، على أمل تبديل الحكم لصالحها وإصاق التهمة بيوسف.

ومن المفيد أن نتوقف هنا عند الآية ﴿إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وهذا الكلام وإن ورد

في القرآن، فإنه لم يرد عن الله تعالى، بل وَرَدَ على لسان العزيز. والسؤال لماذا هذا الكيد؟ ومتى يحتاج الإنسان إلى الكيد والمكر والحيل؟ إنه يحتاج ذلك عندما يفقد إمكانية المبادرة، ويفقد الوسائل التي توصله إلى غرضه، فيضطر أن يلف ويدور ويلعب على المناطق الخفية باعتبار أنه لا يملك فرصة مواجهة الأمور التي يحتاجها وجهاً لوجه. وليس كيد الرجل عظيماً بطبيعة الحال، لأنه وبحسب إمكانات القوة والظروف المحيطة به، فإنه إذا أراد شيئاً فإنه يبلغه ببساطة.. فلو فرضنا أن الرجل أراد شيئاً من رجل آخر وهو يملك القوة فإنه يصل إلى مبتغاه، أو أراد شيئاً من المرأة وهي أضعف منه، فإنه يبلغ هدفه. أما المرأة، فإنها إذا أرادت شيئاً من الرجل، أو أرادت أن تصل إلى هدفٍ من أهدافها مما لا يحققه لها المجتمع، فإنها لا تستطيع أن تصل إليه، لأن طبيعة ضعفها الجسدي وطبيعة الظروف المحيطة بها تُفسد لها الوصول إلى مبتغاه، لذلك تندفع للوصول إلى أهدافها بواسطة الالتفاف على الواقع من بعيد وهي كالرجل تماماً، كُلُّ يصل إلى أهدافه بوسائله الخاصة. وبعضهم من باب الطرافة يقول إنه يخاف من كيد المرأة أكثر مما يخاف من كيد الشيطان، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء: ٧٦)، بينما الآية الأخرى تقول: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ نحن نعلق هنا ونقول: ليس هذا تقرير الله فيما يختص بالمرأة، بل كان قول العزيز عندما انكشفت الحقيقة. لذلك نحن لا نستطيع اعتبار أن القرآن يُقر هذه الفكرة بأن كيد النساء عظيم، لأن المرأة كالرجل، فكما أن الرجل قد يتوصل إلى مبتغاه بالمكر كذلك المرأة في هذا المجال. على هذا، فليس هذا المفهوم مفهوماً قرآنياً، لأن الإنسان - الرجل والمرأة - واحد، فهو تعالى عندما يقول: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (الطارق: ١٥) فهو لا يتكلم عن النساء بل عن الرجال والنساء جميعاً. فالكيد إذاً هو عبارة عن الأساليب التي يوظفها الإنسان ليصل إلى أهدافه بطرق خفية بحيث لا يلتفت إليها الآخرون إلا بعد فوات

ونعود إلى جوِّ السورة، فالعزير فهم القضية واستوعب معالمها، ولكنه أراد إغلاق ملف هذه القضية، إمّا أنّه ليس دموياً، أو أنّه بلا غيرة كما قلنا سابقاً، فطلب من يوسف(ع) ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ إنسَ الموضوع، ولا تتحدّث به، فهو حالة طارئة، وخطأ عابر من جملة أخطاء، والتفت إلى زوجته قائلاً: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ومعنى هذا إمّا أن تستغفر الله، وإما أن تطلب الغفران من زوجها، وذلك بما يُعتبر الإستغفار وسيلةً من وسائل التعبير عن التوبة.

من ضغط امرأة إلى ضغط نسوة المدينة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ* قَالَتْ فَذَا لِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ* قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٠ - ٣٥).

عناد في خط الخطيئة

ويخرج يوسفُ(ع) بريئاً من تجربة صعبة، ولكن هل ألقت هذه المرأة سلاحها؟ هل كَفَّتْ عن التعرّض ليوسف بعد أن هُزِمَتْ؟ وهنا تنقل لنا الآيات التي سنتوقف عندها، أن القضية التي حدثت داخل قصر العزيز نزلت إلى الشارع وشاعت في المدينة بأسرها، وبدأت النسوة تتحدث عن امرأة العزيز بشيء من الشماتة، فأُحْرِجَتْ وأرادت أن تبرئ نفسها. فماذا فعلت، وما كان موقف يوسف في كُلِّ ذلك؟

تحدثنا عن التجربة الصعبة التي عاشها يوسف(ع) في بيت العزيز وعرفنا كيف استطاع أن يتمرّد على كُلِّ عناصر الإغراء الداخلية والخارجية من خلال عصمته وانفتاحه على الله. الأمر الذي جعله يستنفر كُلَّ طاقاته للوقوف أمام هذا التحدي الذي كان أوّل تحدٍّ أخلاقي يواجهه في حياته.

وما حدث شاع بين الناس، لأن قضية كهذه لم تبقَ في نطاق الخفاء، فالجو الذي ينقله القرآن لنا من استباقهما الباب، وانفتاح الباب الذي كان يهْمُ بالدخول عبره عزيز مصر، ووجود الشاهد الذي هو من أهلها، جعل المسألة تدخل إلى المجتمع ويتحدّث بها علانية. وربما كانت طريقة معاملة هذه المرأة ليوسف والتي اتسمت بالقوة سبباً في ذلك. وبدأ الناس وخصوصاً النسوة الحديث عن ذلك لا سيما وأن هذا الأمر يتعلق بامرأة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تعمل على أن تجتذب فتاها لتعيش معه بشكل منحرف ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قد دخل الحب إلى شغاف قلبها، بحيث احترق هذا الحب غشاء قلبها فدخل إلى الأعماق ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هي المرأة الشريفة الوجيّه المتقدّمة في المجتمع، كيف تعشق شاباً كنعانياً هو في موقع العبودية لها؟ وربما كُنَّ يتحدثن عن ضلالها من خلال أنه

يمثل لوناً من ألوان الإنحراف الأخلاقي. ووصل الحديث إلى أسماع زوجة العزيز ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ والمكر هو عبارة عن الوسيلة الخفية للإيقاع بمن يُوجّه إليه المكر، وكان مكرهنّ من خلال الأحاديث التي يتهاوسن بها من أجل تحطيم سمعتها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ بدعوة اجتماعية إلى القصر ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكًا﴾ هيأت لهنّ فراشاً وثيراً يتكنن عليه، ليكنّ في الوضع الإسترخائي الذي يستسلم فيه الإنسان لأجواء الراحة والدعة، حتى إذا برزت الصدمة التي تُخرجه من هذه الحالة والأجواء، كانت صدمة تهزم كلّ واقعه ووضعه الذي هو عليه. وبعض المفسرين رأى أن المتكأ الذي أعدته لهن كناية عن الطعام والفاكهة، باعتبار أن المترفين كانوا يأكلون وهم متكئون، فاستُعيرت كلمة المتكأ للطعام ﴿وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتقطيع الطعام أو الفاكهة ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ﴾ ولا بدّ له إلا أن يخرج، فهو في موقع العبد المأمور الذي عليه أن يطيع سيده، طبعاً هو لم يُطعها في ما حرّم الله، ولكن في الأمور العادية، حيث لا يجد مشكلة في ذلك، لأنّه ليست هناك أية أوامر أو نواهٍ من الله في ذلك. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ في جماله وحسنه ولم يكن قد رأينه من قبل في مجتمعاتهنّ، لأنّه ليس من عادة العبيد الدخول إلى المجتمعات الغنية والمترفة. ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ اكبرن جماله وحسنه، ومن شدة الدهشة بهذا الحسن وهذا الجمال في الهيئة ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحن أيديهن بدلاً من تقطيع الفاكهة، وأخرجهنّ هذا الذهول من حالة الإسترخاء بشكلٍ قويٍّ جداً، فلم ينتبهن إلا وكلّ واحدةٍ منهنّ تجرح يدها. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّه يُقال: قطع يده، أي جرح يده. ﴿وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ﴾ تنزّه الله عن كلّ شيء يتشبه به خلقه ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لقد شاهدن كثيراً من البشر فيما يتمتعون به من جمال، ولم يجدن في أيّ إنسان جمالاً كهذا الجمال الملائكي ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فالمواصفات الجمالية الملائكية تنطبق عليه تماماً.

وهنا وجدت امرأة العزيز الفرصة سانحة للهجوم عليهن وتقريرهن ﴿قَالَتْ
 فَذَا الْكُنُ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ﴾ لقد تحدثتُ عني بالسوء واعتبرتُن أنني في ضلالٍ مبين
 لأنني ملّت وانجذبت إليه وهو يعيش معي ليلاً ونهاراً، وأنتن لم تستطعن أن تتماسكن
 من انجذابكن إليه بأول نظرة فكيف يمكن أن يقع اللوم عليّ في ذلك كله؟ ﴿وَلَقَدْ
 رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أقرتُ بالحقيقة، وأوضحت أنه رفض طلبها
 بممارسة الحرام معها. فيوسف (ع) استعصم، طلب العصمة الأخلاقية والإلهية.
 ولكن هذه المرأة استمرت في محاولتها ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِيُسْجَنَ
 وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ لقد تركته بعيداً عن السجن والعقاب، لعلّه يرعوي
 ويقتنع ويطيع ويقبل ما طلبته منه، ولكن إذا بقي على إصراره فسيُسجن وسيكون
 من الصّاعرين الذين يقفون موقف الذلّ والضعة. ﴿قَالَ رَبَّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا
 يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وهنا يبدو أن النسوة بدان بالعمل على إقناعه لمطاوعتها وتنفيذ ما
 تريد، أو أنها سلّطت عليه هؤلاء النسوة لتدعوه كلّ واحدةٍ إلى نفسها حتى تخرج هي
 من هذا الإتهام، ولتكون كلّ النساء متّهمات، فلا أحد يقدر أن يتكلّم عنها. وإنهنّ
 بذلك يحاولن أن يعيش يوسف حالة الإغراء، حيث كان - كما قلنا في مستهل هذه
 الأبحاث - بمواجهة امرأة واحدة فصار بمواجهة مجموعة نساءٍ من عليّة القوم. وهنا
 تظهر أخلاقيته (ع). وهذا ما يحتاجه كثيرٌ من الشباب للاقتداء به في حياته، وهم إن
 لم يعيشوا هذه التجربة من خلال طبيعتها، لكنهم يعيشون أجواء هذه التجربة عندما
 يعيشون في المجتمع اللاأخلاقي، حيث تنطلق فيه الرذيلة حرّة بلا قيود، وتُقدّم فيه
 الخطيئة على طبق من ذهب.

لجوء إلى الله خلاصاً من المحنة

فَإِذَا ﴿قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لأنني عندما أنظر إلى دعوتهن فإنني أرى غضبك وسخطك، وأنتي سافقد سلام روحي فيما لو لبَّيتُ ما يُردن، وإنَّ السِّجْنَ وما يستتبع من ذلٍّ وصغارٍ أمامك يا رب، أحبُّ إليَّ من العزِّ مع سواك. وهو في هذا الجوِّ من المناجاة، هذه تُمسكه، وتلك تُقنعه، وأخرى تجذبه، ازداد توسُّله بالله أكثر، في حالة استغراق معه سبحانه واستجارة به وهروب إليه. وكأنه (ع) فيما نستوحيه من هذه الآية يخاطب ربُّه بالقول: لقد استنفدتُ يا ربُّ كُلَّ طاقات الإيمان والتقوى، وكُلَّ حالات الانضباط والثبات، ولم يبق بيدي أية حيلة، والإغراء يشتدَّ ويستعر من كُلِّ جانب، وأنا بشرٌ ولي طاقةٌ محدودة، فإذا تركتني بما أنا فيه ولم تجعل لي مخرجاً من هذا المأزق الذي تضغط عليَّ فيه الشهوات من كُلِّ جانب مما لا قبلَ لي فيه ﴿وَالَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ بأن تُخرجني من هذا الجوِّ بما يحمل من مأزق وضغط ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أميل إليهنَّ كأيَّ شابٍ تضيع منه طاقاته في العِفَّة والطهارة والثبات ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين في خط الجهل، وبالطبع فإنه (ع) ليس جاهلاً، ولكن مَنْ يفعل على خلاف علمه فهو مثلاً الجاهل، وربما يُفسَّر الجاهل بالسفيه الذي يتحرَّك مع شهوته، وهو يعرف أنَّ نتائجهما إلى الخسارة والنار، وقد تطلق كلمة الجهالة على السفيه لأنَّ السفيه يتصرَّف كما لو كان جاهلاً لأنَّه لا يراقب العواقب ولا النتائج.

وما تعرَّض له يوسف (ع) يعطينا فكرة مُفادها أنَّ الإنسان عندما يعيش في مجتمع تحاصره فيه ضغوط الشهوات وعناصر الانحرافات بحيث يجد نفسه في وضع لا يملك فيه إلا أن يعصي الله، فإنَّ عليه أن يعمل للبحث عن أيِّ مخرج، فلو فرضنا أنَّ إنساناً كانت مناطق الحرام والشهوات مفتوحةً أمامه فيما لو كان يعيش

في أوروبا أو أميركا أو أي مكان، أو في أي عمل من الأعمال التي إذا طوّقته فيها ضغوط الانحراف، فإن عليه أن يلجأ إلى ربه، وأن يهرب من ذلك، لأنه مهما كانت قيمة الربح كبيرة، فإن ربحه هذا لا يوازي خسارة نفسه ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥)، لذلك قد تكون مشكلة كثير من شبابنا المؤمن الذين هاجروا وانحرفوا وضلوا وسقطوا في التجارب الصعبة أنهم استغرقوا في حاجات الدنيا ولم يفتحوا على حاجات الآخرة، فكروا في مشتهياتهم ولم يفكروا بربهم، فكروا بمن حولهم واستغرقوا فيما أوقعوهم فيه.

ويوسف(ع) مدرسة، هو شاب يقدمه الله نموذجا للإنسان المستعصي والصامد في وجه الشهوات والمغريات، لذلك نحن نريد أن يتربى شبابنا وبناتنا من خلال ما توجيهه سورة يوسف، وذلك خلافاً لما جاء في بعض الروايات التي دققنا فيها ووجدنا أنها غير صحيحة السند، والتي تفيد أنه لا تعلموا النساء سورة يوسف فإن فيها فتنة. هذا منطق غير مقبول لأن الله تعالى يجعل الرجل مثلاً للرجل والمرأة، كما يجعل المرأة مثلاً للرجل والمرأة وذلك في السلبيات والإيجابيات لأخذ العبرة والعظة. فالله سبحانه قدّم لنا يوسف في موقع الإنسان الذي توفرت له عناصر الانحراف، وقُدّمت إليه الخطيئة على طبق من ذهب، وهُدّد بالسجن إذا لم يستجيب لذلك، فاستعاذ بالله ورأى برهان ربه، وواجه الأمور المعقدة مواجهة أخلاقية روحية وبذلك صار مثلاً للرجال والنساء على حدّ سواء، فانطلاقاً من أخلاقه وإيمانه يمكن له(ع) أن يكون مثلاً للمرأة الجميلة التي تضغط عليها عوامل الانحراف، ويمكن أن يكون مثلاً للرجل الجميل الذي تطوّقه أسباب الضلال. لهذا نقول: إن سورة يوسف مثلاً لقوة ملكة العفة في الإنسان المؤمن.

ولأنه عاش هذه الصفات ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أعطاه قوة مضاعفة بحيث أن كيدهن ووسائلهن وأساليبهن لم تؤثر فيه ولم ترمه في دائرة الانحراف ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي سمع استغاثة يوسف وعلم ما يختزنه قلبه من إخلاص له سبحانه، وما يترجمه موقفه من قوة في الإيمان وقرب منه سبحانه ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ والظاهر أنه مر وقت قبل أن يسجن (ع)، حيث صرف تعالى عنه كيدهن لا بالوسائل الخارجية، ولكن من خلال عجزهن عن إقناعه بعد أن زوده الله بقوة تولدت من خلال القوة التي ربحها في الموقف مع الطاف الله عليه، فشعرن أن التجربة تجربة خاسرة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ آيات قوته وصلابته ومناعته الأخلاقية ورفضه لكل ما يدعى إليه ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينَ﴾ لعله يتأدب في السجن ويقبل وينفذ ما يطلب منه.. ودخل (ع) السجن، وهنا كانت تجربته الجديدة.

استشراقه للمستقبل

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا
نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ* قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ
أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ
لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ* يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَأَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي
رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ* وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢-٣٦).

الخيار الأصعب

وفصلٌ جديدٌ من حياة يوسف (ع) يبرز على مسرح الوجود، لطالما تمنى فيه - هروباً من السقوط في الخطيئة - أن يدخل السجن تخلصاً من كل الضغوط والإغراءات.

وتجربة يوسف عاشها كثيرون من المجاهدين، وذلك فيما خُيروا بين أن ينحرفوا أو يدخلوا السجن، فكان السجن خيارهم. كم من مجاهد جاءه ظالم ليُغريه وليُخيره بين الخضوع للإغراء وبين السجن، فكان السجن أحب إليه. ونحن نعرف شخصياً كثيراً من المؤمنين في العالم الإسلامي كان يدور أمرهم بين أن يستسلموا للظالم ليرتفعوا إلى مستوى يقرب من منصب الوزارة، وبين أن يدخلوا السجن ويتعرضوا للإعدام، ففضلوا السجن والإعدام على ذلك. أحببت أن أذكر هذه النقطة لأن الكثيرين يتحدثون عن المؤمنين في بلدٍ إسلاميٍّ معينٍ بطريقةٍ سلبيةٍ، هؤلاء المؤمنون الذين نعرف الكثيرين منهم من أساتذة الجامعات وطالبيها، ومن العلماء والمثقفين والكتّاب، ومن النساء المؤمنات المثقفات كان النظام يُغريهم بتقديم الإمتيازات ليتنازلوا عن مبادئهم وإيمانهم وبين أن يُسجنوا ويُعذبوا ويُعدموا، فكانوا على الدوام يفضلون ما يحفظ لهم دينهم.

قراءتنا ليوسف موجودة في قراءتنا للواقع، وعلى المؤمنين أن يفتحوا على التحديات التي تواجههم، لأنهم يقودون تيار المعارضة والمواجهة للظلم والكفر والاستكبار، لذلك لا بدّ لهم أن يمرّنوا عضلاتهم الأخلاقية والروحية، وليس فقط الجسدية، لأنهم عندما يُقيّدون ما قيمة العضلات الجسدية، فهم يحتاجون إلى أن تقوى عضلات وعيهم واراوتهم وأخلاقيتهم.

ونعود إلى يوسف وهو في السجن. ومن الطبيعي أن من يدخل السجن، يتحسّر على أهله وحريته ولذائذه ومشاربه وملاعبه، ولم يعتز يوسف أيّ من هذه الحالات

النفسيّة في التّأوّه والتّحسّر، بل كان (ع) يشعر أنّ السّجن فرصةٌ يتفرّغ فيها للدّعوة إلى الله.

مَجَالَاتِ الدَّعْوَةِ

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فْتَيَّانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ إِنِّي أَعْصِرُ عِنْبًا لِيَتَحَوَّلَ إِلَى خَمْرٍ - وتسمية العنب بالخمر مجازيّة - ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا﴾ بِتَأْوِيلِهِ ﴿طَلَبَا مِنْهُ (ع) تَفْسِيرَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَأَيَا فِيهِ صَدَقَ الْحَدِيثَ وَالْمَعْيَةَ الْفَكْرَ وَنِبَاهَةَ الْحَسِّ، لِذَلِكَ قَالَا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ نَرَاكَ إِنْسَانًا طَيِّبًا، مُحْسِنًا فِي اخْلَاقِكَ وَعِلْمِكَ وَطَرِيقَتِكَ فِي الْحَدِيثِ.

وهنا أراد (ع) أَنْ يُعْطِيَهُمَا الثِّقَةَ مِنْ نَفْسِهِ لِيَجْذِبَهُمَا إِلَى خَطِّ الْإِيمَانِ، لَا عَلَى طَرِيقَةِ مَنْ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ صَاحِبُ الْعِلْمِ الْغَزِيرِ لِيُضَخِّمْ شَخْصِيَّتَهُ تَجَاهِ الْآخِرِ لِيَزْدَادَ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَتَنَفَّخَ ذَاتَهُ لَدَيْهِ. بَلْ إِنَّهُ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْإِنْسَانُ مَعَ النَّاسِ بِمَا يَمْلِكُ مِنْ طَاقَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَذَهْنِيَّةٍ، لَا مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَزْهَوْ أَوْ يَخْتَالَ وَيَتَكَبَّرَ، وَلَكِنْ لِيَتْرَكَ فِي نَفْسِهِمْ نَوْعًا مِنَ التَّأَثِيرِ النَّفْسِيِّ حَتَّى يَثْقُوا بِهِ، فَإِذَا وَثِقُوا بِقُدْرَاتِهِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ أَمَكْنَهُمُ الْإِسْتِمَاعَ إِلَيْهِ وَالْوَثُوقَ بِمَا يَقُولُ. وَلِذَا فَإِنَّ يُوسُفَ (ع) عَمِلَ عَلَى أَنْ يَتْرَكَ تَأَثِيرًا نَفْسِيًّا عَلَيْهِمَا لِلْإِيحَاءِ إِلَيْهِمَا بِأَنَّهُ يَمْلِكُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْبِرَهُمَا عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأُمُورِ الَّتِي تَحْدُثُ لَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَبْلَ حُصُولِهَا، إِمَّا مِنْ خِلَالِ مَا يَسْتَشْرَفُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَوْ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَتِهِ بِتَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ وَالْأَطْيَافِ.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ وَهَذَا لَيْسَ مُنْطَلَقًا مِنْ إِمْكَانَاتِي الذَّاتِيَّةِ بَلْ هُوَ مُنْطَلَقٌ مِمَّا أَلْهَمَنِي اللَّهُ مَعْرِفَتَهُ. وَنَلَاظُ هُنَا أَنَّهُ (ع) أَرَادَ أَنْ يَرْبِطَهُمَا بِاللَّهِ مِنْ خِلَالِ الْإِيحَاءِ إِلَيْهِمَا بِأَنْ كُلُّ مَا سَيَسْمَعَانِهِ مِنْهُ مِنْ

علم، فهو من عند الله ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ثم إنه (ع) أراد أن يبين لهما أن ما أعطاه الله من معرفة وعلم بالأمور كان بسبب ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تمردت على مجتمعي الكافر المشرك الذي يتحرك في خط عبادة الأصنام وفي خط الضلال والانحراف، وقاومت كل ذلك، فأعطاني الله القوة رغم ضعفي ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ أراد تبيان موقعه في خط النبوات، وذلك في الحديث عن آبائه من الأنبياء ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليس من حقنا ذلك، لأن طبيعة الحقائق تمنعنا، وطبيعة نعم الله علينا وإدراكنا لمقام ربنا وموقعنا منه سبحانه يجعلنا لا نشرك به، فنحن ارتبطنا بالحقيقة، لذلك ارتبطنا بالله من خلال عظمتة ونعمته، والتزمنا الخط القويم من خلال ما نرى أنه يؤدي إلى السلام ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ ليس من حقنا ذلك، وليس من خلقية ما نملكه من معرفة بالله ذلك ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ الله تفضل علينا ففتح لنا طريق الهدى، وهذا الهدى الذي نتحرك فيه، والإيمان الذي نفتح عليه هو من فضل الله علينا.

من هذه النقطة نستوحي ضرورة أن يشعر الإنسان بفضل الله عليه في نعمة الإيمان والهدى والتقوى، كما يشعر بنعمة الصحة والأمن وما إلى ذلك، ولذلك نرد في الدعاء من خلال القرآن: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣) نحمده على الهداية كما نحمده على كل ما أنعم به علينا. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ حيث فتح لهم أبواب الهدى ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون ربهم شكر الطاعة والمعرفة وشكر الإنفتاح على كل نعمة.

نعمة التوحيد

ثم أخذ يحدثهم عن طبيعة التوحيد والشرك ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ الْأَرَبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فأنتم ومن تتبعون تعبدون هذا الصنم وذلك، فأنتم تتفرقون فيما تزعمونه أرباباً لكم، وهؤلاء الأرباب لا قيمة لهم، وحيال ذلك لا تملكون وحدتكم، لأنه إذا كان لكل واحد منكم رب يعبده يختلف عن الرب الآخر، فإين هو عمق الوحدة في حياتكم وفي مجتمعكم، فالمجتمع يتوحد برب واحد، واحد في قدرته وقاهرته. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ سميتم هذا رباً وذاك رباً، وهم لا يحملون من عنصر الربوبية شيئاً، ولا يحملون من عناصر القدرة أي شيء، لأنهم مخلوقون كما أنتم مخلوقون، فأنتم تخلقون هذه الأصنام لأنكم أنتم الذين صنعتُموها من تراب وحجر وما إلى ذلك ﴿مَا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وهذه الأصنام لا تملك أي حكم، لأن الله هو الذي يملك الملك كله والقدرة كلها والأمر كله، وإذا كان الحكم لله فعليكم أن تخضعوا لأمره لأنه هو الذي خلقكم، وقد ﴿أَمَرَ الْأَنْتَعِبُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أمركم أن توحدوه في العبادة وألا تشركوا به شيئاً ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ودين الله هو الدين القائم على ما يصلحكم وعلى ما يفتح بكم على كل خير في الدنيا والآخرة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فغشاوة الجهل والتخلف والعصبية قد سيطرت على قلوبهم وعقولهم وحياتهم.

وهنا انتهت المحاضرة الفكرية والإيمانية التي ألقاها عليهما، وبدأ (ع) يفسر لهما الحلم الذي رآه كل واحد منهما. ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ فتأويل حلم الذي رأى أنه يعصر العنب ويحوّله إلى خمر، أنه سيصير ساقى الملك ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فمن رأى في منامه أن

الخبز فوق رأسه والطيور تأكلُ منه، فدلالة ذلك أن الخبز هو دماغه وأنه سيموت وستأكلُ الطيور من رأسه بعد أن يموت ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فالأمرُ بيد الله، وهذا تأويل ما رأيتما في منامكما ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وطلب ممن سيصبح ساقياً للملك ونديماً له يشرب الخمر معه أن يذكر للملك مظلوميته ليخرجه من السَّجْنِ، ولكنه نسيَ ذلك بعد أن خرج وتحققت الرؤية، وعاش يوسف في ذاكرة النسيان، فبقي في السجن يعاني الظلمة فيه بضِعاً من سنين.

من الحكم المفزع إلى الاستبشار بالمستقبل

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ* قَالُوا اضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ* وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ* يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ* قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَائِبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ* وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ﴾ (٤٣- ٥٠).

العمل في كُلِّ السَّاحَات

وهكذا يستغلُّ يوسف(ع) وجوده في السجن من أجل الدعوة إلى الله. وهذا السجن قد يدخله المؤمنون والضائعون، وقد يُرْمَى في ظلمته الأشخاص الذين ضغطت عليهم الحياة فانحرفت بهم عن الخط المستقيم، وقد يدخله المظلومون. وفي السجن يملك الإنسان الكثير من الوقت الذي يمكن أن يستفيد منه للتأمل والتفكير، لأن كثيراً مما يُشغِل الإنسان في الحياة من أعمال وعلاقات وشهوات وأوضاع متنوعة، مما لا يملك في السجن مثلها، فالسجن فراغٌ ووحدانية وإحباط، وقد يقوده كُلُّ ذلك للعمل على أن يتلمَّس الأمل في حياته. لهذا، قد يكون السجن فرصةً للصفاء والنقاء والتأمل والرجوع إلى الله، فكم من سجين دخل السجن مجرمًا، فهيأ له مَنْ أخذ بيده ودخل إلى أعماق نفسه فاهتدى بذلك، وكم من سجين دخل السجن ضعيفًا، فخرج منه وهو يملك قوة الإيمان والموقف؟ وهذا ما لاحظناه في العالم كُلِّه أن كثيراً من الإتجاهات المعارضة والثورية، كان بعض أفرادها يتخذون من السجن ساحةً للدعوة إلى ما يؤمنون به، وفرصةً لكسب الأفراد إلى أحزابهم وحركاتهم واتجاهاتهم. ونحن نعرف كثيراً من المؤمنين المجاهدين حوَّلوا السجن إلى ما يُشبه المسجد والمدرسة من خلال نشاطهم فاستمالوا كثيراً من السجناء إلى خطِّ الإيمان، حتى أن بعضاً منهم كان يعمل على هداية مَنْ أوكل إليهم التحقيق معهم أو تعذيبهم، وقد كان يوسف(ع) من هذه الفئة الهادية المفتحة على الله والمسؤولية بحيث لا ترى فرقاً بين ساحةٍ مفتوحة لممارسة المسؤولية وبين ساحةٍ مغلقة، لأن الإنسان الداعية هو الذي يحرك الساحة، بعكس البعض الذي إذا وجد ساحةً مفتوحة رخيئة لا مشاكل فيها اندفع إلى العمل، وإذا رأى ساحةً مغلقةً ضاغطة اعتبر ذلك مبرراً للابتعاد عن العمل، وهذا خطأ، لأن الإنسان المجاهد في سبيل الله هو الذي يحرك الساحة ولا ينتظر أن تحركه الساحة، هو الذي يجعل من الساحة المعقَّدة ساحةً مفتوحة للعمل.

وبعضنا، وفي مجال التبرير للإسترخاء وعدم التصدي، وللإبتعاد عن مسؤولية الدعوة يدعي بأن الناس في هذا البلد أو تلك المنطقة غير مستعدين لأن يستمعوا لدعوة الحق أو القبول بها، ويجعل من الفشل حافزاً للإتكفاء والإبتعاد عن جو المسؤولية. هذا منطقٌ انهزامي، لأننا إذا أضعنا مفتاح الباب، فإننا نأتي بمجموعة من المفاتيح، فإذا لم يفتح المفتاح الأول نجرب الثاني والثالث، وإذا لم تفتح كل هذه المفاتيح نكسر الباب، لأنه من غير المنطقي أن نظل واقفين أمام الباب نندب حظنا. لهذا، على الإنسان أن يحاول دائماً، وألاً يعتبر فشله في تجربة ما مجالاً لأن ينهزم ويتراجع، والباعث لنا على ذلك هو أن قضية الدعوة إلى الله والعمل في سبيل الإصلاح والتغيير، مسؤوليتنا، لذلك علينا توظيف كل طاقاتنا في هذا السبيل، فإذا نجحنا فالحمد لله، وإذا فشلنا فإن الله يرانا وقد أعذرنا إليه عندما صرفنا كل جهدنا في سبيله.

فالدعاة موظفون عند الله، والرسالي موظف وعنده مهمة، عليه متابعة مهمته حتى النهاية، تماماً كقضية نوح(ع): ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤)، ثم بعد أن وصل(ع) إلى الطريق المسدود دعا ربه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦ - ٢٧). دائماً عندما نعمل لله تعالى علينا ألا نعتبر أن هناك طريقاً مسدوداً، ما دمنا نملك إمكانية فتح هذا الطريق أو ذاك. أما عندما تغلق كل الطرق في وجوهنا بعد استفاد كل الوسائل عندها نقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

وهكذا عاش يوسف(ع) هذه التجربة في السجن واستفاد من ثقافته التي ألهمه الله إياها في تفسير الأحلام في النفاذ إلى قلوب الذين عاشوا في السجن، ومن

الممكن أن يكون السجن حينها فارغاً إلا من هذين الشخصين، فاستثمر وجودهما من أجل التبليغ، حيث رآهما مشركين بالله ويعبدان غيره تعالى.

فرصة الخروج من الأزمة

ونعود من جديد إلى أجواء السورة، فيوسف ما زال في السجن، وممرت فترة طويلة على وجوده فيها. في هذه الأثناء استفاق الملك من النوم مرعوباً على إثر رؤيته مناماً لا عهد له به ولا يملك تفسيره ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ سبع بقرات يملكن الكثير من الشحم واللحم، جاءت سبع بقرات عجاف مهزولات ليس عليهن إلا الجلد، هجمت على السبع السمان وأكلتهن، بمعنى قضين عليهن، وهذا أمرٌ يدعو للغرابة، لأنَّ العادة تقضي أن تاكل القويَّة الضعيفة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ ما هو تفسيركم لهذه الرؤية، أعطوني الرأي والتفسير لما رأيت ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم تعرفون مضمون الرؤيا وشرحها وفهمها وأبعادها وخلفياتها. فكان ردُّهم: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهي الحزمة من العشب والعيدان الموضوعة بشكل غير متناسق، فهذه أوهامٌ وأباطيلٌ لكثيرٍ مما يراه النائم في منامه، وليس من الضروري أن يكون كُلُّ منامٍ صادقاً. فهم أنكروا فكرة منامه لأنهم لم يفهموها، وهنا من باب الطرافة نقول: بأنَّ موقفهم مشابه لما يروى مثلاً، بأنَّ الثعلب حاول الصعود ليأكل من شجرة العنب، فلم يفلح، وعندما سُئل عن ذلك قال، هذا حصرم رأيته في حلب.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ليس لنا اختصاصٌ في ذلك. وهنا تذكر من صار نديماً للملك أنَّه التقى بشخصٍ في السجن يفسر الأحلام، وأنَّ تفسيره لحلمه وحلم صاحبه الذي أكلت الطير دماغه قد تحقَّق، وإنَّ تفسيره للأحلام منطلقٌ

من ثقافة واعية وليس من حالة مزاجية، ولذا تحقق ما كان فسره. ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أدكر أصلها استذكر، بعد أمة، أي بعد مدة، فإذا تذكر ساقى الملك يوسف بعد هذه المدة الطويلة على خروجه من السجن أن فيه من يفسر الأحلام ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ دعوني أخرج لأن هناك شخصاً استطاع أن أسأله فيعطيني الخبر الصادق عن هذا المنام. طبعاً القرآن هنا يختصر فلا يعرض لتفاصيل ذهابه وكيف سمحوا له، وكيف فُتِحَ باب السجن، لأن طريقة القرآن في القصة التركيز على المفصل الأساسية فيها. وليس على طريقتنا في سرد الحكايا، القرآن اختصر كل هذا، وكان النداء ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ﴾ نفهم من هذا النداء، أن هذا الرجل وبعد استذكاره ليوسف (ع) قد تربت عظمته في نفسه، لأنه استعاد في نفسه وعظه وإرشاده وصدقه وموقف الحق في موقفه من خلال ما كان يوسف قد ألقاه على سمعه وسمع زميله. ولهذا لم يكن ينظر إليه كسجين عادي، فلو كان كذلك لما ناداه ﴿أَيُّهَا الصَّدِيقُ﴾ فنداؤه له على هذا الشكل يدل على أنه يحمل التعظيم في نفسه ليوسف، وأنه الذي يصدع بالحق، حيث تحول صدقه في كلامه وإيمانه، وصدقه في موقفه إلى المستوى الذي يمكن أن يقال فيه الصديق.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ من الممكن أنه لم يقل له إن الملك رأى المنام، بل يريد هو أن يأخذ الفكرة وينقلها للملك كما لو كان هو الذي يفسر المنام ﴿يَاكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هناك مشكلة تسيطر على البلد كله، والناس جميعاً يخطبون فيها خبط عشواء، والحيرة تتحكم بالجميع، وهم يخافون من رؤية أحلام من هذا النوع التي قد تحمل نتائج تنعكس على مصيرهم، لذلك نريد أن ترتاح المدينة وينقطع الجدل واللغو حول هذا المنام ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ فهو (ع) يدل أن

يفسّر له وجه الحلّ ليعرف التفسير من خلال الحلّ قال ﴿تَزْرَعُونَ﴾ كأنه قال: ازرعوا، إبدأوا من الآن في زراعة القمح ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّاً﴾ بشكلٍ متواصل لا ينقطع ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ عندما تحصدون السنابل دعوا القمح في السنابل ولا تحوّلوه إلى حنطة. وهنا يُقال بأنّ القمح إذا بقي في سنبله فإنّ الفساد لا يسرع إليه، بينما إذا أُخرج من سنبله فمن الممكن أن يتلفه السوس. ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فأخرجوا منه مقدار حاجتكم فقط، وسيصير الفائض كبيراً بعد أن تزرعوا الأرض كلّها ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ستأتي سبعٌ من السنين جدباء، لا تُنبت الأرض فيها عشبةٌ خضراء ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ ستأتي هذه السنين السبع، فيلجأ الناس إلى ما اختزنوه من القمح فيأكلون ويأكلون فلا يبقى منه شيء ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ مما كنتم قد انّخرتموه لمثل هذه السنوات ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ وبعد ذلك يأتي الفرّج، ويحمل هذا العام ما فيه خيرٌ للنّاس من أعناب وفواكه وما إلى ذلك.

طبعاً القرآن لم يحك لنا تفاصيل عن كيفية إخبار الملك بتفسير ذلك، وما هي ردّة فعل النّاس، ولكن عرف الملك أنّ هناك شخصاً في السجن سألّه نديمه عن معنى هذا الحلم، فأدرك بوعيه أنّ هذا السجين مما تحتاجه الملوك لتستشيريه وليخطّط لها ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ فاستدعي يوسف لمقابلة الملك، وهنا يبدأ فصل جديد في حياة هذا النبيّ الكريم.

ويظهر الحق جلياً

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ الَّتِي قَطَّعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ* قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ* وَمَا أَبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ* وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(٥٠ - ٥٧).

براءة لا عفو

وَيُعْجَبُ الْمَلِكُ بِتَفْسِيرِ يَوْسُفَ لِمَنَامِهِ، لِأَنَّهُ أَبْعَدَ عَنْهُ الْقَلْقُ عِنْدَمَا أزال غَمُوضَهُ، وبذلك انفتح له بابٌ واسعٌ من خلال هذا التفسير للمنام في معرفة المستقبل الذي سيُقبل عليه.. وطلب الملك أن يأتيه بيوسف (ع) من السجن ليتخذه لنفسه. ويُبْلَغُ (ع) بالقرار، ولكنه يرفض الخروج من السجن على أساس عفو الملك، لأنَّ الذين يخرجون بقرار العفو هم المجرمون الذين يستحقون السجن ويبقون فيه لولا أن يأتيهم العفو. لذلك أراد أن يخرج بريئاً ليثبت أن حَجَرَ حريته لم يكن عن خطأ ارتكبه أو جريمة قام بها، وإنما كان سجنه ناشئاً عن ظلم وقع عليه، فأراد أن يخرج من السجن بصورة مشرقة تعيد له اعتباره في المجتمع. لذلك عندما جاءه الرسول يستقدمه إلى الملك أعلن له شروط خروجه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ لقد سبق دخولي السجن مؤتمر نسائي عُقد برعاية زوجة العزيز وهُنَّ من الطبقة الراقية، وقد قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بدلاً من أن يقطعن الفاكهة عندما دخلتُ عليهن، وربما أثرنَ حولي الكثير من الشبهات، وإني أريد أن يسأل ربُّك - أي سيدك - هؤلاء النسوة عن الموضوع ليفسرن تصرفهنَّ حول قضيتي، هل هي مسألة انحراف اخلاقي بدر مني أم أنها مسألة ضغط مارسنه عليَّ للوقوع في الإنحراف ليشوهنَّ صورتني أمام المجتمع، وإذا كان النَّاسُ لا يعرفون خفايا الأمور، فإنَّ الله تعالى يعرفها، ويعرف أن ما قمن به كان كيداً منهنَّ.

وأرسل الملك إلى النسوة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وكانت بينهنَّ امرأة العزيز، وطرح سؤاله، لماذا فعلتن ذلك، وهل خضع لإغرائكن وانساق وراء الشهوة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ﴾ أن يكون يوسف منحرفاً أو مخطئاً ﴿مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿﴾ لقد واجه الموقف أمام إغراءاتنا ومراودتنا له بكل قوة وعفة وتقوى. وكأنهنَّ أشرنَّ إلى امرأة العزيز باتهام يفيد بأنها أساس المشكلة، وهي التي راودته وضغطت عليه وسجنته، فلمعرفة حاله وشأنه لا بد أن تُسأل هي عن المسألة من بدايتها، فكانت ردة فعلها أن **﴿قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾** كانت القضايا غامضة، كنت أسترها تارة، وأثير الأجواء حوله بضغوطٍ أخرى، والآن بعد أن وصلت القضية إلى هذا الحد فقد تبين الحق وظهر **﴿أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾** لم تنطلق المراودة منه، أنا مَنْ فعلت ذلك، وأثرت الشك في نفس زوجي تجاهه وأطلقت عليه تهمة هو بريء منها **﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** في إعلان براءته وابتعاده عن الشبهات **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾** هناك بعض المفسرين ومنهم صاحب تفسير الكشف، وصاحب تفسير الميزان، وصاحب مجمع البيان وآخرون يذكرون أن هذا كلام يوسف (ع)، لأنه أراد أن يعلن براءته للرجل الذي اشتراه وأحسن مثواه وكفله في بيته حذراً من أن يكون قد بقي شيء من الشك حوله، لا سيما بعد أن تطورت الأمور في المجتمع النسائي وألصقت التهمة به، فأعلن (ع) أنه يطلب البراءة على رؤوس الأشهاد من خلال اعتراف النسوة واعتراف امرأة العزيز من أجل أن يعلم العزيز الذي أحسن مثواه أنه لم يخنه في أهله بالغيب **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** وهنا يرى هؤلاء المفسرون أيضاً أن هذا كلام يوسف (ع)، فلست أنا الخائن، بل زوجة العزيز، وأن الله لا يهديها في كيدها، لذلك فإن الله سيظهر خطيئتها ويعلن براءتي لأنه سبحانه لا يهدي كيد الخائنين مهما امتدوا في خيانتهم **﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾** وعندما أطرح براءتي فليس معناه أنني لا أخطئ - طبعاً هذا كلام المفسرين - لأنني في داخل كلِّ منَّا نفساً أماره بالسوء تدفعه إلى الانحراف من خلال الغرائز **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** إلا النفس التي يوفق صاحبها لمجاهدتها، وللضغط عليها حتى لا تنحرف ولتبقى في خط الاستقامة **﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** يغفر للإنسان ما أخطأ فيه ويرحمه برحمته.

ولكن نحن نرى اتجاهاً آخر في التفسير، حيث نعتقد أن هذا من تنمة كلام امرأة العزيز، لماذا؟ لأن يوسف (ع) لم يكن بحاجة لأن يثبت براءته للعزيز زوج هذه المرأة، لأن العزيز ليس هو الملك، بل كان زوجها هو الشخص الوجيه صاحب المكانة الإجتماعية المرموقة، وكان يُطلق على الوجيه بأنه عزيز. من هنا فإن الملك لم يكن يعرف يوسف، وزوجته لم يحدث معها ما جرى مع زوجة العزيز الذي ثبتت له براءة يوسف منذ البداية من خلال الشاهد وتمزيق قميصه من الخلف وجملة من الأدلة دفعته للقول ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نفهم من هذا أن براءة يوسف كانت واضحة وضوح الشمس للعزيز زوج هذه المرأة، لذلك فإن الكلام ليس ليوسف - كما يقول بعض المفسرين - بأنه لم يخنه بالغيب، فهذا الكلام لزوجة العزيز ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أرادت أن تثبت أنها لا تزال على حبه فليست المسألة مسألة مراودة وحسب، فهي تعلقت بيوسف بإحساس حُبّ وهذا ما نستوحيه من الآية ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهنا مَنْ يقول كيف تقول بأنها لم تخنه مع أنها سجنته، قد يُردّ على ذلك بالقول: إنَّ سجنه لم يكن خيانة في زعمها، تماماً كما لو أن إنساناً يحب آخر فيضغط عليه حتى يستسلم لحبه، وبرأيه فإن هذا لا يُعتبر خيانة، بل فيه مصلحة له. ويبدو أنه بعد كل هذه الصدمات التي مرّت عليها، رجعت إلى الله تعالى، وشعرت بأن اندفاعها في هذا الخطّ المنحرف انقلب عليها سوءاً لذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذه الشهادة لمصلحة يوسف وتحديدًا في مجلس الملك الذي أرسل وراء النسوة ووراءها ليعرف ما جرى ليوسف، وكان كل ذلك في غياب

يوسف(ع). ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وهذا من كلام زوجة العزيز، فلو كان من كلام يوسف، فهو لم يعمل سوءاً. صحيح أننا قلنا في بداية هذه الأبحاث حين توقفنا عند الآية المباركة ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ إنه صدر منه حالة انجذاب عفوي لا انجذاب قصدي، ولكن لم يقدم على المعصية أبداً، فهو المنزه والمعصوم عن الخطأ. لذلك فإن هذه الآية ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ إنما تصدر هذه الكلمات ممن تحرك باتجاه السوء أو مارس هذا السوء، وهذا يتناسب مع حال امرأة العزيز ولا يتناسب مع حال يوسف(ع)، فهي تعتبر أنها خضعت لنقاط الضعف فيها التي ضغطت على نفسها فأوقعتها في الخطأ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهي وقعت في ذنب كبير، ولكنها لم تستسلم لليأس، استغفرت الله أمله أن يرحمها ويغفر لها.

لهذا فإن ما يذهب إليه هؤلاء المفسرون في تفسيرهم، بأن هذا الكلام ليوسف هو خلاف الظاهر، وخلاف السياق العام في القرآن، والله أعلم بحقائق آياته.

قوة وتمكين وأمانة

وبعد اعتراف النسوة واعتراف زوجة العزيز، وفي ظل هذه الأجواء ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اسْتَحْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فشاب بهذه الثقافة يستطيع أن يفسر ما في المستقبل من خلال الأحلام، إضافة إلى كونه قوياً في أخلاقه، عفيفاً في نواذعه، صادقاً في كلماته ومواقفه، فأنا بحاجة إليه حتى يعينني على إدارة الأمور لا سيما في المسألة التي ستواجهنا في المستقبل.

وخرج يوسف من السجن بريئاً ﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾ أراد أن يتعرف على وعيه وثقافته ومعرفته أكثر ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ نحن نعطيك الأمانة ونستأمنك

على أمورنا، ولك التمكين في إدارة شؤوننا، فكأن الملك يريد أن يخيره فيما يحب أن يتسلم مسؤوليته ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ اجعلني وزيراً للإقتصاد والمالية، لأن المشكلة التي ستواجهكم مستقبلاً، هي مشكلة إدارة الثروة خلال السنين السمان والسنين التي تأتي عجافاً، وذلك حتى انظم لكم الوضع بالطريقة التي تحفظ توازن البلد، وذلك بتنظيم طريقة الإنتاج وطريقة التوزيع لثروة البلد ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ طبعاً ليس على الأرض كلها، بل الأرض التي يسيطر عليها الملك، أرض مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ فإني احفظ الخزائن فلا يسرقها أحد ولا أخونها، وإنني أملك الوعي الإقتصادي والإداري الذي أضبط بهما ثروة مصر.

ويتدخل القرآن بعد كل الذي جرى ليوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه التجارب والمصاعب والأزمات والإتهامات زادت يوسف (ع) وعياً وخبرة ومعرفة وعمقاً في التقوى وإشراقاً في السمعة. وهكذا كثير من الناس المؤمنين الصابرين المجاهدين الذين قد يقع الواحد منهم هنا أو يفشل هناك، وتعجبه الدنيا عجباً، ولكن يخرج من كل هذا التجارب إنساناً قوياً الوعي والموقف والمعرفة والتجربة مصداقاً لما قاله أمير المؤمنين علي (ع): «والعقل حفظ التجارب وخير ما جربت ما وعظك» (*) فالتجارب تصنع للإنسان عقلاً جديداً من حيث أنها تصنع له خبرة جديدة، لأن هذه التجارب تطل على أكثر من عالم يعمق له إحساسه بالواقع، تنقله من حالة إلى حالة، ومن واقع إلى واقع، وهذه كلها تشحنه بالقوة والثبات. أما أولئك الذين يعيشون الضعف فإنهم يسقطون عند أول تجربة، مثل بعض من الناس الذين يستحمون بالحليب حتى صارت عظامهم حليبية لأن عقولهم حليبية، بحيث لا يثبت الواحد منهم، بل هو عرضة للإهتزاز والسقوط على الدوام. فنحن نحتاج لمن تكون عضلاته حديدية ؟ وعقله حديدياً، وهذا لا يكون إلا بالإرادة الصلبة التي لا

(*) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

تنهزم عند أول تجربة. لهذا كانت ضرورة أن نملك العضلات القوية في الجسد وفي العقل، بأن تكون عضلات الحسّ والشعور قويّة وكذلك عضلات العقل التي تقوى بالمزيد من التجارب والصدمات التي نواجه فيها الواقع.

لذلك نقول لكلّ الرساليين: لا تتألموا من الصدمات، ولكن استقبلوها على أنّها دورة تدريبية من أجل قوة أكبر ووعي أوسع. وهنا كلمة للشاعر الإنكليزي (شكسبير) تقول: «إنّ أية عقبة تعترضني ولا تقتلني فهي قوة جديدة لي» فعندما أواجه هذه العقبات ولا تقتلني، فمعنى ذلك أنني أنا أقوى من العقبة، وكذلك عندما نعيش مع البلاء والظروف الصعبة والصدمات، معناه نحن أقوى منها لأنّها لم تستطع أن تسقطنا، وأن تغيّر من مواقفنا ومواقفنا حيث نبقي ثابتين من دون اهتزاز.

من هنا فإنّه تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ رغم كلّ ما حدث ليوسف من تأمر إخوته إلى أن وصل إلى هذا الأمر كان ثابتاً لم يسقطه أي شيء، لهذا صار مسيطراً على كلّ مقدرات مصر، وكلّ ما فيها تحت إمرته ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ فانا أملك الأمر كلّهُ، فأصيب برحمتي مَنْ أَشَاءُ وأفتح له أبواب الحياة والمجد وأبواب التمكين ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ﴾ نرحمهم في الدنيا على ما قدموه من خير، ولا نضيع أجرهم في الآخرة وهم الْمُعَزَّزُونَ الْمُكْرَمُونَ ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ فمهما أعطى سبحانه الحسنيين من أجر في الدنيا، فإنّ أجر الدنيا لا قيمة له أمام أجر الآخرة الذي يعطيه للإنسان جزاء إحسانه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فهذا الخير لهؤلاء المؤمنين الأتقياء، الذين كان إيمانهم يفتح أمامهم آفاق الله ورسله واليوم الآخر، وكانت تقواهم تفتح لهم طريق الإستقامة في العمل. وهذا الأجر الذي يأخذونه على ذلك يفوق أجر الدنيا لأنّه زائل، أما أجر الآخرة فهو باقٍ، والآخرة هذه ﴿فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ﴾.

ويلتقي باخوته بعد طول فراق

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِآخِ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتَاهِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَحْمَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَالِلهُ خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥٨ - ٦٧).

كَرَمَ النُّبُوَّةِ

ويصبح يوسف (ع) الحاكم في المجال الإقتصادي، وتذهب السنون السمان، وتأتي السنون العجاف، وكما انعكست المسألة على مصر انعسكت على البادية، فأصاب القحط المجتمع الذي ولد فيه يوسف وعاش فيه أبواه وإخوته. وصار الناس يبحثون عن الغذاء بعد أن أجذبت أراضيهم وعرفوا أن في مصر ثروة غذائية يمكن أن يستفيدوا منها على أساس التبادل التجاري.. وعلى هذا ذهب إخوة يوسف إلى مصر، وكان اللقاء بينه وبينهم ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ جاءوا على أمل أن يحصلوا على القوت ليعودوا به إلى أهلهم، ولما دخلوا عليه عرفهم فوراً لأنهم عندما رموا به في البئر كانوا هم كباراً وكان هو صغيراً وبقيت صورهم في ذهنه، لذلك عرفهم وهم أنكروه بمعنى أنهم لم يعرفوه.

واختصر القرآن كلَّ المشهد، لأن طريقة القصص القرآني أنه لا يتعرض للتفاصيل الصغيرة، وإنما ينقل المشهد من موقع إلى موقع تبعاً لحاجة القضية التي يعالجها، ولذلك لم يتعرض لكيفية دخولهم عليه، كلُّ ما في الأمر أنهم اشتروا وتبضعوا وأرادوا الرحيل، وهنا ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِآخِ لَكُمْ مِنْ أَيْكُم﴾ نفهم من ذلك أنه التقاهم، ولا بد أنه سألهم عن أبيهم ومن أي بلد هم، وهل لهم إخوة آخرون ومثل هذه التفاصيل، ولا شك بأنهم أخبروه بأن لهم أخاً غير شقيق وهو أخو يوسف، وليس من الطبيعي أن يطلب منهم الإتيان في المرة القادمة بأخ من أبيهم دون أن يخبروه بأن لهم أخاً لأنهم سيستغربون وسيتسألون كيف عرف أن لهم أخاً من أبيهم، وعلى هذا طلب منهم إحضار أخيهم عندما يأتون مرة أخرى، وحتى يطمئنهم قال لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لاحظتم أنني أعطيتكم الكيل الوافي، وأنا خير الناس الذين يكرمون من زارهم، فانزلتكم خير

منزل، لذلك ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فشرطي إذا أحببتكم أن تعودوا من جديد لتأخذوا وتستتروا ما تحتاجونه فلا بد أن يأتي أخوكم معكم في المرة القادمة، فكان جوابهم ﴿قَالُوا سَفَرُوا مِنْهُ أَيَّامًا﴾ المسألة ليست بأيدينا، وليس هذا من مسؤوليتنا باعتبار أن أباه ولي أمره، وهو مقرب منه وعزيز على قلبه، فالأمر في ذلك عائد إليه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ومع ذلك سنطلب من أبينا ما ينبغي.

وهنا نشير إلى أن عملية البيع والشراء بينه وبينهم يبدو أنها لم تتم من خلال أنهم يدفعون نقداً ويأخذون مقابل ذلك ما يريدون، بل إنهم يقدمون إليه بضاعة ويعطونه في مقابل ذلك ما يأتون به من بلدهم مما يصنعونه أو ينتجون. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أراد أن يزيدهم ارتباطاً به ومحبة له وشعوراً بإحسانه إليهم، لذا أمر عماله أن يعيدوا إليهم ما أخذه من بضاعتهم التي قدموها كبذل لما أعطوه إياه، حتى يصبح ذلك دافعاً للعودة إليه وليبحث في نفوسهم الإحساس بالربح الكبير حيث أنهم أخذوا ما أرادوا ولم يخسروا شيئاً لأن بضاعتهم ردت إليهم.

خوفاً من تجربة جديدة

وعادوا إلى مصر ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَحْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وبعد أن استراحوا وحدثوا أباهم عن رحلتهم إلى مصر، وضرورة أن يعودوا من جديد بعد أن تنفذ بضاعتهم، طرحوا عليه شرط حصولهم على الغذاء من قبل عزيز مصر من جديد، وهو أن يأخذوا معهم أخاهم غير الشقيق وهم له حافظون. ولكن كان جواب يعقوب (ع): ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ

عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿١٠﴾ من أين لي أن أثق بكم وقد أكدتم لي بأنكم ستحفظون أخاه من قبل وأعطيتم الأيمان المغلظة على ذلك، فكيف آمنُ بإرسال أخيه معكم؟ ﴿١١﴾ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢﴾ فليس لنا إلا رحمة الله فهو الحافظ وهو المدبر للأمور، وكأئنّه بذلك وتحت ضغط إلحاحهم ألح لهم بالموافقة ﴿١٣﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴿١٤﴾ فإنّ العزيز أظهر عن كرمٍ عظيمٍ برده لبضاعتنا، فلنذهب إليه مع أخينا من جديد ﴿١٥﴾ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴿١٦﴾ نأتي إليهم بالميرة وهي الطعام، ﴿١٧﴾ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿١٨﴾ ويمكن أن يعطينا أكثر مما نستحقه بمقدار كيل بعير، لأنّ هذا الرجل لا يوفي الكيل فقط بل يعطي من نفسه الكثير.

والظاهر أنّ الحاجة كانت ضاغطة عليهم لأنّهم كانوا في البادية، ويبدو أنّ الطعام الذي جاءوا به من مصر لا يكفيهم مؤونة سنتهم، لذلك أعطى يعقوب (ع) موافقته بإرسال أخيهام غير الشقيق معهم ﴿١٩﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴿٢٠﴾ لذلك سوف أخذُ عهداً منكم موثقاً من الله بأن ترعوا أخاكم وتعيدوه إليّ سالماً معافى بكلّ ما أوتيتم من جهدٍ وطاقةٍ إلا إذا خرج الأمر عن طاقتكم ﴿٢١﴾ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٢﴾ فالله شاهدٌ ووكيلٌ على ما نقوله في هذا الميثاق والمعاهدة، كأنّه قال لهم: إنني أشهدُ اللهَ عليكم وأجعله وكيلاً على ما تعاهدنا عليه، فهو الذي يحاسب ويأخذ الحق ويشهد على ذلك.

العاطفة الرسالية والتوجيه السديد

وقبل أن ينطلقوا إلى مصر مع أخيه أوصاهم ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ من خلال عاطفته الأبوية أوصاهم عند دخولهم إلى مصر وكانوا عشرة شباب ألا يدخلوا مجتمعين فيُعجب بهم الآخرون وقد يثيرون الخوف في أنفسهم، ويرى بعض المفسرين أنه طلب ذلك منهم خوفاً من الحسد والبغي عليهم. وقد تعرّضنا إلى هذه المسألة بالتفصيل في بدايات هذه الأبحاث. ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإذا أراد أن يضرّكم أحدٌ فانا لا نستطيع فعل أي شيء لكم ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لست أنا وحسب، بل كل إنسان يؤمن بالله ويُقبل على قضايا يخاف من نتائجها، أو يُقدم على مستقبل يخاف من غوامضه، يتوكّل عليه سبحانه، فلا يسقط أمام خوفه بحيث يتحوّل إلى إنسان مشلول بلا إرادة. فعلى الإنسان أن يتوكّل على الله، لأنّه سبحانه أوكل للإنسان أن يقوم بما يستطيعه وتكفل برعايته وتسديده.

حلٌّ واقعيٌّ إيمانيٌّ

وهذه الفكرة نحتاج أن نوفرّها لأنفسنا دائماً، وذلك حينما نواجه أموراً تثير القلق فينا حول أنفسنا أو أولادنا، وحول قضايانا ومصالحنا، وذلك بأن نطرد القلق الذي يدمر أمننا النفسي، ويجعلنا نعيش في حالة طوارئ نفسية. من هنا فإنّ التوكّل على الله يمثل حلاً إيمانياً وواقعياً لكل مشاكل الحيرة والقلق التي يعيشها الإنسان أمام مخاوف المستقبل، وأمام مخاوف المناطق الخفية من الواقع. فالإنسان عندما يقف أمام ربّه فيما عمله من احتياط لنفسه وأولاده ومصالحه، وبأنّه أدّى ما عليه، وبقيت

هناك المناطق الخفية ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، فإنه يسلم أمره إلى الله في التوكل عليه. ومن الطبيعي أن الله سبحانه عندما يتوكل العبد عليه مع دراسة كل الأمور، فإن الله يتكفل برعايته، ولذا فإنه تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ - ٣)، فالله كافله، لأنه إذا أراد شيئاً بلغه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَاسِهِ أَعْلَمُ فَذُكِّرَ الْبَاطِلُ أَلِفًا مَوْجِدَةً لِيُؤْخَذَ بِهَا مَصْرِفُهُ وَمِنْهَا لَآلُ مَا يَشْرُونَ﴾ (الأنعام: ١٠١)، يرتب الحياة وشؤون الناس حسب النظام الكوني الذي يشرف عليه ويرعاه، لأن كل شيء بيده تعالى. ولذا، فإن شعار المؤمنين في كل قضاياهم ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

ونعود إلى وصية يعقوب (ع) بعدم دخولهم من باب واحد، لنرى ضرورة أخذ الاحتياطات والإحتراز دوماً، لأنه لا بد للإنسان أن يحتاط لنفسه من كل الأوضاع التي يمكن أن تثير الحسد والعقدة في نفوس الآخرين فيعملون ليسينوا إليه. هذا تحذير من أجل الإنتباه لوجود أناس معقدين في المجتمع لا يتحملون أن يروا مظهر قوة إنسان أو جماعة أو مظهر نجاح. ولذلك على الإنسان أن يستكفي شر هؤلاء بعملية وقائية من خلال تصرفه في الواقع بطريقة لا تثير حسدهم وتبعد شرهم.

وهناك نقطة أخرى فيما لو خاف الإنسان من شيء وبعد أن يحتاط لنفسه، إن عليه ألا يعطي الأمر أكثر مما يتحمل، بل عليه أن يعرف أن حذره لن يشكل له الوقاية الكاملة، إذا لم يراع مسألة التوكل على الله حيث يضع عينه بعينه سبحانه فيرعه «واحفظني بعينك التي لا تنام»^(*). وهذا المعنى - التوكل على الله - لا بد أن نربي أنفسنا عليه، وتربية النفس تنطلق من خلال مسألة فكرية إيمانية بأن الله سبحانه

(*) الصحيفة السجادية من دعاء يوم الإثنين.

قادرٌ على كُلِّ شيءٍ، حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها، وهو سبحانه المهيمن على الأمر كُلِّه.

وهنا نتوقف عند بعض الكلام الشعبي الذي يُقال: «أنا متكلٌ على الله وعليك» وندقق هذا الأمر لأننا نحتاج أن نصحح بعض تعابيرنا، والتصحيح يكون باعتقادنا بأن الله يقدر على ما لا يقدر عليه الناس، فهو الذي خلقنا وأوجدنا ورعانا، ورعايته لنا في حياتنا وبعد مماتنا، لذلك فالتوكل عليه لا على غيره أمرٌ طبيعيٌّ ويكون ذلك من خلال إيماننا بالقدرة المطلقة له سبحانه، وبالرحمة الواسعة التي تشملنا. إذاً نستطيع أن نتربى على روحية التوكل عليه تعالى وحده من خلال إيماننا بقدرته وبرحمته التي هي أساس الثقة، والذين توكَّلوا عليه كانوا مضرب المثل القرآني: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، أعطوا كُلَّ ما عندهم وجاهدوا وثبتوا في مواقعهم وكان التكريم: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

ونعود إلى مسألة تصحيح تعابيرنا فعندما نقول: «أنا متكل على الله وعليك» فإن هذا يمثل منطق شرك وإن لم يكن الإنسان قاصداً له، وليس مقصوده أن يجعل هذا الإنسان في قبال الله، لكن عندما ننطق بِإِسْمِ الله في موضوع التوكل لا يصح أن نذكر شخصاً آخر ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (الشعراء: ٢١٣)، لذا ينبغي للإنسان أن يكون كلامه مطابقاً لخطه العقيدى، ونحن عندما نكون توحيديين نؤمن بالله الواحد، علينا أن نكون في الفاظنا توحيديين شكلاً ومضموناً.

لقاء بعد طول فراق

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبُ قَضَاهَا * وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ * قَالُوا نَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ * كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ﴾ (٦٨) -

(٧٩).

الخطبة المدكّمة

ومن جديد، يعود أولاد يعقوب إلى مصر، ومرةً جديدةً وجهاً لوجه أمام أخيه يوسف ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ما هي هذه الحاجة، وما هي طبيعتها، هل هي سرٌّ خاص؟ إن القرآن أجمل المسألة، ونحن نُجمل ما أجمله القرآن، مما لا يريد الله لنا أن نعرفه، لأن المسألة لا تتوقف على هذه الخصوصية أو تلك ﴿وَأِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ فهو يعلم كثيراً من الأشياء التي يجهلها الناس، مما يعطي الله سبحانه أنبياءه من غيبه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون ما يعلمه، أو لا يعلمون ما يعطيه الله لأنبيائه من أسرار غيبه، ومن أسرار علمه. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ عمل على أن يجد فرصة يلتقي فيها بأخيه بشكل منفرد، وكان من الطبيعي وإن لم يصرح القرآن بذلك أن يطلب منهم الجلوس معه، فكانه قال لهم، أريد أن أتعرف عليه أكثر بعد أن تعرّفت عليكم في المدة الماضية. وعندما أوى إليه أخاه وانفرد به وأجلسه معه كشف له عن شخصيته دون أن يعرف أخوته شيئاً ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ وذلك تخفيفاً له من معاناته التي يسببها إخوته غير الأشقاء، حيث يشترك وإياه في همٍّ واحد من خلال إهمال إخوتهما لهما وعقدتهم تجاههما، فأراد أن يطمئنه بأنه وصل إلى المكان الذي يرتاح فيه من كلّ ما عانى، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يبتئس ولا ينزعج مما كانوا يعملون حيث انتهى مسلسل الآلام الذي ضغطوا فيه عليه وأرهقوا نفسيته من خلاله.

وهنا بدأ يوسف يفكر بالطريقة التي يحتفظ فيها بأخيه، ويفكر أيضاً بالطريقة التي يجمع فيها كلّ أهله... وبدأ برسم الخطّة، وربما تحدّث إلى أخيه ببعض عناوينها وخصوصاً في الدور الذي لا بدّ أن يعيشه ويلعبه. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم

بِجَهَازِهِمْ ﴿ وعلى الطريقة القرآنية باختصار المشهد، فإنه لم يتحدث القرآن عما طلبه منهم يوسف (ع)، ماذا تريدون؟ وما هي البضاعة التي تودون مبادلتها؟

اختصر القرآن المشهد كُلَّهُ، باعهم وبادلوا وحملوا الأحمال وجهزهم ليرحلوا ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ طلب من عماله أن يضعوا الإناء أو الصَّاع الذي يستقي به الملك في رحل أخيه الذي من المفترض أن يذهب معهم، وتحركت قافلتهم ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ مَوْزَنَ﴾ صاح صائح، أو أعلن معلن، لأنَّ الأذان هو الإعلان ﴿أَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ توقفوا، إننا نتهمكم بالسرقة. والعرير هي القافلة.

رأي و مناقشة

وهنا مَنْ يتساءل، كيف يجوز اتهامهم بالسرقة مع أنَّهم لم يسرقوا. للمفسرين رأي في هذه المسألة مُفَادُهُ أن كلمة إنَّكم لسارقون قيلت بنحو الإستفهام، بمعنى هل أنتم سرقتم شيئاً؟ ولم تُقَل هذه الكلمة بنحو الإخبار بأنَّكم سرقتم. برأينا أن هذا غير ظاهر من الآية، حيث من الممكن جداً أن يُقال إنَّكم لسارقون في مقام إصدار الإتهام حتى تنجلي الحقيقة، ومن الممكن كما يرى البعض بأنَّه لا مانع أن يُطلق الإنسان كلاماً لا على أساس الحقيقة، ولكن على أساس أن يصل به إلى نتيجة. نحن نعرف أن الكذب حرام، وإطلاق الإتهامات وإصدارها يكون حراماً فيما إذا أُريد من خلال ذلك التحرك بطريقة تسيء إلى الآخرين وتحملهم ما لم يفعلوه، كاتهام شخص بالسرقة، وحبسه وسجنه لتأكيد التهمة من دون أي دليل، وهذا ما لا يجوز. لكن إذا كانت هناك غاية كبرى يُراد الوصول إليها، فيجوز تجاوز بعض الحدود... فلو فرضنا أن إنساناً بريئاً يتوقف إنقاذه من الموت بأن تُوكل إنساناً يدافع عنه بطريقة غير حقيقية بأن يُشهد أناساً بشيء لم يروه، في هذا الحالة يجوز، تماماً كما لو حلفت كاذباً لتنتقذ إنساناً اعتُقل من قبل سلطة ظالمة على أساس أنه قام بعملية جهادية، أو بأي عمل يخدم الأمة والإسلام.

صحيح أن الله تعالى حرّم الكذب لما فيه من مفسدة على حياة الفرد والمجتمع، ولكن إذا كانت هناك غايات تفرض على الإنسان أن يكذب، غايات تكون فيها المصلحة أهم من المفسدة فإنه يجوز له أن يكذب، بل قد يجب في بعض الحالات.

وهكذا في الإصلاح بين الزوج والزوجة، والصديق وصديقه، وبين عائلة وعائلة، أو عشيرة وعشيرة، فإذا توقف الإصلاح بين الجميع على أن يقول الإنسان كلاماً مغايراً للحقيقة حتى تهدأ الأوضاع المتشنجة، فإنّ الكذب يجوز في مثل هذه الحالة.

ونحن لا نقول: بأن الغاية تبرّر الوسيلة على الطريقة «الميكافيلية»، نحن نقول: الغاية الشخصية لا تبرّر الوسيلة، لكن الغاية العامة تبرّرها، إذا كانت الحاجة في حجم القضايا الكبرى، هنا يجوز أن نستعمل الوسيلة التي لا تجوز في نفسها إذا كانت سبباً للوصول إلى غاية كبرى، فالغاية الشريفة التي تحمل مصلحة في ذاتها فإنّها تنظّف الوسيلة.

من خلال ذلك نفهم الخطاب الموجّه لأخوة يوسف ﴿أَيُّهَا الْعِيزُ إِشْكُم لَسَارِقُونَ﴾ كأنّه أطلق هذه التهمة ليردّوا ويتساءلوا عما فقدوه، وليكتشفوا أن صوّاع الملك في رحل أخيه، وعند ذلك يواجههم ويُبقّي أخاه عنده، ويهيئ الظروف لمجيء أبويه ولتنتهي المشكلة بينه وبين إخوته، وهو بذلك لا يريد سوءاً لأخوته، بل كان يهدف إلى أن يكون ذلك مدخلاً للنتائج التي يريدها من دون أن يؤذيهم. نعم قد ينزعجون من ناحية نفسية، ولكن ما يبرّر له ذلك أنه أراد الوصول إلى النتائج الكبيرة والغايات النبيلة من خلال هذا التصرف الذي أراده.

مراحل الإتهام

وعندما سمعوا النداء بأنهم سارقون ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ توقفوا عن المسير وعادوا إليهم متسائلين ﴿قَالُوا نَفْقَدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ فقدت الأنبة

التي يشرب بها الملك ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فالذي يجد صواع الملك الذي من الأهمية بمكان لأنه من خصوصياته، نجعل له حمل بعير من القمح ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وأنا أكفل ذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ لقد جئناكم في المرة الأولى ولا حظتم أمانتنا في تعاملكم معنا، فأنتم تعرفون أننا لم نأت لنفسد في الأرض، فلقد حافظنا على كل نظامكم في الأمانة والصدق، ولم نعبث بأي شيء ولم نستغل وجودنا أبداً، وعلى هذا فإننا لم نسرق أبداً ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ولكن إذا كان ادعائكم كاذباً وتبين وجود السارق بينكم ما جزاؤه في شريعتكم؟ نحن نريد أن نعاملكم بشريعتكم لا بشريعتنا. ويوسف كان يعرف أن شريعة بني إسرائيل تقضي بأن السارق يصبح عبداً عند من سرق منه، وعلى هذا يكون تخطيطه قد بدأ يصل إلى غايته من خلال أن الصاع في رحل أخيه، وبذلك يضمن بقاء أخيه عنده كونه «سارقاً»، أما القانون المصري فكان يحكم بحبس السارق والتنكيل به وهذا ما لم يردده يوسف، لذلك كان السؤال: ما جزاء السارق في شريعتكم ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ هذا الجزاء يطبق على من وجد الصاع في رحله، فيعيد الصاع ويصبح عبداً مملوكاً للملك ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ فالسارق ظالم ونحن نجزيه بذلك.

وحتى لا تنكشف خطة يوسف (ع) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وهم أحد عشر شخصاً مع أخيهام غير الشقيق، فبدأ بتفتيش الأول والثاني والثالث وهكذا، لأنه لو بدأ بتفتيش رحل أخيه وأخذ الوعاء منه لساورهم الشك في أن خطة دُبِّرت ضدهم ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ كيف تقولون بأنكم لم تسرقوا؟ ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ الكيد هو عبارة عن التخطيط بخفاء، وهو ليس أمراً سيئاً إلا إذا كان الهدف سيئاً، أما الكيد للخير فلا مانع ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي

عَلَّمَنَاهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ يَضُمَّ أَخَاهُ إِلَيْهِ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ وبحسب دين الملك المصري، ما كان ليستطيع أن يأخذ أخاه بهذه الطريقة التي ألهمه الله معرفتها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وذلك من خلال هذه الخطة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعطي الله البعض وسائل ترفع درجاتهم في العلم، ولكن كُلُّ مَنْ يملك علماً يبقى هناك مَنْ هو أعلم منه وهو الله تعالى.

بقاء العقدة

واستيقظت العصبية والعقدة في أنفسهم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فإذا كان سرق فإنه ليس أخانا الشقيق، وله أخٌ آخر شكّل لنا مشكلة كان قد سرق من قبله ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ إنفعل لأنهم يتهمونه ولكنه تحكّم بأعصابه ولم يظهر غيظه، ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ ولكن واجههم، بأنكم قافلة واحدة متضامنة متعاونة، وأنتم مسؤولون جميعاً عن فعل السرقة هذا، وإن ادعاكم بأن أخاً له سرق من قبل لا يغيّر الحقيقة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ والله تعالى يعلم إذا كان صحيحاً ما قلتموه عن أخيه أم لا.

وعندما حملهم المسؤولية ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ نحن نفهم حكم الشريعة، ولكن نحن مستعدون كأخوة أن نقدم أحداً منا ليكون عبداً بدل أخينا، لأن لنا أباً كبيراً في السن عاهدناه أمام الله أن نحفظ أخانا الذي يحبه جداً، ولكل قانون استثناءات فتكرّم وأحسن علينا بهذا الطلب ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾. وأنى ليوسف أن يقبل طلبهم وهو من يريد أن يأتي بأبويه إليه، وفي حال قبول طلبهم يكون قد أفسد خطته، فيرفض الطلب على اعتبار أن «السارق» وحده يتحمل المسؤولية، وليس مستعداً لممارسة الظلم بأخذ إنسان مكان إنسان.

وتتجدد احزان يعقوب

﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عِلْمُكُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٠ - ٩٢﴾.

دراسة المواجهة مع أبيهم

وذهبت محاولات أولاد يعقوب (ع) هباءً، حيث لم يقبل يوسف طلبهم بأخذ واسترقاق واحدٍ منهم بدل أخيه **﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ﴾** ولما يُنسوا من إقناعه بما يريدون **﴿خَلَّصُوا نَجِيًّا﴾** خلصوا إلى أنفسهم مجتمعين مع بعضهم في حالة مناجاة بينهم، ماذا يصنعون؟ كيف يواجهون أباهم؟ كيف يتخلصون من هذا المأزق الجديد الذي فرضته عليهم هذه الأوضاع المستجدة؟ وصار كُلُّ واحدٍ يدلي برأيه **﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾** وهذا الأخ كونه الكبير بينهم، فقد يستشعر المسؤولية أكثر من بقية إخوته، وذلك فيما يُعتبر أن الولد الأكبر يمثل الأب الثاني في الأسرة، ولهذا فإنَّ شعوره بمسؤوليته عن كُلِّ ما يتعلق بالأسرة، سواء كان ذلك مما يتصل بالأب أو بالأبناء أكبر من مسؤولية إخوته. لذلك حاول الأخ الأكبر فيهم أن يتحدث بلغة حاسمة، أولاً، نحن أعطينا عهداً لأبينا جميعاً أننا سوف نحفظ أخانا ونعيده إليه إلا أن يُحاط بنا، ولكننا لم نستنفد كُلَّ الوسائل في سبيل حفظه ورعايته، ثانياً، سبق وأننا فرطنا في حياة أخينا يوسف (ع) ولم نعرف عنه شيئاً حتى الآن، ثالثاً، لقد سلّمنا أخانا بنيامين للرّق وسيضيع كما ضاع يوسف، لذلك فإنني لن استسلم للواقع، ولن أبرح مكاني، وسأبقى هنا لأبذل كُلَّ المحاولات لإنقاذ أخي ولمعرفة مصيره، إلا أن يأذن لي أبي بالعودة بعد أن يعرف ظروفه وأكون في حلٍّ من عهدي، عندها لا أشعر بتحمل تبعات المسؤولية، أو أن يقضي الله تعالى أمره فيما نحن فيه، لذلك **﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾** لا تشعروا بالإحراج، وصحيح أن الموقف مؤلم وصعب ومحرج عندما تواجهون أباكم بذلك وتعرفونه

الحقيقة، ولكن القضايا الصعبة لا يمكن حلها على طريقة «الف والدوران»، بل لا بد من طرحها بشكل حاسم حتى وإن شككت صدمة لمن تُطرح عليه، لذلك قولوا له بأن ابنه سرق ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ نحن نشهد على سرقته لأننا رأينا صواع الملك قد أُخرج من رحله، وهذه علامة السرقة، ولم نشهد عليه زوراً وبهتاناً وحسداً وظناً، ولكنها هي الحقيقة التي برزت من خلال العلم الجازم الذي لا يتضمن أي وهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ عندما أعطيناك عهدنا بالمحافظة على أخينا إلا أن يُحاط بنا، لم نكن نعرف أن المستقبل يخفي في داخله مثل هذه المفاجأة التي لم نكن نتظرها من أخينا هذا الذي لم نعرف عنه إلا الأمانة والصدق والصلاح.

تبريرات وانتقادات

وفي محاولة لتبرئة ساحتهم، عرضوا عليه إذا لم يصدقهم كونه سيبتهم كما اتهمهم من قبل بإخفاء أخيه يوسف، أن يسأل القرية التي كانوا فيها وليبعث رسولاً ليسأل الناس عن ذلك وسيرى أن الأمر بينهم وبين العزيز في موضوع السرقة جرى أمام ملا من الناس والقوافل الأخرى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إسأل القافلة التي كنّا جزءاً منها، وهذه القافلة من القرية التي كنّا فيها، إسأل هؤلاء الذين كنا معهم عن القضية وسينبئوك بما أنبأناك به وإننا صادقون فيما نقول ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ هناك شيء خفي دفعتمكم أنفسكم إليه، وكأنكم - كما يقول بعض المفسرين - أعطيتم العزيز حجة في أن يستعبد أخاكم وذلك من خلال قولكم ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أو أن أنفسكم سوّلت لكم أمراً بحيث بادرتم إلى الموافقة على الحكم ولم تدافعوا عنه، أو تحققوا في الأمر، وهذا ما يظهره موقفكم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وبهذا استعجلتم اتهامه بالسرقة وإصدار الحكم

عليه، فلم نحاولوا أن تقدموا الأدلة التي تبرأ أخاكم، حتى وإن طلبتم من العزيز أن يستبدله بواحد منكم، وكلُّ هذا ينطلق من العقدة الموجودة في أنفسكم تجاهه وتجاه أخيه من قبل، ومع كلِّ ما فعلتم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ويوضح لهم يعقوب (ع) بأنَّه عندما يواجه الأحداث والمشاكل والصعوبات في الحياة، فإنَّه يواجهها من موقع إيمانه بالله، ودوره في الرسالة، وهذا الموقع يفرض عليه أن يصبر، وهو عندما يصبر الصبر الجميل فمعناه أنَّ اليأس والإحباط لا يسيطران عليه، وصبره صبر المؤمن الذي ينتظر الفرج من خلال الصبر، وكأنَّه (ع) يعتبر ورغم ضغط الأحداث عليه وانسداد الأفق أمامه أنَّ الأمل حاضر دوماً أمامه.

من هنا كان قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وأنا أمل وفي حالة الصبر هذه أن يعيد الله لي ولدي، فهو العليم بخفايا الأمور الذي يضع كلُّ شيء في موضعه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وهاجت ذكراه على يوسف من خلال هذه الحادثة الجديدة التي تعرَّض لها أخو يوسف الشقيق، وتجددت أحزانه على حبيبين له، أثيرين عنده، مميزين عن إخوتهما في الجمال والشباب والتقوى، والإخلاص لله سبحانه ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، فيعقوب الذي عاش هذه الآلام في حياته، وكان يبكي بين وقت وآخر حزناً على يوسف ابيضَّت عيناه، كناية عن أنَّه فقد بصره، وربما يرى بعض المفسرين أنَّ ابيضاض العين لا يُراد به العمى، لأنَّ الإنسان إذا استعبر وبكى بشكل فوق العادة، فإنَّ سواد العين يختفي ويظهر البياض منها. ولكن نحن نعتقد أنَّ يعقوب (ع) أُصيب بالعمى، وهذا ما نستفيده من الآية ﴿ادْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ وهذا يدلُّ على أنَّه أُصيب (ع) بالعمى.

ويبقى حاضراً في وجدانه

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ورغم كل شيء فهو يحبس غيظه وحزنه في نفسه، ولم يتصرف تصرف الجازعين الذين يتمرّدون على إرادة الله، ولكنه يعطي للحزن دوره الهادي في قلبه وإحساسه وشعوره، من دون أن يترك الحزن تأثيره على حياته وعلى دوره في رسالته وحركته في الحياة ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ لقد فوجئوا بذكره ليوسف الذي يُقال بأنه غاب عنهم مدة ثمانية عشر عاماً، وظنوا أن أباهم قد نسيه، لأن الذكريات الماضية تذوب وتزول وتذهب ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي لا تفتأ، ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مشرفاً على الهلاك قريباً من الموت ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أو يؤدي بك ذلك إلى الهلاك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أنا لا أشكو بَثِّي وحزني إليكم، فأنا لا أشكو لبشر، وأنا عندما اذكر يوسف وأسف على غيابه، فإنما أجلس في حالة مناجاة مع الله، ولذا فإنني أرجع شكواي إلى الله وأقدم حزني بين يديه سبحانه، فهو الذي يملك إزاله حزني عني ويبدله إلى فرح، وعندما أعبر عن حزني فليس لإثارة الإشفاق علي من الناس، أو لأفرض حزني عليهم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعلم من الله أنه رحيم بعباده، فهو يعطي الأمل من قلب اليأس وهذا ما أعلمه من خلال معرفتي به تعالى، لذلك لم أفقد ثقتي بربي أو إيماني به، ولا أرى أن التعبير عن الحزن يتنافى مع إستسلامي له، فالتعبير عن الحزن حالة إنسانية، والإستسلام إلى الله هو حركة هذه الحالة بين يدي الله حتى تُعين الإنسان على أن يفتح على المستقبل أكثر من خلال الله لا من خلال غيره.

الخروج من ظلمة اليأس إلى نور الأمل

ولأنه (ع) لم يستسلم لليأس قال لهم: ﴿يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الكَافِرُونَ﴾ إِنَّ الإنسانَ الذي تواجهه المشاكل لتوحيَ إليه باليأس تأتي الثقة بالله لتتقذه، فعندما تتجمع في حياته كُلُّ عناصر اليأس في أيِّ موقعٍ من مواقع الحياة وتعمل على أن تُسقط منه الأمل وتبتعد به عن الله تعالى، عليه في هذه الحالة ألاَّ يتجمّد، مفسحاً في المجال أمام أجواء اليأس لتسيطر عليه، أو أن يجلس في بيته نادباً حظّه. الإسلام في هذا المجال يحثّ الإنسان على أن يدرس واقعه، ليرى إذا كان يأسه حالةً نفسيةً أم حالة موضوعية، لأنّه ربما يستعجل الناسُ يأسهم كونهم لا يحيطون بكلِّ جوانب الحياة، وهذه نقطة لا بدّ من الالتفات إليها، وهي تحدّي اليأس بالحركة التي قد نلتقي من خلالها بفرصٍ لم نكن نعيشها في أنفسنا، لذلك أشار يعقوب (ع) لأولاده ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ابحثوا عنهما لعلكم تجدون ليوسف أثراً في حركتكم الجديدة، أو تجدون فرصة لإنقاذ أخيه في حركتكم الجديدة هذه ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ لا تياسوا من رحمة الله ولطفه ومما يفيضه على عباده من حنانه ولطفه وتديره للأمور وإخراجه للقضايا من ظلمة اليأس إلى نور الأمل ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين يقفون أمام قضاياهم في الحياة بلا أمل، وهذا ما ينفي القدرة والرحمة عن الله، فرحمة الله عندما تعيش في وعي إيمان الإنسان، معناه أن هذا الإنسان يرى رحمة الله تتحرك لتزرع الأمل الأخضر في القلب حتى ولو ماتت كُلُّ بذوره في الإحساس والشعور. لذلك فإنّ الآية المباركة جعلت اليأس مرادفاً للكفر، فالْيَاسُ من رُوحِ الله يَأْسٌ من رحمته تعالى، ولا حدٌّ لرحمته ولقدرته، حيث رحمته وسغت كُلَّ شيءٍ.

فشل التجربة لا يعني فشل الفكرة

وهنا أخطب جيل الشباب الذي يعيش العقد النفسية أمام المشاكل التي تعترضه، سواء المشاكل التي تتصل بوضعه العاطفي أو الإقتصادي أو الأمني، لأقول له أن

يستذكر هذه الآية، وإن عليه مهما اشتدت الضغوط وقست الأمور وحُوصِرَ بالمشاكل، أن يعرف أن هناك أملاً حيث لا أمل، وأن هناك مخرجاً حيث لا مخرج، وكل ذلك بيد الله تعالى.

وأقول أيضاً: هناك مفاجآت في علم الله أنت لا تعلمها، لأن تجربتك الآن تعيش في دائرة إمكاناتك في الحياة، ولكن هناك آفاق أخرى لم تبلغها تجربتك وهي موجودة في علم الله، لذلك إن عليك أن تثق بالله أكثر من ثقتك بالوسائل التي تملكها وأكثر من الناس والظروف التي تحيط بك، لأن الله أكبر من ذلك كله، وهو الذي خلق الناس والوسائل والظروف، وهو القادر على أن يبدل ذلك كله في خلق جديد وأفق وواقع جديد. وهذا ما ينبغي لكل الناس الذين يتحركون في الحياة في داخل الظروف الصعبة أن يعرفوا بأن الحياة كلها تجربة دائمة متحركة وأن فشل ألف تجربة لا يعني فشل الفكرة وفقدان الأمل، وإن عليهم أن يبدأوا التجربة بعد الألف ليتابعوا، وعند ذلك سيصلون إلى النتائج الكبيرة باعتبار أن للمشاكل شروطاً في حلها تماماً كما أن للوجود شروطاً، فكما أن الطفل لا يُولد إلا بعد تسعة أشهر، كذلك بعض المشاكل قد يستغرق حلها تسع سنين أو عشر سنين. لذا، ينبغي للإنسان أن يواجه القضايا مواجهةً مملوءة بالآمل المنفتح على الله في كل أموره ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ معنى اليأس يساوي الكفر، فكُلَّمَا كُنْتَ يائساً، كلما كنت أقرب إلى الكفر منك إلى الإيمان وذلك عندما تنفتح على عمق معنى اليأس في نفسك.

محاولة جديدة وبدايات ظهور الحقيقة

ونعود إلى يعقوب وأولاده، فالقرآن كعادته يختصر التفاصيل، فبعد أن خاطبهم أبوهم بضرورة البحث عن أخويهما، توجهوا مجدداً إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴿١﴾ المهمة الأساسية التي أتوا من أجلها هي البحث عن يوسف وأخيه، ولكن يبدو أنهم كانوا في حالة فقر. لذلك جاءوا العزيز يشكون إليه عوزهم وفقرهم، وأخبروه بأن بضاعتهم مزجاة، قريبة من الرديئة ولا يقبلها التجار، وأن الناس لا يرغبون بها لأنها ليست محل حاجتهم ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ نحن نريد أن تعطينا الكيل الذي يحل مشكلتنا ويقضي حاجتنا ﴿وَتَصِدَّقْ عَلَيْنَا﴾ نحن لم نأتك تجاراً، بل جئناك محتاجين فأعطنا ما لا نستحق ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصِدِّقِينَ﴾ فالله يجزيك خيراً على صنيعك معنا. وانتظروا جواباً على طلبهم، هل يقبل بضاعتهم أم لا؟ هل يعطيهم ما يساوي بضاعتهم أم أكثر من ذلك؟ وهم في غمرة تساؤلاتهم، كانت المفاجأة ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ هل علمتم ماذا فعلتم بيوسف وأخيه، أم أنكم تجهلون ذلك؟ وفوجئوا بما يقوله لأنهم كانوا ينتظرون رداً مغايراً، مَنْ عَرَفَهُ بِيُوسُفَ؟ ولماذا يسأل عنه؟.. ويحدِّقون جيِّداً بيوسف فتذكروا ملامحه في طفولته ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ نحن نرى فيك أخانا يوسف وكنا غافلين عن ذلك ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فجعلني في هذا الموقع بعد أن رميتم بي في البئر وشرَّدتموني وأصبحت عبداً أباع وأشترى حسداً منكم وبغياً عليّ، وهذا أخي معي وبحمايتي ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالذي يعيش التقوى في حياته، ويحسن في عمله وقوله ومشاريعه وعلاقاته فإن الله يحفظه ويرعاه ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ كنت الإنسان التقي من بيننا، والمنفتح على الله أكثر منا، وكنا نحن المنفتحين على الدنيا ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ونحن نعتذر إليك اعتذار الخاطيء أمام مَنْ أخطأ معه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا تعنيف ولا محاسبة من قبلي، ولن أردد الكيد بالكيد ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنني غفرت لكم ما أخطأتم في حقِّي، وكوني تنازلت عن حقِّي فإن الله أكرم مني وسيرحمكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

النهاية السعيدة

﴿انْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (٩٣ - ١٠٢).

ويجتمع الشمل في ظل النبوة

ويبدأ يوسف (ع) بتركيز خطته لمجيء أبيه إليه وليضم العائلة في جوٍّ من الألفة والمحبة، ويخاطب إخوته بقوله ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فبعد أن تعرّف عليه إخوته وسامحهم على ما فعلوه معه أعطاهم قميصه ليضعوه على وجه أبيهم، حيث سيرتدّ إليه بصره بقدرة الله وبإذنه ﴿وَأَنْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنجتمع في الحضر في حبٍّ وسلام بعد أن اجتمعنا في البدو على مشاكل وخصام. وانطلقت القافلة ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي تحرّكت من مصر باتجاه المكان الذي يقيم فيه يعقوب (ع)، وقبل أن تصل القافلة كان يعقوب يتحدث مع أهله ومتعلّقيه، وفجأة ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لِأَجْدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ إِنِّي أَشْمُ رائحة يوسف، وأشعر أن في الجوَّ شيئاً ما يشير إلى أن الفرج قريب.

ولو أردنا أن نفسّر معرفة يعقوب بأثر يوسف قبل أن يصل إليه على نحو المعجزة، لقلنا بأنّه (ع) شمّ رائحة قميص يوسف من بعيد حيث المسافة فيما بين مكان يوسف ومكانه أو مكان القافلة يبعد عشرة أيام، أو أن الله تعالى ألهمه ذلك فأشرق نور الأمل في قلبه، وانشرح صدره وأحسّ بأنّ اللقاء بيوسف وأخيه قريب. ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ لولا انتقادكم واتهامكم لي بالخرف والضياع. ومن يستمع إليه، ويبدو أن بعض أولاده كان حاضراً ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ إنك لا تزال تذكر يوسف، وقد مضى على غيابه ما يقارب العشرين عاماً، ولم يأت منه خبر، ولا أمل بلاقائه، فكيف لك أن تعيش هذه الفكرة التي لا تهتدي فيها إلى الواقع، ولا تعي القضايا من خلال عناصرها وأسبابها؟ ومع ذلك أنت مُصرٌّ على ذكر ذلك بين حين وآخر ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ جاء البشير من أولاده وألقى

بالقميص على وجهه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ رجع إليه كأقوى ما يكون ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ألم أهدتكم منذ البداية أنني أعلم من الله ما لا تعلمون، ورغم مرور الأيام وفقدان أي أثر ليوسف، فإن الله ألهمني كما يُلهم أوليائه سرَّ الأمل في قلب اليأس، وسرَّ الإنفتاح على الله في كلِّ الأجواء الضاغطة التي لا يرى فيها إلا اليأس والقنوط، وبقيت على ثقةٍ وأملٍ بالله بأنَّ ولدي عائدٌ إليَّ.

وهكذا عندما تكون الفرص محدودة والأبواب مغلقة واليأس موجوداً في كلِّ مكان، فإنَّ المؤمن يرفع رأسه إلى السماء ويفتح قلبه على الله حيث يجد أنَّه ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ولذا - كما قلنا في البحث السابق - على الإنسان ألا يفقد الأمل في أية حالة من حالاته، لأنَّ اليأس إذا أحاط به من كلِّ جانب، فإنَّه يفقد معنى حياته، ويفقد حيوية الحركة في واقعه، بينما إذا انفتح على الأمل فإنَّه يظلَّ يحدِّقُ بالنور الآتي إليه من خلال نافذة الأمل ليرتاح قلبه بذلك ويظلَّ متوازناً صلباً قوياً لا يتنازل عن مواقفه ومواقعه. هذا في الواقع الخاص، أما في الواقع العام، فإنَّ كثيراً من الشعوب تفقد مواقفها وقوتها وصلابتها وذلك من خلال المشاكل والأوضاع التي تحاصرها، أو من خلال الأوضاع التي يصنعها لها المستكبرون، فتفقد الأمل بالخلاص، وترى أنَّ عليها الرضوخ لإرادة المحتلِّين والمستكبرين والظالمين، لأنَّ مواقع القوى فقدت من أيديها فتنسحق تحت إرادة غيرها، ولكن عندما تعيش الأمل في ذاتها فإنَّها تتخلَّص من كلِّ يأس وترفض ممارسة الظلم، ولا ترى كبيراً إلا الله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وهذا ما نلّمحه في قصة يوسف، حيث أن يعقوب (ع) لم يفقد الأمل أبداً، دائماً كان يذكر يوسف ويذكر إخوته به، وكان عندما يلومونه على ذلك يذكرهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعلم من الله لطفه ورحمته وعطفه وعنايته، وكنت متعلقاً بكل ذلك، لذا فإن الله لم يخيب ظني. عندها ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿وهنا يتساءل بعض المفسرين، لماذا لم يقل لهم سأستغفر، وهي تدل على المستقبل القريب، بل قال سوف أستغفر، ومجيء (سوف) تدل على المستقبل البعيد؟ فلأن جريمتهم كبيرة، فإنهم يقولون إما أنه أراد تأخير الإستغفار لهم إلى وقت السحر أو الفجر ففيهما يستجاب الدعاء، وإما أنه أراد التأخير حتى يزدادوا شعوراً بالندم، ولتعمق إحساسهم بالذنب فلا يعودون إليه مرة ثانية.

في كنف الأمان والحب

وتأتي العائلة بأسرها إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أتى بهم إلى بيته وفي كنفه وتحت رعايته ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ﴾ فلا يعترضكم أحد، وخذوا حريتكم وأمانكم.

ويقول بعض المفسرين: إن الذين كانوا يأتون إلى مصر، يدخلون وهم خائفون مرعوبون، لأن السلطة الحاكمة آنذاك كانت ترهق الناس بالضرائب وتعمل على إذلالهم. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ إحتراماً وتقديراً لهما وبراً بهما أجلسهما على الكرسي الذي يجلس عليه صاحب السلطة ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ والسجود هنا ليس سجود عبادة، بل سجود تحية واحترام وتعظيم، لأن السجود حينها كان أسلوباً من أساليب التحية ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا هو

تفسير ما كنتُ قد رأيتهُ في طفولتي من سجود الكواكب والشمس والقمر لي ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّبْحِ﴾ كنت قد وصلت إلى مصر واستعبدت وسُجنت وعانيت ووقعت في محنةٍ تلو المحنة، ولكن الله تعالى أخرجني مما أنا فيه بلطفه وعنايته وإحسانه ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وجمعني بكم بعد أن تركتم الصحراء وما فيها من شظف العيش وقساوة الواقع وجئتم إلى هنا حيث الرخاء والأمان ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ونلاحظ هنا التهذيب الإسلاميّ الإيمانيّ الأخلاقيّ ليوסף، فهو لم يقل بعدما اعتدى عليّ إخوتي وكادوا لي وخاصةً بعد أن اعتذروا منه وسامحهم على ما فعلوه معه، بل اعتبر أن الحقّ على الشيطان في ذلك ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وهذا ما يجب أن نتعلّمه من أسلوبٍ أخلاقيّ سلميّ في تعاملنا مع مَنْ أساء إلينا واعتدى علينا ثم اعتذر، بحيث نبتعد عن إسقاطه وإذلاله ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ يلطف بعباده ويرعاهم ويعطف عليهم ويرحمهم ويحسن إليهم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأسرار عباده وبما يصلحهم ﴿الحكيم﴾ بما يجري على عباده من قضائه وقدره.

تواضع الانتصار

ثم يتوجّه إلى ربّه تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أعطيتني قوة السيطرة على كلّ خزائن الدولة في مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ألهمتني معرفة تفسير الأحلام بالصدق وبما يتحقّق، بحيث استطعت من خلال ذلك أن أحصل على هذه الفرص التي هيأت لي هذا الواقع الذي أنا فيه ﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيا فاطر السموات والأرض فخلقهما ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ليس لي وليٌّ غيرك، ولا ناصر ولا معين ولا إله غيرك، فأنّا في الدنيا أتطلّع إليك عندما تضيق

بي مساحات الدنيا، وفي الآخرة كذلك ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ كل ما أريده منك وأنا أمارس مسؤولية الملك ألا أضل ولا أطفئ، وأن أموت على هذا لأنال حسن العاقبة ولتلكحني بالصلحين لأعمل عملهم واتبع نهجهم.

وهنا لا بد أن نلتفت إلى أن الكثيرين سلّموا أمرهم لله في بداية حياتهم، ثم سلّموا أمرهم للشيطان في نهايتها، وذلك عندما سقطوا في التجربة فنسوا ما كانوا يدعون إليه. ولذا لا بد للإنسان أن يعمل على أن تكون حياته دوماً في مجتمع الصالحين «اللهم ألحقني بصلاح من مضى، واجعلني من صالح من بقي، وخذ بي سبيل الصالحين، وأعني على نفسي بما تُعين به الصالحين على أنفسهم» (*).

ومن يوسف (ع) نتعلم الدرس، ففي الوقت الذي صار فيه ملكاً على خزائن مصر، يقف أمام إخوته الذين كادوا له ومكروا به، ليغفر لهم صنيعهم، متوجّهاً إلى الله بدعاء المؤمن المتواضع ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وإن كل ذلك من أنباء الغيب يُوحيه إليك ﴿وهنا يأتي الخطاب لرسول الله (ص) بأن ما أوحيناه إليك من أمر يوسف (ع) لم يكن لك به علم من قبل، وهذا الغيب الذي علمته دليل صدقك ونبوتك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ وما كنت حاضراً عندما قرروا إلقاء يوسف في البئر وزعموا بأن الذئب أكله، وغير ذلك مما لم تسمعه أو تعرفه من أحد.

(*) من دعاء السحر المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

المتمردون على خط الله

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
(١٠٣ - ١٠٧)

الأكثريّة والأقليّة وموقف الداعية

والى جَوْ جديد تنتقل السورة المباركة، جَوْ الداعية إلى الله فيما يواجهه من تحديات في دعوته ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية يريد الله سبحانه أن يبيّن للنبي (ص) وهو يدعو الناس إلى الإيمان، ويبين لكلّ داعية في خط النبي (ص) عندما ينطلق في الدعوة إلى الله، ألاّ يتعقّد عندما يرى الأكثريّة ممن يدعوهم إلى الإسلام لا تستجيب لدعوته ولا تؤمن بدينه، لأنّ المسألة ليست تقصيراً منه حتى ولو بذل كلّ جهده، وكان في أقصى الحرص على أن يوفر كلّ فرصة للهداية من أجل أن يفتح كلّ قلوب النّاس على الله والحق.

فالقليلون من النّاس هم الذين يتمردون على كلّ الضغوط التي تحاصرهم عندما يواجهون التيار، لأنّ التيار الطبيعي في الحياة الحسيّة هو أنّ الناس يستسلمون لأطماعهم وشهواتهم ولذاتهم وحاجاتهم الحسيّة، وهذا يمثل حالة غريزية في الإنسان الذي يستغرق في عالم الحسّ، والتمرد على هذا الواقع الذي ينطلق من الجوانب الحسيّة يحتاج إلى رؤية واضحة في العقل، وإرادة قويّة في الكيان وإلى انفتاحٍ واعٍ على نهايات الأمور، عندما تكون البدايات مشجّعة.

فمن السهل، السير مع اتجاه التيار، ولكن هناك صعوبة في السير ضدّ التيار، فالإنسان الذي يؤمن بالله، لا يكفي في اختياره الإيمان أن يقتنع، بل أن يكون مستعداً للالتزامات الإيمان، ومن هذه الالتزامات أن يواجه بالرفض من أقربائه وأصحابه ومن الذين يملكون مراكز القوة في المجتمع. فمعنى اختيار الإيمان أن يصبر على ضغط الإلتزام عندما تنفتح له الشهوات، فيقف بقوة ضدّ انحراف ذاته، أو عندما تتبدّى له الأطماع فلا يستسلم لها. وهناك الكثير من المصالح الشخصية التي تتحدّى الإنسان في إيمانه والتزامه، والكثير من اللذات الحسيّة والمصالح

الذاتية التي تقف أمام الإنسان لتمنعه من أن يركّز خطّه في طريق الإيمان، لأنّ الإيمان ليس كلمة، الإيمان عقيدة وموقف ومعاناة.

لذلك، قليلون هم الذين يتحملون ضغط وضربات التيار، ويفضلون أن يسيروا معه لا ضده، وهناك واقعٌ يعيشون فيه يمنعهم من اختيار الإيمان. ولو أنّنا قمنا بعملية استبيانٍ ميدانيٍّ لكثير ممن لم يتحركوا في خط الإيمان لوجدنا أنّ رفضهم للإيمان لم ينشأ من عدم اقتناع، وإنّما نشأ من خلال الخوف على المصلحة، أو الخوف من فقدان شهوة أو وضع ماديٍّ معيّن. لو أنّنا حاولنا أن نقرأ واقع الكثير من الناس من حولنا لرأينا أنّهم لم ينطلقوا من فكرةٍ مضادة، وطمع مضاد. وهذا هو السبب في أنّ الأكثرية لا تسير في خطّ الإيمان، لأنّها تخاف من الإيمان على شهواتها وأطماعها ولذاتها في الحياة الدنيا. ووحدهم الواعون الذين يدرسون النتائج قبل أن ينطلقوا مع المقدمات، وهم الذين يعرفون عمق الأشياء ولا يدرسون القضايا من خلال السطح، هؤلاء يتعمقون في وجودهم ليعرفوا سرّ هذا الوجود، فينفتحون على ربّهم ليعرفوا مقام ربّهم، وكيف يواجهون الموقف أمامه، إنّهم يفكّرون دائماً ويتأملون وينضبطون في حالة الاهتزاز، ويبقون في خطّ الله مصرّين على الامتداد فيه.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تتعقّد إذا لم تتبّع الأكثرية، ولا تنهزم إذا كانت الأكثرية في خطّ مواجهٍ لك.. فليس من الضروري أن تكون الأكثرية على صواب، والأقلية على خطأ، لأنّ الأكثرية قد تنطلق من السطح، بينما الأقلية قد تنطلق من العمق.

النّاس بالحقيقة

هذا خطاب القرآن لكلّ داعية، وأمير المؤمنين عليّ (ع) يقول في هذا المجال: «لا

تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»(*) لا تستوحش في ذلك، لأنّ القضية ليست كثرة الناس، بل هي طبيعة الطريق، أنظر إلى طريق الهدى كيف يمكن أن يضمن لك خطّ النجاة والاستقامة والانفتاح على المكاسب الكبيرة التي تحصل عليها في نهاية الأمر، لا تفكر بازديحام الطريق بالناس، ولكن فكّر بالعناصر التي تجعل هذا الطريق بعيداً عن الزلّل والضياغ ومواقع الهلاك، أنظر إلى طبيعة الطريق ولا تنتظر إلى الناس الذين يسرون فيه فربما يخطئون علامات الطريق، ويظنون أنّ هذا طريق هدى، وهو في الحقيقة طريق ضلال، لأنهم لم يميّزوا الفارق بين الهدى والضلال.

ويقول أمير المؤمنين (ع) أيضاً: «فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل»(**) عندما تجد أنّ الناس يقبلون على مائدة ينظرون فيها إلى أصناف الطعام وكميّته، ولا ينظرون إلى نوعيته، عندها حدّق في الطعام الذي يعطيك القوة، ويغذّي عناصر الأجهزة في جسدك. فالإمام (ع) ينبّه إلى النوعية ويحذّر من الكمية، وإنّك عندما تسير في طريق الهدى، قد لا تجد أكثرية فيه، ولكنك ستجد نوعية تملك الوعي المنفتح، والحسّ العميق والرؤية الواضحة. وهكذا في كلمته (ع) أيضاً: «لا يؤنسك إلاّ الحق، ولا يوحشك إلاّ الباطل»(***) عندما تريد أن تشعر بالأنس، فإنّ عليك أن تدرس الذي تؤمن به، وعندما تدرسه وترى أنّه يمثّل الحقيقة، فإنّ عليك أن تأنس بالحقيقة، لأنّها سرّ الحياة وقوة الحياة.

ولهذا كان (ع) يمثّل الحقيقة، حيث كان يعيش في بعض الحالات وحده، ولم يكن معه أحد ولكنّه في الوقت نفسه كان يستشعر القوة لأنّه كان مع الحق، وكان (ع)

(*) نهج البلاغة الخطبة ٢٠١.

(**) المصدر نفسه.

(***) نهج البلاغة الخطبة ١٣٠.

فيما يحدثنا عن نفسه: «لا تريدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»(*) فالإنسان الذي يحسُّ بامتلاء شخصيته وفكره وعقله وإحساسه وقلبه بالحق، هو إنسان لا يشكو ضعفاً، ولا يُضيف وجود الناس من حوله شيئاً، ولا ابتعادهم عنه غربة، لأنّه يعرف نفسه جيداً.

لذلك، ينبغي للإنسان الذي يلتزم الإسلام ديناً يمثّل الحقيقة الإلهية، ويلتزم خطّ الحرية والتغيير والعدالة في الحياة، عليه أن يعتاد على الوحدة وقلة من حوله، ويرى فيما يؤمن به القوة كلّ القوة والهدى كلّ الهدى. وبقدر ما يملك هذا الإنسان قوة الموقف بقدر ما يستطيع أن يترك تأثيره على الناس، وهذا التأثير قد يحصد نتائجه بعد سنة أو سنتين أو ثلاث، قد يشتمه الناس ويرجمونه بالحجارة ويتهمونهم بالجنون وبمختلف الاتهامات، ولكن إذا كان صامداً، فإنّ صموده سوف يجعل لموقعه قوة يخضع الناس لها بعد ذلك. ولنا فيما أوصى به أمير المؤمنين عليّ (ع) ولده محمد بن الحنفية خيرُ مثالٍ في ذلك، فهو يوصيه لحظة الحرب قائلاً: «تَدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ»(**) ثَبَّتْ قَدَمَكَ فِي الْأَرْضِ تَمَاماً كَمَا هُوَ الْوَتْدُ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ الَّذِي مَهْمَا حَاوَلْتَ اقْتِلَاعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَتَحَرَّكُ «أَعْرِ اللَّهَ جَمَجَمَتَكَ» عندما يعطي الإنسان جمجمته لله فإنه يُسَلِّمُ كُلَّ وجوده له سبحانه «إِرْمِ بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ» ليأخذ بصركَ أَقْصَى مَدَاهِ فِي الرُّوْيَةِ «تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُولُ» تنزلزل الجبال، أما أنت فتبقى ثابتاً ولا تعيش الاهتزاز أبداً.

ويحدثنا الله تعالى عن الذين يعيشون الاهتزاز، فيقول سبحانه: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا»

(*) نهج البلاغة، الكتاب ٣٦.

(**) خطابه لابنه محمد يوم الجمل الخطبة ١١.

(الأحزاب: ١٢) وعن الذين يعيشون الثبات في المواقف يقول سبحانه: ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢) فالؤمن يستمد قوته وصلابة موقفه من إيمانه بأحقية وصوابية فكره، وبعد ذلك تظهر النتائج الإيجابية، وعليه أن يصبر على النتائج، لأن كثيراً من ثمرات الجهد لا تظهر إلا بعد حين.

وعودة إلى جو الآية المباركة ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فأنت يا محمد تأتي إلى هؤلاء الناس من حيث أنك رسول، لا من حيث أنك تقدم لهم عملاً تطلب عليه أجراً، ولكن جئتكم كرسول، ودور الرسول أن يبلغ الرسالة ويفتح عقول الناس ويذكرهم ويخرجهم من غفلتهم.

وهكذا نجد في السيرة أن رسول الله (ص) لم يسألهم أجراً مادياً ولا معنوياً، فعندما بعثت إليه قريش مع عمه أبي طالب (رض) أن يتوقف عن تسفيهه ألهمتهم مقابل المال إذا كان بحاجة للمال، أو التزويج إذا أراد، أو الملك إذا كان لديه طمع فيه، كان جوابه (ص): «والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أموت دونه» معنى ذلك أن النبي (ص) لم يرسله الله ليحصل على فرصة مادية أو معنوية مما يملكه هؤلاء وتتصل بالمال أو الجاه، ما قيمة أموالهم ومواقعهم أمام موقع الشمس والقمر؟ فلو جمعوا الشمس والقمر في يمينه ويساره على أن يتنازل عن أمر الله فما فعل، لأن هذا الأمر أمر الله، والرسالة رسالة الله. وكأنه يقول لقريش: أنا انطلق من موقع القناعة والإيمان والرسالة، ولا أنطلق من موقع الرغبة بالأجر، حتى استسلم لاغراءاتكم أو أخاف تهديداتكم.

هذه الروح ينبغي أن يعيشها كل منا مع أهله وجيرانه وأصحابه في خط الدعوة.

وأذكر هنا كلمة لشخص لا ينتسب إلى الإسلام، يقول: «كان محمدٌ كُلُّ العرب، فليكن كُلُّ العرب محمداً، ولو بنسبة الذرة إلى البحر» قد لا نستطيع أن نكون محمداً (ص) ولكن علينا أن نقتدي به ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) أن نستمد القوة من قوته، وأن يفكر الشاب مثلاً بشباب محمد (ص) كيف عاش الاستقامة قبل أن يُبعث نبياً، وأن يفكر الكهل بكهولة النبي وصلابته ومواجهته لكل التحديات.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أنت تقدم لهم الرسالة التي تمثل ذكراً يخرجهم من حالة الضلال التي يعيشون فيها، ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مشكلة هؤلاء، هي الغفلة وعدم الوعي واستغراقهم في خصوصياتهم بالمستوى الذي يغفلون فيه عن الحقائق العامة في الحياة، وهم مع رؤيتهم لآيات الله في السموات والأرض وبما فيها من شمس وقمر ونجوم وبحار وأنهار وجبال ونبات وحيوان وإنسان ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لأنهم لا يوجهون تفكيرهم إلى ما يعرفهم حقيقة الأشياء، بل ينظرون إلى ما حولهم بشكل سطحي دون أن يتعمقوا في داخل ما حولهم، ولذلك فهم ينظرون إلى الشمس فلا تُوحى لهم بشيء، وهكذا في رؤيتهم للقمر، وتعاقب الفصول والليل والنهار، وعظمة البحار والأنهار، فهم يُعرضون عن التعمق في كُلِّ هذه المخلوقات لأنهم لم يعيشوا الاستغراق في معرفة الحقيقة، وفي مسألة الانفتاح على الوعي والمعرفة وإنما استغرقوا في خصوصياتهم وأطماعهم ولذاتهم وشهواتهم ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ حتى أن الذي يفتح منهم على الإيمان بالله، لا يفتح عليه انفتاحاً خالصاً واعياً شاملاً، بل إنه يضيف إلى إيمانه شركاً، وهذا ما يروى عن أئمة أهل البيت (ع) بأنه «ليس شرك عبادة، ولكنه شرك طاعة» (*) هم

(*) حديث مروي عن الإمام الصادق (ع). ميزان الحكمة: الحديث ٩٣١١.

يؤمنون بالله، ولكنهم يطيعون غير الله في المعصية، ومن أطاع غير الله في معصية الله فقد أشرك بالله، وهؤلاء الذين يعيشون هذا النمط من التفكير ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ هل آمنوا أن يعذبهم الله بالزلازل والعواصف وأن تأتيتهم غاشية تحرقهم وتعذبهم؟

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما هي الضمانة الموجودة عندهم حتى يأخذوا حريتهم بالكفر والشرك والضلال، هل يأمنون من عذاب يشملهم، أو فيضان يجرفهم، أو زلزال يدمرهم، أو يتوقف الدم في عروقهم، فتتوقف قلوبهم عن النبض والخفقان فيقتلهم؟

خط الله

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٨ - ١١١).

ونصل إلى نهايات السورة المباركة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في هذه الآية يريد الله سبحانه لرسوله (ص) أن يحدث الناس بالمنهج الذي يسير عليه ويعرفهم بأنَّ كُلَّ الأجواء المعقَّدة التي أثاروها أمامه، والأساليب القاسية التي واجهوه بها، وكلُّ ما قاموا به ضده لا يُضعف من عزيمته شيئاً، ولا يجعله يشك في أمره أبداً. فالكثير ممن يسير في نهجٍ وخطِّ معيّن، ويرى أنَّ النَّاسَ لا تلتفت إلى ما يطرحه ولا تلتفتُ حوله فقد يُعيد النظر فيما يدعو إليه، وقد يرى أنَّه على خطأ إذا ما وقف النَّاسُ ضده. ولكنَّ النبيَّ (ص) يؤكد للناس - وهذا ما يعلمه الله له وما يريده لكلِّ داعية إلى الله - أنَّه الواثق بربه وبرسالته، والذي لا يزيده وقوف الأعداء في مواجهته إلاَّ صلابَةً وقوَّةً ومناعةً بأنَّه على الحق، لأنَّه لم يتحرك في دعوته من حالة طارئة، وإنَّما انطلق فيها من خلال دراسةٍ وبصيرةٍ فعرف طبيعة القضية التي يؤمن بها ويدعو إليها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هذه طريقي التي أسير فيها وأصل من خلالها إلى أهدافي الكبيرة، فأدعو إلى الله مَنْ لا يعرف ربه أو أخطأ في طريقة معرفة ربه، أو مَنْ لم يتعرَّف على مواقع رضى الله ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أدعو إلى نهجه على أساس البصيرة التي تعني الحالة العقلية العميقة المنفتحة على حقائق الرسالة والعقيدة والحياة. وهناك فرق بين مَنْ يملك البصيرة في دعوته، أي القناعة العقلية والروحية وبين مَنْ يتحرك في الدعوة على أساس الأفكار السطحية والحالات الطارئة.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وهذه الطريق لا أسلكها وحدي، ولكنها طريق الذين يتبعونني في إيمانهم برسالتني وفي التزامهم في الدعوة إلى الله سبحانه في خطِّ الرسالة.

نصيحة من موقع المسؤولية

إننا نفهم من خلال إحياءات كلمات هذه الآية المباركة أنه لا بُدَّ لكلِّ الدعاة إلى الله في أيِّ موقعٍ من المواقع أن يكونوا على بصيرةٍ مما يدعون إليه، وأن يملكوا ثقافة الإسلام في عقيدته وشريعته ومفاهيمه وحركته في جميع مواقع الحياة، لأنَّ الإنسان الذي يدعو إلى الله دون أن يملك ثقافة المعرفة بالله، وثقافة الدعوة إلى دينه، سوف يتحرَّك من موقع الجهل، وعند ذلك تكون دعوته إلى الله وسيلة من وسائل الإيحاء للناس بضعف الدعوة، فالداعية إذا كان ضعيفاً في حجته وثقافته ووعيه فإنه يتحرَّك من غير حجة وبرهان، وبذلك فإنَّ الذين يقفون ضدَّ الدعوة سوف يستضعفون الإسلام من خلال استضعافهم له.

ولهذا كان أهل البيت (ع) يمنعون بعض أصحابهم وتلامذتهم ممن لا يملكون الحجة القويَّة من أن يدخلوا في جدال مع الآخرين الذي يقفون في الخطَّ المضاد لخط أهل البيت (ع)، لأنهم يُضعفون الإتجاه الذي يدافعون عنه لضعف دفاعهم. وهذا يشابه تماماً مثَّل المحامي الضعيف الذي لا يملك الثقافة ولا أسلوب الدفاع عن قضية من القضايا، فإنَّه يكون سبباً في إسقاط هذه القضية كونه ضعيفاً في حجته وفي المعرفة القانونية.

ولذلك، نقول لكلِّ الذين يسировون في طريق الدعوة إلى الله، وخصوصاً الذين يطلبون العلم الديني، ويلبسون العمامة كرمزٍ لموقعهم الديني: إنَّه من الضروري أن يعيشوا الثقافة الإسلامية الواسعة المنفتحة على الحقائق، حتى يعرفوا كيف يبلِّغون ويدعون إلى الإسلام، لأنَّ طريق طلب العلم الديني ليس مهنة للكسب والعيش، وليس شكلاً يترنَّين به الإنسان، ولا موقعاً من المواقع يحاول عبْره البعض الوصول إلى

المراكز المتقدّمة في المجتمع. فقيمة العالم أو مَنْ يسميه الناس عالماً بقدر ما يُحسن لأنَّ «قيمة كلِّ أمرٍ ما يُحسنه» (*).

الوضوح

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَأَنَا وَاعٍ لما أَدْعُو إِلَيْهِ، وأَعْرِفُ كُلَّ خَصَائِصٍ ومَقَرَّدَاتِ الأسلوب في الدعوة، بحيثُ أَنِي أَعِيشُ البصيرة التي تُمَثِّلُ البَصَرَ العقليَّ والنفسيَّ والروحيَّ ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وَأَعِيشُ حَيَاتِي عَلَى أساس أن يكونَ كُلُّ تَوَجَّهِي فِي الحَيَاةِ تَسْبِيحَ اللَّهِ، وتَسْبِيحَ اللَّهِ هو الإحساس بعظمته كي ينطلق الداعية إِلَى اللَّهِ ليعرفَ أَنَّ اللَّهَ هو الذي يَمَلَأُ عقله وقلبه، وَأَنَّهُ ليس هناك غيره سبحانه مَنْ يسيطر على العقل والقلب ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ ولا أَطِيعُ أو أَشْرِكُ غيره في أُمُورِي وكُلِّ حَيَاتِي.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ربما يفكر بعض الناس - يا محمد - كما فَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، أَنَّ اللَّهَ عندما يريد أن يرسل رسلاً مِنْ عِبَادِهِ، ينبغي أن يرسل مَلَكاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ أو رُوحاً مِنْ عِنْدِهِ، أَمْأً أن يرسل رجلاً، فهذا ما لا يتناسب مع مستوى الرسالة وعظمة الله. فالله تعالى يؤكد لرسوله (ص) بأنَّكَ لستَ أَوَّلَ رَجُلٍ أُرْسِلُ لِلنَّاسِ فَلقد سَبَقَكَ رَجَالٌ أَنْبِيَاءُ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، يعرفهم الناس ويعيشون معهم، ومَسْأَلَةُ العظمة ليست في الشكل والخروج عن المألوف، وليس العنصر هو الذي يَحَقِّقُ ذلك، فعظمة الرسول بعظمة عقله وروحه ووعيه للرسالة، وإمكاناته الفكرية والروحية التي يستطيع من خلالها أن يؤدي رسالة

(*) نهج البلاغة - قصار الحكم.

الله كاملةً غيرَ منقوصة. وعندما أرسل الله الأنبياء اصطفاهم من بين الناس لأنه سبحانه رأى فيهم القابلية والقدرة على حمل وأداء الرسالة من حيث أنهم يجسدون قيمَ الرسالة، فهم رجال كبقية الرجال، ولكن الفرق بينهم وبين الرجال أنهم يملكون قابليةً وحيَّ الله وأنه يُوحى إليهم.

دراسة التجارب الماضية

وهؤلاء الذين استنكروا أن يرسل الله رجالاً أنبياء ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فلماذا لم يؤمنوا ولم يتدبروا ويستقيموا في الخطأ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ماتوا وعذبوا ودُمِّرَت حياتهم وانتهوا، وسيكون مصير هؤلاء كمصير أولئك، فلن تخلد لهم الحياة، ولن يبقى لهم ما يتقاتلون من أجله. لذلك، عليهم ألا يعيشوا هذه المسألة من ناحية فكرية فقط، بل أن يدركوا طبيعة التجربة، من سيرهم في الأرض لينظروا حال الأمم السابقة كيف عاشوا وعمرُوا وأشادوا، وكيف ماتوا وذهب كُلُّ شيءٍ بفنائهم؟

وهذا أسلوب قرآني يريد الله فيه من الإنسان أن يتعظ بمن سبقه، فنحن عندما نذهب مثلاً إلى مصر لنرى الآثار الفرعونية، أو إلى لبنان لنشاهد الآثار الفينيقية، أو إلى بلاد أخرى في الأندلس أو روما، فهناك نظرتان إلى هذه الآثار، نظرة دراسة العظمة الفنية والإبداعية والقوة التي امتلكها هؤلاء الذين أشادوا هذه الحضارات، وهذه نظرة جيدة في أن يتعرف كُلُّ جيل على ما صنعه الجيل السابق. وهناك نظرة أخرى، وهي نظرة الإعتبار، وذلك عندما يرى الإنسان هذه الآثار العظيمة والقلاع الحصينة، وهذا الإبداع الفني، ليتساءل وليكتشف أن هؤلاء المبدعين وأولئك العظماء الذين أقاموا هذا البنيان ذهبت بهم الأرض وتحولوا إلى تراب، ولم يبق منهم إلا هذه الآثار. لذا، على الإنسان ألا يستغرق في خصوصيات هذه الحياة، بل عليه أن يعتبر

أنَّ له دوراً فيها، يمارس دوره من خلال مسؤوليته، ليعطي علماً وليبني مشروعاً وليتحرك في ما ينفع الناس، وليتقرب بذلك كُلُّه إلى الله، لأنَّ هذا ما يبقى للإنسان ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إنَّ دار الدنيا لا تمثل هدفاً للإنسان لأنها تزول وتفتنى، وما ينبغي أن يفكر فيه هو الدار الآخرة باعتبار أنها دار البقاء والخلود والنعيم، وهذه الدار للذين اتقوا ربَّهم وأطاعوه، وفكروا في الدنيا من خلال مسؤوليتهم في الدنيا مما يُغني مصيرهم في الآخرة، وفكروا في الآخرة من خلال ما يُقبلون عليه من رضوان الله ونعيمه، لذلك كانت الدار الآخرة خيراً لهم.

دعوة للعقل

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دعوة للإنسان أن يعقل ويستخدم عقله ويحركه فيما ينفعه، والأى يخضع لهواه وعاطفته، لأنَّ العاطفة لا تستطيع أن تُعرفه عمق الحقيقة، ولأنَّ هوى النفس لا يمكن أن يخطَّط له الطريق المستقيم... وحده العقل الذي أعطاه الله للإنسان الذي إذا حركه في طريق الفكر أمكنه أن يفتح له أفاق الحق وأن يعرفه مناهجه، عندها لا يحكم الإنسان على الأمور من خلال هواه، ولا يَقُومُ الأشياء من خلال عاطفته. ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ إنطلق الرسل، والدعاة من بعدهم إلى الله، فبلغوا ونصحوا ووعظوا وأرشدوا وحاوروا وناقشوا وجاهدوا، جربوا كُلَّ الوسائل في الدعوة، وعندما لم يسمع لهم أحد، ووصلت المسألة إلى حدِّ اليأس بعد استنفاد كُلِّ التجارب ولم يبق أية تجربة، هل قبل الله بيأسهم؟ صحيح أنَّهم جربوا ولم يستجب لهم الناس وواجهوهم بالتكذيب، ولكن ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ ممن آمن بالله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أما القوم المجرمون الذين كفروا وكذبوا وانحرفوا فإنَّ بَأْسَنَا - وهو الكناية عن العقوبة - سيئالهم.

الإعتبار

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذا القصص القرآني، قصة يوسف وغيره من الأنبياء لم تكن من أجل تسليّة النَّاسِ، بل من أجل أن يعتبروا بها ويأخذوا الدروس والمواعظ منها، ليستفيدوا من تجارب الماضي في حاضرهم. وقيمة التاريخ الماضي أنه مدرسة نتعلّم منها حياة مَنْ كان قبلنا فنُبقي لحياتنا ما يمكن أن يستمر من حياتهم، وليست مسؤوليتنا في التاريخ عن بعض الناس الذين عاشوا فيه، ولكن مسؤوليتنا عن الدروس التي نتعلّمها من خلالهم، لأنّ في التاريخ عناصر خالدة، هي عناصر الحياة، وعناصر زائلة نتركها لأنّها عاشت في دائرتها الزمنية المحدّدة، ونستفيد من كلّ ذلك لنصنع تاريخنا من جديد، لتقرأه الأجيال القادمة.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ما قصصناه عليك، ليس قصة مُفتراةً كاذبة، ولكنها تمثّل الحقيقة ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تصديق الرسالات التي سبقته، والتي جاءت في التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الشرائع والمفاهيم والقضايا ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي بها النَّاسُ فيما يَسْتَوْحُونَ من ذلك (وَرَحْمَةً) يرحم بها الناس فيما يهيئ لهم من وسائل المعرفة والإستقامة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ المؤمنين هم الذين يفتحون عقولهم على العبرة والدرس، وعلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

الفهرست

تصدير لسماحة آية الله العظمى

٣	السيد محمد حسين فضل الله (دام ظلّه)
٥	المقدمة
١٠	سورة يونس
١١	الكتاب والحكمة
١١	تساؤلات الإنكار
١٣	محاولات التشويه
١٤	قدرة الله في وعي المؤمن
١٨	والله المرجع
١٩	العظمة والتوازن
٢١	بين مصيرين
٢٥	التحدّي الساخر
٢٦	التوسل الخادع
٢٧	عظة التاريخ
٣١	الدعوة في مواجهة الاستكبار الفكري
٣٢	التمسك بنهج الضلال
٣٣	التمرد
٣٤	كالأساليب القديمة
٣٧	أعظم الجرائم
٣٨	عندما تتحرك الحياة في مواقع الاختلاف
٤٢	النكران والمكر
٤٤	ويرتد الظالم على أهله
٤٨	دار السلام

٥٠	عاقبة الأذلاء
٥٣	رغبة المحشر
٥٤	إقامة الحجّة
٥٧	تنوّع الشرك
٥٧	إثارات باتجاه التفكير
٥٨	وحده الواهب للحياة سرّها وهداها
٦٠	من القائد
٦٤	أسلوب القرآن في إبراز الفكر المضاد
٦٦	على خطى آبائهم
٦٧	الخطاب الواثق
٦٨	العمى والصمم العقليّان
٧١	الإحساس بالزمن
٧٣	الهروب من التبعات
٧٤	تحقق الوعد
٧٧	بين أسئلة الحق وأسئلة الإساءة
٧٨	توقيت الأجل
٨٢	كلّ ما في الكون مملوك لله
٨٣	موعظة الرحمة
٨٥	الهدى والرحمة
٨٨	التشريع الإلهي وحده يحدّد الحلال والحرام
٨٩	عاقبة الكذب على الله
٩٢	حصانة الإنتماء للحقّ والعزة
٩٣	كلّ خاضع لقوته
٩٤	تصورات لا تثبت أمام النقد
٩٧	النبوة الفاعلة

٩٩	وتتابع المسيرة
٩٩	تجربة نبوية جديدة
١٠١	عقلانية وهدوء الخطاب النبوي
١٠٥	بشارة النصر
١٠٦	ميزان القوى والحسابات الإلهية
١١٠	يقظة النوازع الذاتية
١١١	الشك من دون حجة
١١٢	التجربة الحية
١١٥	حرية الاختيار
١١٦	الحاجة إلى الدعوة
١١٧	أمام المسؤولية
١١٨	ويبقى القرار بيد الإنسان
١٢٠	كتاب الكون
١٢٢	نرى وترون
١٢٣	لتكن حياتك لله
١٢٧	سورة هود
١٢٨	حكيم خبير
١٢٩	الإنذار والبشارة
١٣٠	نداء الرحمة
١٣١	وما يخدعون إلا أنفسهم
١٣٤	كفالة الله للرزق
١٣٥	إرتباط النظام الكوني بالنظام الإنساني
١٣٦	نتائج التمرد
١٣٩	في مواجهة الضعف البشري
١٤١	إمتدادات الضعف

١٤٢ نموذج الصبر والصلاح
١٤٣ طمأنينة وثبات الداعية
١٤٦ التحدي والتحدى المضاد
١٤٧ مناقشة
١٥٠ أهمية الهدف في حياة الإنسان
١٥٢ البيئة
١٥٣ سيئات الظلم ومصير الظالمين
١٥٥ موازنة
١٥٨ النبي المنذر
١٦٠ إنسانية الأسلوب
١٦١ الفوقية والإستعلاء
١٦٢ رغم التمرد يبقى الحوار أساساً في الدعوة
١٦٥ بشرية النبي
١٦٦ ويصرون على إغلاق عقولهم وقلوبهم
١٦٧ نهاية المهمة
١٧٠ ويبحر المؤمنون بعين الله
١٧٠ عاطفة الأبوة وجحود الولد
١٧٢ تحقق أمر الله
١٧٤ العبرة بين أدينا
١٧٦ تجربة نبوية جديدة
١٧٧ ضمانات
١٧٨ لغة الكفر واحدة
١٧٩ اختباراً للقوة
١٨٠ النهايات المظلمة
١٨٢ توالي التجارب النبوية

١٨٣	التمسك بالماضي
١٨٤	وضوحُ في الرؤية
١٨٨	البشرى
١٨٩	المهمة الملائكية
١٩٠	في محاولة لحماية الضيوف
١٩١	المدد الإلهي
١٩٤	العنوان الموحد لكل دعوات الأنبياء
١٩٥	في مواجهة الانحراف الإقتصادي
١٩٦	المنطق ذاته ما بين الماضي والحاضر
١٩٨	عندما تكون الحرية فساداً
٢٠٠	أنت حلِيمٌ ولكن
٢٠٠	إن أريد إلا إصلاحاً
٢٠١	تحذير
٢٠٢	وتعمى قلوبهم
٢٠٢	سننظر وتنظرون
٢٠٥	الحجة الواضحة والسلطان المبين
٢٠٧	مسؤوليتنا تجاه الأمة المضلّة
٢٠٨	القيادة الرشيدة
٢٠٩	المصير
٢١٢	تمردوا فظلموا
٢١٣	الخسارة الكبرى
٢١٤	تنوع العذاب
٢١٦	بين الشقاء والسعادة
٢٢١	تقليد الآباء ليس إراثاً
٢٢٢	تحريف الكلم عن مواضعه

٢٢٣	خطُ النجاة
٢٢٤	إنها البداية والنهاية
٢٢٥	ظلموا وأفسدوا فأخذهم الله بذلك
٢٣٠	بيده كل شيء وترك الخيار للإنسان
٢٣٠	شمول الرحمة
٢٣٢	تقوية للعزيمة
٢٣٣	مقابلة التحدي بالتحدي
٢٣٥	سورة يوسف
٢٣٦	آيات للأجيال في كل مرحلة وكل موقع
٢٣٧	الشخصية الفذة
٢٣٨	تجربة جديدة
٢٤٠	الروحية المفتحة على الله
٢٤١	في قلب التجربة
٢٤٣	في ساحة المسؤولية
٢٤٦	الثبات والصبر في مواجهة الشدائد
٢٤٦	بيت النبوة وأفاق التربية
٢٤٧	بين الأب والإبن
٢٤٩	عندما يقتل الحسد الروح
٢٥١	سيد خزائن الأرض
٢٥٥	في مواجهة الأحقاد
٢٥٥	معصية وتسوية
٢٥٦	تنامي العقدة
٢٥٨	ظهور الحقيقة
٢٥٩	رؤى تربوية
٢٦٤	الصبر الرسالي

٢٦٤	التماسك والثبات
٢٦٥	صبر عن الحرام واختيار السجن
٢٦٦	الإرادة والعزيمة في مسار الأنبياء
٢٦٨	أحسن القصص
٢٦٩	القرآن من هذه الحروف فأتوا بمثله
٢٦٩	دعوة للإنفتاح على المسؤولية
٢٧١	قصص التوعية والعبرة
٢٧٤	الرؤيا والمستقبل المشرق
٢٧٦	العقدة والمؤامرة
٢٧٧	للعقدة أسبابها
٢٧٩	المكيمة
٢٨٠	خطوات على طريق تنفيذ الجريمة
٢٨١	دموع التماسيح
٢٨٣	تسديد إلهي ورعاية
٢٨٤	واقع جديد
٢٨٤	بدايات النجاح في الموقع الكبير
٢٨٨	التحدي
٢٩٠	ويرعى الله عباده المخلصين
٢٩١	إغراءات وصمود
٢٩٣	هروب من الخطيئة وكيد وعدوان
٢٩٨	من ضغط امرأة إلى ضغط نسوة المدينة
٢٩٩	عناد في خط الخطيئة
٣٠١	رد الهجوم
٣٠٢	لجوء إلى الله خلاصاً من المحنة
٣٠٥	إستشراف للمستقبل

٣٠٦	الخيار الأصعب
٣٠٧	مجالات الدعوة
٣٠٩	نعمة التوحيد
٣١١	من الحلم المفزع إلى الإستبشار بالمستقبل
٣١٢	العمل في كل الساحات
٣١٤	فرصة الخروج من الأزمة
٣١٧	ويظهر الحق جلياً
٣١٨	براءة لا عفو
٣٢٠	مناقشة
٣٢١	قوة وتمكين وأمانة
٣٢٤	ويلتقي بإخوته بعد طول فراق
٣٢٥	كرم النبوة
٣٢٦	خوفاً من تجربة جديدة
٣٢٨	العاطفة الرسالية والتوجيه السديد
٣٢٨	حل واقعي إيماني
٣٣١	لقاءً بعد طول فراق
٣٣٢	الخطة المحكمة
٣٣٣	رأي ومناقشة
٣٣٤	مراحل الإتهام
٣٣٦	بقاء العقدة
٣٣٧	وتتجدد أحزان يعقوب
٣٣٨	دراسة المواجهة مع أبيهم
٣٣٩	تبريرات وانتقادات
٣٤١	ويبقى حاضراً في وجدانه
٣٤١	الخروج من ظلمة اليأس إلى نور الأمل

٣٤٢	فشل التجربة لا يعني فشل الفكرة
٣٤٣	محاولة جديدة وبدايات ظهور الحقيقة
٣٤٥	النهاية السعيدة
٣٤٦	ويجتمع الشمع في ظل النبوة
٣٤٨	في كنف الأمان والحب
٣٤٩	تواضع الانتصار
٣٥١	المتربدون على خط الله
٣٥٢	الأكثرية والأقلية وموقف الداعية
٣٥٣	الأنس بالحقيقة
٣٥٩	خط الله
٣٦٠	الصلابة
٣٦١	نصيحة من موقع المسؤولية
٣٦٢	الوضوح
٣٦٣	دراسة التجارب الماضية
٣٦٤	دعوة للتعلل
٣٦٥	الإعتبار

